

أَحْسَنُ تَفْسِيرٍ لِلْقُرْآنِ بِفَيْضٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

مَجْلَدُ الْمَلَكِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

الجزء الخامس والعشرون بعد المائتين
الآية ١٨٨ سورة آل عمران

المرجع الديني للمسلمين

الشيخ صالح آل صالح

أسواق الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الأول قبل الإنشاء والآخر بعد فناء الأشياء ، والذي جعل الخلائق كلها تنقاد إلى ربوبيته ، وتفضل وخص الإنسان بنعمة فريدة من بينها بأن جعله ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١) لتتقاد وتسخر له كثير من المخلوقات ، فيكون هذا التسخير مادة ومناسبة لشكره لله عز وجل على توالي النعم التي لا يقدر عليها غير الله عز وجل ، وهذه النعم على أقسام :

الأول : النعم الظاهرة .

الثاني : النعم الباطنة .

الثالث : النعم في الصحة والبدن .

الرابع : نعمة الحال والسعة في الرزق الكريم ، قال تعالى ﴿وَاللَّهُ

يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٢).

الخامس : نعمة الهداية والإيمان ، وهي من أعظم النعم .

السادس : نعمة التوفيق لأداء الفرائض والعبادات .

السابع : نعمة النبوة والتنزيل ، فصحيح أن عدد الأنبياء قليل

جداً بالنسبة لعدد الناس ، إذ أن عددهم (١٢٤) ألف نبي ولكن المليارات من الناس يتبعونهم ، وهو من بديع صنع الله وحكمته ،

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة النور ٣٨.

ومصداق خلافة الإنسان في الأرض ، فحتى على القول بأن المراد من الخليفة هو النبي ، وأن الأنبياء باقون بين الناس وفي الحياة الدنيا بالوحي الذي جاؤوا به ، وبأحكام الشريعة التي بعثوا بها ، فإن اتباع الأنبياء في كل زمان وإلى يوم القيامة ، ومن الآيات سلامة القرآن من التحريف ليكون عضداً للنبوة ، وتثبيتاً للخلافة ، وواقية لها ، قال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(١).

الحمد لله ملئ السموات والأرض والنسيم والفضاء والذرات التي تسبح فيها وبينها ، الحمد لله في الليل والنهار وساعة الفجر ، وفي ساعة العمل وساعة الغفلة .

الحمد لله الذي أبى إلا أن يسبح له كل شئ في الوجود لا عن حاجة إلى الخلائق أو تسييحها ، ولكن وجودها يتقوم بهذا التسبيح ، فهو رحمة للذي يسبح ولغيره .

الحمد لله الذي يسبح له الملائكة جميعاً ، ولا يعلم عددهم إلا الله عز وجل .

الحمد لله الوهاب الذي يعطي ويهب ما يشاء ، وأيهما أكثر ما يعطيه الله عز وجل ابتداءً من غير سؤال أو ما يعطيه ويمنحه بالسؤال والدعاء .

المختار هو الأول ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾^(٢).

فاذا كان الناس يعجزون عن عدّ نعم الله ، فمن باب الأولوية القطعية أن دعاءهم لا يحيط بها ، وعلى فرض قيام الفرد أو الجماعة

(١) سورة الحجر ٩.

(٢) سورة النحل ١٨.

بعد شطر من نعم الله عليهم ، فهل هو من الدعاء والذكر والشكر لله تعالى ، الجواب نعم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا﴾^(١).

اللهم لك الحمد بعدد نجوم السماء مما تم اكتشافه وما لم يتم اكتشافه ، ولا يعلم عددها إلا أنت سبحانك .

الحمد لله الذي جعل الألسن لا تمل من حمده والثناء عليه ، وجعل الناس يقرون بأن الحمد لله سبحانه من أحسن القول .

أشهد أن لا إله إلا الله عز وجل وحده لا شريك له ، له الملك وبيده الخير ، وقد أحاط بكل شئ علماً ، لا تستعصي عليه مسألة ، وهو الغفور الحليم الذي لا يؤاخذ الإنسان بجريرة غيره ، ثم يرحم صاحب الجريرة فيعفو عنه إن شاء ، وصلى الله عز وجل على رسوله الكريم محمد وعلى آله الطيبين الذين أذهب الله عز وجل عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا .

الحمد لله على النعم المتوالية والتي لا تحصى سواء تلك التي تأتي للفرد أو الجماعة أو الأمة ، ومن السماء أو الأرض أو البحار .

ومن نعم الله عز وجل علينا صدور هذا الجزء ، وهو الخامس والعشرون بعد المائتين من تفسيري للقرآن (معالم الإيمان في تفسير القرآن) وكله تأويل واستنباط وتأسيس لقوانين من مضامين الآية الكريمة في آية علمية بلحاظ منهجية مستحدثة تتضمن إلى جانب المقدمة الإعراب واللغة ، ثم إعجاز الآية الذاتي وإعجاز الآية الغيري ، ثم الآية سلاح ، ومفهوم الآية ، وإفاضات الآية ، والصلة

بين أول وآخر الآية ، وأبواب التفسير الأخرى ، كما تتجلى في باب
الفهرست.

وأقوم بالتأليف والمراجعة والتصحيح بمفردي والحمد لله ،
واستغرق هذا الجزء لحين صدوره (١٨) يوماً بآية وفضل من عند الله
عز وجل ، فله الحمد حمداً متصلاً كما ينبغي لجلال وجهه ، وبديع
ملكه وعظيم مشيئته ، وسعة سلطانه.

الحمد لله الذي يعلم ما تخفي الصدور ، فيقرب البعيد من الخير
، ويبعد القريب من الشر ، ليس بينه وبين خلقه حجاب ، الحمد لله
الذي جعل الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١) لبيان حبه تعالى للناس ،
ورأفته بهم ، ولتجلى للخلائق آيات خاصة من رحمته لم يفز بها
نوع من الخلائق إلا البشر ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ
فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا
تَفْضِيلًا﴾^(٢).

ولم يرد لفظ ﴿كَرَّمْنَا﴾ في القرآن إلا في الآية أعلاه فهل يعني هذا
إختصاص الناس بالتكريم من بين الخلائق ، الجواب لا ، واثبات
شيء لشيء لا يدل على نفيه عن غيره ، كل إكرام من عند الله عز
وجل لجنس البشر من الخلائق نعمة على الخلائق كلها .

ولقد جاءت الأجزاء الثلاثة الأخيرة من هذا السفر بقانون
(النزاع المسلح بين القرآن والإرهاب) في آية علمية في مسائل
ابتلائية لبيان دعوة القرآن المتجددة للسلم المجتمعي والوئام والوفاق.

(١) سورة البقرة ٣٠ .

(٢) سورة الإسراء ٧٠.

الحمد لله الذي جعل رضاه الأمل والطموح والغاية فله الحمد حتى يرضى ، وله الحمد على ما يترشح عن رضاه من النعم الدنيوية والأخروية ، الحمد لله نور السموات والأرض ، وهو واهب النور ومنزل النور ، وجاعله صراطاً مستقيماً ، وضياءً للصراط ، وعاقبة له ، وفي التنزيل ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾^(١).

لتكون تلاوة القرآن إنعكاساً للنور ، ونفاذه إلى شغاف القلوب ، ويكون جهاد العلماء في الغوص في أعماق التفسير والتأويل عوناً لتقريب أنوار القرآن إلى النفوس ، وجعلها تشع على الجوارح بالقول والعمل الصالح ، لما في التفسير من البيان والتذكير بذخائر القرآن ، وإظهار لطائف عرفانية منها.

اللهم اني أسالك الخير الظاهر والباطن واستدامة نعمة الأمن ، والسعة في الزرق ، والنماء في المال.
اللهم اني اسألك قلباً رحيماً ، وعقلاً حكيماً ، وتبصرة في عواقب الأمور .

الحمد لله الذي جعل الحياة الدنيا دار الصبر والإبتلاء وفضل المؤمنين بالأجر على الصبر والرضا بقضاء الله عز وجل ، وانصراف البلاء ، فمن خصائص الصبر أنه أمر وجودي لا ينحصر نفعه بذاته إنما هو طريق للنفع وانكشاف الهم والغم ، لذا قال تعالى قبل آيتين من آية البحث ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٢).

واختص هذا الجزء المبارك من (معالم الإيمان) بتفسير الآية (١٨٨) من سورة آل عمران وهو قوله تعالى ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

(١) سورة المائدة ١٥.

(٢) سورة آل عمران ١٨٦.

يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَقَارَةِ
 مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(١)، والتي تبدأ بالخطاب الى النبي محمد
 صلى الله عليه وآله وسلم مع بيان وفضح سوء فعل المنافقين
 والكفار وايدائهم له في تبليغه الرسالة ، مع إنذارهم بالعذاب الأليم
 الذي ينتظرهم في الآخرة ، لذا سيأتي في هذا الجزء ذكر بعض
 مواطن الآخرة من النفخ في الصور والصحف ، والحشر والميزان ،
 والحوض ، والشفاعة وغيرها ثم دار الجزاء إما الجنة ، قال تعالى
 ﴿وَنُنْذِرُ يَوْمَ الْجُمُعِ لِأَرْبَابٍ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ^(٢) .

وهل آية البحث أعلاه من سورة آل عمران من آيات الإنذار
 بيوم القيامة والجمع ، الجواب نعم ، لذا أختتم بقوله تعالى ﴿وَلَهُمْ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ^(٣) .

ومن إعجاز آيات الإنذار والوعيد أنها لم تذكر أسماء المنافقين
 إنما ذكرت الأفعال التي صدرت منهم لبيان المندوحة والسعة في
 توبتهم وإنابتهم ، نعم ذكر القرآن اسم أبي لهب عم النبي بصيغة
 الذم ، قال تعالى ﴿بَتَّ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ^(٤) ، أي خسر وخاب ،
 وأبو لهب هو عبد العزى بن عبد المطلب وهل يمكن له التوبة ،
 الجواب نعم ، ولكنه أصر على الجهالة والشقاوة ، وفيه إعجاز
 للقرآن ، وهل يمكن تقدير الآية : بتت يدا أبي لهب وتب إن لم يتب
 ، الجواب نعم .

(١) سورة آل عمران ١٨٨ .

(٢) سورة الشورى ٧ .

(٣) سورة آل عمران ١٨٨ .

(٤) سورة المسد ١ .

وكان آية البحث تقول للذين يفرحون بالمعصية توبوا إلى الله ،
وأن أصل الفرح بالهداية والعمل الصالح ، وفي التنزيل ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ
وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(١) ، وكما يتم إحصاء آيات
الأحكام فلا بد من احصاء كل من :

الأول : آيات البشارة ، وهي على شعبتين :

الأولى : آيات البشارة في الدنيا ، مثل قوله تعالى ﴿وَيُرِيدُ أَنْ
نُخْرِجَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَجْعَلَهُمْ آئِةً وَيُجْعَلَهُمْ
الْوَارِثِينَ﴾^(٢) ، ومنها البشارة العامة للناس منها قوله تعالى ﴿وَهُوَ
الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا
سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ
الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٣).

الثانية : آيات البشارة في الآخرة وهي أضعاف آيات البشارة في
الدنيا عدداً وموضوعاً وذخيرة ، منها قوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا
مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا
أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٤).

الثاني : آيات التقوى .

الثالثة : آيات الإنذار في القرآن .

(١) سورة يونس ٥٨.

(٢) سورة القصص ٥.

(٣) سورة الأعراف ٥٧.

(٤) سورة البقرة ٢٥.

الرابع : الآيات التي تخص القرآن، منها قوله تعالى ﴿طه* مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾^(١) أي تجهد نفسك بالإجتهاد بالعبادة والمواظبة عليها (عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إذا قام من الليل يربط نفسه بجبل ؛ كي لا ينام فأنزل الله عليه { طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى }^(٢) (٣)).

وقيل (إنما سبب الآية أن قريشاً لما نظرت إلى عيش رسول صلى الله عليه وسلم وشظفه وكثرة عبادته قالت : إن محمداً مع ربه في شقاء فنزلت الآية رادة عليهم)^(٤).

وهل من صلة بين آية البحث والشقاء الذي تذكره الآية أعلاه ، الجواب نعم ، إذ لا ينحصر موضوعه بالمجاهدة في العبادة ، إذ يؤذي النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه فرح الذين يكتُمون البشارات ، ويعملون المعاصي ، ويحبون أن يثنى عليهم الناس بابتعادهم عن الحق والهدى .

فنزلت آية البحث لمنع ترتب حصول الشقاء والحزن عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم بسبب الكفر والنفاق عند طائفة من قومه ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنُيْضِرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي السَّاعَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٥) (٦).

(١) سورة طه ١-٢.

(٢) سورة طه ١-٢.

(٣) الدر المنثور ٦/٤٩٤.

(٤) المحرر الوجيز ٤/٣٩١.

(٥) سورة آل عمران ١٧٦.

(٦) أنظر الجزء الثامن والستين بعد المائة من هذا السفر والذي اختص بتفسير

الخامس : آيات الكتاب ، والنسبة بينها وبين آيات القرآن عموم وخصوص مطلق ، وبين آيات القرآن عموم وخصوص مطلق ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾^(١).

ومن خصائص المواظبة على الحمد لله التنزه عن الفرح بالإثم والمعصية وعن رجاء المدح بما هو باطل .
وسيأتي في باب سياق الآيات موضوعية دعوة الآية قبل السابقة ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا﴾^{(٢)(٣)} بالتحلي بالصبر على مثل هذا الأذى من الكافرين والمنافقين .

إذ تضمنت آية البحث النهي عن الفرح بالمكر والحيلة ، واتخاذ الخداع منهاجاً في مواجهة النبوة والتزليل ، فإن الله عز وجل رغب الناس بالفرح الذي يترشح عن الإيمان والعمل الصالح ، وإقتران رجاء حسن العاقبة معه ، وقال تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(٤).

الحمد لله الذي يرضى بالقليل على النعم الكثيرة ، ويعطي بذات القليل اللامتناهي من النعم ، لبيان قانون وهو أن فضل جزاء الله عز وجل على الحمد يفوق حد التصور .

الحمد لله الذي جعل الحمد له وحده ، ونهى في آية البحث عن طلب الحمد للنفس بغير استحقاق ، وبالفعل الذي يخالف أوامره

الآية أعلاه .

(١) سورة النساء ١٣٦.

(٢) سورة آل عمران ١٨٦.

(٣) أنظر ص ٤٣ من هذا الجزء .

(٤) سورة يونس ٥٨.

سبحانه ، لتدل الآية في مفهومها على جواز رجاء الحمد على الإيمان والتقوى ، وبما فيه تعظيم شعائر الله .

وهل يصح القول بجواز رجاء المدح على قول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) ، في الصلاة ، الجواب نعم بلحاظ أن هذا القول ومحلّه العبادي شاهد على التقوى .

ليان قانون وهو تفضل الله بنجاة المؤمن بالطاعة من الإنذار والوعيد فذات الوقوف بين يدي الله عز وجل في الصلاة وكل آية من آيات سورة الفاتحة شاهد على التصديق بالنبوة الذي هو ضد فعل الذين تتضمن آية البحث ذمهم ، قال تعالى ﴿ثُمَّ نَبْغِي رَسُولَنَا الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُبِغِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

حرر في الخامس من محرم الحرام ١٤٤٣
الموافق ٢٠٢١/٨/١٤

(١) سورة الفاتحة ٢.

(٢) سورة يونس ١٠٣.

**قوله تعالى ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا
آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ
مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الآية ١٨٨**

القراءة والإعراب

﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ فيها ثلاث قراءات :

الأولى : بفتح السين (لا تحسبن) وبه قرأ عاصم وحمزة والكسائي ، وهو المرسوم في المصاحف ، أي يتوجه الخطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وإلى الأمة بالإلحاق .

الثانية : بكسر السين (لا تحسبن) أي إرادة عموم المخاطبين .

الثالثة : بالياء بدل التاء (لا يحسبن) (قرأه حميد بن كثير وأبو جعفر وشيبة ونافع وابن عامر وأبو عمرو) ^(١) إرادة الغائب من الذين ذكرتهم الآية ، لتحمل الآية صفة الإنذار .

الرابعة : (لا تحسبن) بضم الباء ^(٢) لإفادة المعنى الأعم وشمول الخطاب في الآية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين والمسلمات .

وكذا تتعدد القراءة في قوله تعالى ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ .

لا تحسبن : لا : ناهية جازمة .

تحسبن : فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد ، وهو في محل جزم بـ(لا) .

(١) الكشف والبيان للثعلبي ٣/٣١٢ .

(٢) أنظر تفسير البيضاوي ١/٤٢٢ .

والفاعل ضمير مستتر تقديره (أنت) .

الذين : اسم موصول ، مفعول به ، وقيل المفعول به الثاني محذوف .

يفرحون : فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون لأنه من الأفعال الخمسة .

واو الجماعة : فاعل .

بما : الباء : حرف جر .

ما : اسم موصول مبني في محل جر متعلق بـ (يفرحون) .

أتوا : فعل ماض مبني على الضم المقدّر على الألف المحذوفة منعاً للإلتقاء الساكنين .

واو الجماعة : فاعل .

ويحبون : الواو حرف عطف .

يحبون : مثل يفرحون .

أن يحمدا : فعل مضارع مبني للمجهول منصوب ، وعلامة نصبه حذف النون .

واو الجماعة : نائب فاعل .

بما : الباء : حرف جر ، ما : اسم موصول مبني في محل جر ، متعلق بـ (يحمدا) .

لم يفعلوا : لم : حرف نفي وقلب وجزم .

يفعلوا : فعل مضارع مجزوم ، وعلامة جزمه حذف النون .

واو الجماعة : فاعل .

فلا تحسبنهم : قيل الفاء زائدة لتحسين اللفظ ، ولكن الحرف القرآني له دلالات ومعان متجددة .

لا تحسبنهم : لا : ناهية جازمة .

تحسب : فعل مضارع مبني على الفتح في محل جزم .

النون : نون التوكيد ، والفاعل ضمير مستتر تقديره (أنت) والضمير (هم) مفعول به أول .

بمفازة : جار ومجرور متعلق بمحذوف في محل مفعول ثانٍ لـ (تحسب) .

من العذاب : من حرف جر : العذاب اسم مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة تحت آخره ، متعلق بمحذوف صفة لمفازة .

ولهم : الواو : حرف استئناف .

اللام : حرف جر ، و(هم) ضمير في محل جر متعلق بمحذوف خبر مقدم .

عذاب : مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة الظاهرة على آخره .

أليم : صفة لعذاب مرفوع مثله .

المفازة : المنجاة (وفوز الرجلُ تفويذاً: ركبَ المفازة ومضى فيها، قال الشاعر:

لله در رافع أنى اهتدى

خمساً إذا ماسارها الجيش بكى

ما سارها من قبله إنس يرى

فوز من قراقر إلى سوى

ومنه يقال لمن مات: فوز، أي: صار في مفازة بين الدنيا والآخرة.

ويقال: بل سُميت، تطيراً من الفلاة وهي المهلكة، كما قيل للديغ: سليم)^(١).

والعذاب : وهو الإيذاء الشديد .

ويقال : عذب الرجل إذا ترك الأكل والشرب والنوم.

و(العذاب : العقوبة ، وقد عذّبه تعذيباً)^(٢).

(١) العين ٩٢/٢ .

(٢) الصحاح في اللغة ٤٥٣/١ .

وفي قوله تعالى ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾^(١)، أي ملازماً ومصاحباً ومنه سمي عشق المرأة غراماً ، ويقال فلان مغرم بكذا ويسمى الدائن الغريم لملازمته ، وعذاب جهنم ملازم للكافرين والظالمين ملازمة شديدة ليس فيها فترة ، وفي التنزيل ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾^(٢).

والعذاب : النكال .

سياق الآيات

الشعبة الأولى : صلة آية البحث بالآيات المجاورة على وجوه :

الوجه الأول : الصلة بين آية البحث والآية السابقة وهو قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لُبِّيْنَهُ لِلنَّاسِ وَلَئِنْ تَكْفُرُوا فَتَبَدُّوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾^(٣)، وفيها مسائل :

المسألة الأولى : جاءت آية السياق وهي الآية السابقة بصيغة الجملة الخبرية وتضمنت وجوهاً :

الأول : تفضل الله سبحانه بأخذ الميثاق من طائفة من الناس .

الثاني : التقييد في الجهة التي أخذ الله منها الميثاق ، وهم أهل الكتاب .

والمراد من أهل الكتاب اليهود والنصارى ويلحق بهم المجوس ، واثبات شيء لشيء لا يدل على نفيه عن غيره ، فذكر آية السياق

(١) سورة الفرقان ٦٥.

(٢) سورة غافر ٤٩-٥٠.

(٣) سورة آل عمران ١٨٧.

الميثاق أهل الكتاب لا يمنع من الموائيق التي أخذها الله عز وجل على الناس جميعاً.

وهل أخذ الله عز وجل الميثاق على أهل الكتاب دفعة وجملة ، المختار أن الله عز وجل أخذ الميثاق على كل واحد منهم بواسطة الأنبياء ، إلى جانب ميثاق عالم الذر ، ومضامين الكتب السماوية كالطورا والإنجيل فهي موائيق متعددة يتلونها في اليوم والليلة.

والميثاق عهد وبيعة وإقرار من جهات :

الأولى : قانون التسليم بالعبودية لله عز وجل وأنه تعالى رب العالمين .

الثانية : قانون التصديق بالنبوة والتنزيل .

الثالثة : قانون وجوب العمل بأحكام الشرائع وسنن الحلال والحرام ، فمن الإعجاز في تسمية الرسول أنه يأتي بالأوامر والأحكام من عند الله عز وجل .

الرابعة : قانون التنزه عن الظلم والإرهاب.

الخامسة : قانون الإقرار بالبعث واليوم الآخر ، وعالم الحساب والجزاء .

الثالث : وجوب بيان الكتاب والبشارة بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للناس جميعاً .

والنسبة بين الناس وأهل الكتاب عموم وخصوص مطلق ، فالناس أعم ، لتكون البشارات برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حاضرة متوارثة في مكة والمدينة والشام والحبيشة والطائف ، حتى إذا بعث الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم تلقى الناس معجزاته بالقبول.

ومن أسرار الحياة الدنيا أنها دار التخفيف عن الناس وابتداء هذا التخفيف في الجنة حيث خلق الله عز وجل آدم وعلمه الأسماء كلها ، وخلق حواء وأسكنهما في الجنة برهة من الزمن ليتعلما من الملائكة

ويدركا إمكان العودة إلى الجنة واللبث الدائم فيها بالعمل الصالح والتوبة والإنابة ، وفي التنزيل ﴿لَنَا اهْبُطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

وهل الميثاق من الهدى الذي تذكره الآية أعلاه ، الجواب نعم ، لبيان النفع العظيم للميثاق على الناس .

ومن الهدى بعثة الأنبياء والكتب السماوية والقرآن ، ومن معاني وتقدير قوله تعالى ﴿فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٢) بلحاظ آية البحث وآية السياق مسائل :

الأولى : ومن تبع هداي بالإقرار بالتوحيد فان هبوط آدم من الجنة وخلافته في الأرض لا يعني خروجه عن العبودية لله عز وجل .
الثانية : فمن تبع هداي في الأرض مثل اتباع الملائكة له في السماء .

الثالثة : فمن تبع هداي فلا يفرح بما أوتي من غير شكر الله عز وجل .

الرابعة : فمن تبع هداي الذي جاء به في الميثاق .
ترى ما هي النسبة بين الهدى الذي تذكره الآية أعلاه وبين الميثاق الذي ورد في آية السياق ، الجواب هو العموم والخصوص المطلق ، فالهدى أعم وأكثر وأعظم .

وكذا ذات النسبة بين الهدى وجميع المواثيق التي أخذها الله عز وجل على الناس ابتداء من عالم الذر ، لبيان فضل الله عز وجل في أن الهدى منه تعالى غير متناه ، ومنه إعانة الإنسان على التقيد بالميثاق والعمل بأحكامه .

(١) سورة البقرة ٣٨ .

(٢) سورة البقرة ٣٨ .

فمن فضل الله عز وجل أنه لا يترك العبد وشأنه في العمل بالميثاق أو عدمه ، بل يقرب كل منهما إلى الآخر ، وهو أمر لا يقدر عليه إلا الله سبحانه ، فمثلاً لا ينشأ الميثاق في عالم الذر إلا الله عز وجل .

فان قلت هل يدل هذا على وجود مقدار من إحساس عند الناس في الميثاق في عالم الذر ، والإستجابة عند الميثاق ، الجواب نعم ، وهو من وجوه الصلة بين الله وكل فرد من مخلوقاته سواء كانت عندها قوة حساسة أو قوة نامية ، وهي الموجودة في الإنسان والحيوان والنبات ، إذ تلتقي بالنمو .

ويمتاز الحيوان بالحركة والإحساس ، والتكاثر المنفصل ، وينفرد الإنسان بانه عاقل ناطق مميز بين الحق والباطل ، يتلقى الهدى من الله عز وجل ، وأتاه الميثاق ، وأقام عليه الحجة بتلقيه من مقام العبودية لله ، وهي من أسمى مراتب المخلوق ، ويلتقي فيها الأنبياء والأئمة وعموم المسلمين ، وأهل الكتاب والناس جميعاً ، ومن الميثاق قوله تعالى ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾^(١) .

ليكون من معاني اتباع الهدى في الآية ، فمن تبع هداي من عبادي إلى يوم القيامة ، وهو من أسرار سلامة القرآن من التحريف لأنه يحفظ المواثيق التي بين الله عز وجل وبين الناس .

وهل قوله تعالى ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ ﴾^(٢) من هذه المواثيق أم لا بد من ذكر الآية لحفظ العهد أو الميثاق أو مرادفه من الأمر ، والوصية من الله ، الجواب هو الأول ، لبيان أن القرآن كتاب الميثاق النازل من عند الله سبحانه .

(١) سورة الإسراء ٢٣ .

(٢) سورة البقرة ٣٨ .

وهل يشمل قوله تعالى ﴿لَيَبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ﴾^(١)، المسلمين أم أن الخطاب خاص بأهل الكتاب ، الجواب هو الأول ، وإن كان نظم الآية يدل على الثاني ، فذات تلاوة هذه الآية بيان ، ومن إعجاز القرآن أنه بيان للناس ، قال تعالى ﴿وَزَوَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بُيُوتًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(٢).

الرابع : النهى عن كتمان وإخفاء الميثاق والإنذار من إخفاء البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .
لقد جاء الأمر من عند الله عز وجل إلى أهل الكتاب مركباً من أمرين :

الأول : عدم إخفاء الميثاق .

الثاني : قانون بيان الميثاق للناس .

وهو من إعجاز القرآن وقد يظن أن النسبة بينهما التساوي ، ولكنها العموم والخصوص المطلق ، فعدم الإخفاء أعم ، والمراد لا تخفوا الميثاق عن الناس ، وفيما بينكم .
ومن معاني ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ مسائل :

الأولى : لا يخفي علماء أهل الكتاب الميثاق عن عامة الناس .

الثانية : توجه الخطاب من الله إلى كل كتابي بعدم إخفاء الميثاق .

الثالثة : قانون التحذير والإنذار من إخفاء الميثاق ، وعن عمد ، وتطرد الآية السهو والغفلة في المقام ، وتمنع من طرو النسيان في بيان البشارات النبوية .

الرابعة : قانون تفضل الله عز وجل يجعل الميثاق أمراً ظاهراً وبيناً لأهل الكتاب ، إذ يدل قوله تعالى ﴿لَيَبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ﴾ بالدلالة

(١) سورة آل عمران ١٨٧.

(٢) سورة النحل ٨٩.

التضمنية على بيانه لأهل الكتاب وعلمهم به وإحاطتهم علماً ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

ولا تنحصر هذه الإحاطة بالعلماء منهم بل هو تركة متوارثة لعموم أهل الكتاب ، وقد جعل الله عز وجل فترة بين عيسى عليه السلام والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم نحو ستمئة سنة ليس فيها نبي أو رسول إلا البشارة ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لبيان الضبط والحفظ من عند الله للنبوة في إدعائها بين الناس ، فالذي يدعيها كذباً وزوراً يبتلى ، ويفضح بين الناس ، وتتساقط دعواه بسرعة لتكون مناسبة لتجدد الميثاق والتطلع إلى النبوة الخاتمة بمعجزاتها والشواهد القطعية التي تدل على صدق النبوة .

المسألة الثانية : تتضمن آية البحث قانون النهي عن الفرح من غير عمل يستحق أن يترتب عليه هذا الفرح ، ومن معاني الصلة بين آية البحث وآية السياق ، تحقق الفرح ببيان الميثاق لما فيه من طاعة الله عز وجل ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(١) ، والسعي لهداية الناس لسبل الإيمان بالله عز وجل والنبوة والتنزيل ، إذ أن قوله تعالى ﴿لَيُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ﴾^(٢) ، عهد ووظيفة عقائدية وتكليف لكل كتابي .

وهل انتقل هذا التكليف للمسلمين .

الجواب نعم ، فمن خصائص الحياة الدنيا الملازمة بين الإيمان وبيانه والدعوة إليه .

فكل مؤمن يجب أن يقوم ببيان حقائق التنزيل ووجوب طاعة الله ، ليكون الميثاق عنوان الاتحاد بين المسلمين وأهل الكتاب ، وهو

(١) سورة يونس ٥٨ .

(٢) سورة آل عمران ١٨٧ .

من مصاديق قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(١).

ومن الميثاق أن لا يرجو الإنسان الحمد والثناء عليه بما لم يفعله من وجوه الخير والصلاح والإحسان ، فمن هذا الرجاء والسعي إليه بذل المال من أجله وتقريب المرائي والمتزلف بسببه ، فهو عائق دون بيان الميثاق للناس ، وحاجب دون إلتفات الناس له والعمل بأحكامه .

لتكون آية البحث تبصرة ، قال تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾^(٢).

فمن معاني صلة الجوار بيت الآيتين وتعقب آية البحث لآية الميثاق منع العوائق التي تحول دون حفظ وتوارث وإظهار الميثاق ، وكأن الآية تقول لا تفرحوا بعدم بيان الميثاق ، سواء عن قصد لإخفائه أو للإنشغال بأمور أخرى من متاع وزينة الدنيا ، ولكن الفرح والغبطة بالعمل بمضامين الميثاق وبيانه بلحاظ أن البيان من رشحات العمل بالميثاق ، وهو حجة في لزوم العمل به ، فمن يبين ويخبر عما جاء به الأنبياء من الصلاة والزكاة والصيام ونحوها من العبادات لابد أن يقوم بأدائها وإتيانها ، وكذا من أظهر الميثاق واعلن البشارات النبوية برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عليه التصديق بها .

(١) سورة آل عمران ٦٤.

(٢) سورة الأنعام ١٠٤.

فلا يتوجه الحمد للذي يخفيها ويسترها ، ولا للذي يعلنها ويعرض عنها ويوالي مشركي قريش ، وفرحه بهذه الموالاة سبب لنزول البلاء والعذاب به .

المسألة الثالثة : من معاني الجمع بين الآيتين لزوم الشكر لله سبحانه على الميثاق والعهد من عند الله وتعاهد هذه العهد ، ومن مصاديق هذا التعاهد إعلانه وعدم إخفائه ، ليكون تركة للأجيال ، ولو كتبه بعضهم أو بعض الطوائف مع التحذير والإنذار من عند الله عز وجل ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ ^(١) فان الله عز وجل يظهره ويبينه ، ولا يضر الذي يكتُم الميثاق إلا نفسه ، لذا نزل القرآن بذكر وبيان وجوه الميثاق المتعددة .

وبيان الله عز وجل للميثاق متجدد في الأرض ، وليس من حصر لطرقه ووسائله وكيفيته ، وهو من الشواهد على عظيم قدرة الله عز وجل ، وأنه سبحانه ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ^(٢).

وأن هذا الملك ملك تدبير وإصلاح وإدامة وفق مشيئته تعالى .
لقد أخبرت آية البحث وبصيغة الذم عن الذين يفرحون بما رزقهم الله من غير الإنتفاع منه ، ولا أداء الشكر عليه ، وذكرت آية السياق بصيغة الذم أيضاً قيام طائفة من الناس بكتمان وإخفاء الميثاق ، وهذا الإخفاء جزء وفرع من تركهم له وراء ظهورهم .
ليان وجوه :

الأول : قانون موضوعية وعظيم شأن الميثاق .

(١) سورة آل عمران ١٨٧.

(٢) سورة المائدة ٤٠.

الثاني : تذكير أهل الكتاب بالميثاق ، ودعوتهم لإستحضاره بدل تركه وراء ظهورهم ، وحضهم على إعلانه وبيانه استجابة لأمر الله عز وجل ﴿لَيَبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ﴾ .

الثالث : الشكر لله عز وجل على بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لما فيها من حفظ المواثيق والعهود التي بين الله وبين الناس ، قال تعالى ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١) والمواثيق التي بين الناس أنفسهم ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحْلِلْتُمْ لَكُمْ بِهَيْمَةِ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾^(٢) .

ومن الإعجاز في لغة القرآن أن كلاً من الثناء والذم فيه باعث للتدارك والعمل الصالح ، وهو من بديع صنع الله عز وجل في خلق الإنسان بأن يجتمع المتضادان في ذات الغاية الحميدة ، ليكون من معاني آية السياق وجوه:

الأول : قانون الملازمة بين الميثاق وبيانه ، لذا أثنى الله عز وجل على الأنبياء لقيامهم ببيان رسالتهم وجهادهم في دعوة الناس إلى الإيمان مع العصمة في تبليغ الرسالة ، وشهد لهم الله عز وجل .

وفي الثناء على إبراهيم عليه السلام قال تعالى ﴿وِإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾^(٣) .

وقال تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمَنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ

(١) سورة الأنعام ١٥٢ .

(٢) سورة المائدة ١ .

(٣) سورة النجم ٣٧ .

نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرَيْنَا وَيْحَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ
الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى
الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ .

وقد ورد في هذه الآيات الثلاث أسماء ثمانية عشر نبياً باضافة
إبراهيم عليه السلام لهم.

وقال تعالى ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ
لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّاتِينِ بِمَا كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (٢)، وقال تعالى ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ
إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (٣).

وقد أثنى الله عز وجل على المؤمنين الذين اتبعوا الأنبياء لأن
هذا الإتياع من الميثاق وتعاهد له ، لذا قال تعالى ﴿إِن أَوَّلَى
النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ
الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤).

وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال :
الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن
إسحق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام (٥).

(١) سورة الأنعام ٨٤-٨٦.

(٢) سورة آل عمران ٧٩.

(٣) سورة المائدة ٩٩.

(٤) سورة آل عمران ٦٨.

(٥) الدر المنثور ٣٦٩/٥.

المسألة الرابعة : ورد الاسم الموصول (الذين) في كل من الآيتين ، والمختار أن النسبة بينهما هي العموم والخصوص من وجه ، فهناك مادة للإلتقاء وأخرى للإفتراق بينهما ، فلا يتوجه الذم في هذه الآية لأهل الكتاب كلهم .

ومن الإعجاز في آية البحث تعلقها بصفة وإجماع خصلتين من وجدا عنده فان العذاب قريب منه ، وهما :

الأولى : الفرح بما فعل وأتى مما هو خلاف الواجب ، وفي قارون ونهي قومه له من الفرح بمعنى البطر والبغي والتفاخر بكثرة المال ، ورد في التنزيل ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾^(١) ، وهو لا يتعارض مع الفرح المحمود بفضل الله عز وجل ، كما ورد في التنزيل ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(٢) .

ومن العلماء من استدل في المقام بخصوص الفرح المحمود بقوله تعالى ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٣) .

وهذه الآية في عالم البرزخ وتعلق بشهداء معركة بدر ومعركة أحد ، وليس هو من الفرح في الدنيا .

الثانية : حب تلقي الثناء من غير فعل وموضوع يستحق الثناء .

وفي الآية دعوة للناس للتنزه عن هاتين الخصلتين .

ومن مصاديق هذا التنزه بيان الميثاق والعهد مع الله عز وجل للناس .

(١) سورة القصص ٧٦ .

(٢) سورة يونس ٥٨ .

(٣) سورة آل عمران ١٧٠ .

ومن الآيات قطع آية السياق بأخذ الله عز وجل الميثاق من أهل الكتاب أي ليس لهم خيار الإقالة أو الاعتذار بالغفلة ونحوها ، فمن معاني أخذ الميثاق في الآية تذكير الله عز وجل به ، ومن وجوه هذا التذكير أمور :

الأول : بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتجديد الميثاق بهذه البعثة .

الثاني : آية السياق .

الثالث : قانون تلاوة المسلمين والمسلمات لآية السياق في الصلاة كل يوم في مشارق الأرض ومغاربها .

المسألة الخامسة : من وجوه تقدير (لتبينه) ، لقد أكرم الله عز وجل بأخذ الميثاق عليهم ، ثم تفضل وأكثر من المواثيق بينه وبينهم ، ومن خصائص الأخذ في قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾^(١) ، شمول الناس جميعاً بهذا الميثاق ، إذ يتلقاه الناس بواسطة بيان وتبيان وشرح أهل الكتاب سواء تعلق هذا التبيان والشرح والتفصيل بوجوب عبادة الله والتنزه عن الشرك ، ومفاهيم الضلالة وعبادة الأوثان ، أو بخصوص أنبياء أهل الكتاب مثل النبي موسى وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام ، أو نبوة إبراهيم والبشارات برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وهل يكون بيان أهل الكتاب للناس في قوله تعالى ﴿لَتَبَيَّنَنَّ لِلنَّاسِ﴾ حجة على الناس أم لا ، لأن البيان لم يأت من الأنبياء .
الجواب هو الأول ، فبيان أهل الكتاب حجة لأنه حق وصدق وتكليف ، وفيه نفع عظيم وهداية للناس ، ويكون تقدير قوله تعالى ﴿لَتَبَيَّنَنَّ لِلنَّاسِ﴾ على وجوه :

الأول : يا أيها الذين أوتوا الكتاب اشكروا الله على الميثاق قال تعالى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا﴾^(١).

الثاني : يا أيها الذين أوتوا الكتاب لتبينن الميثاق للناس شكراً لله عز وجل.

الثالث : يا أيها الذين أوتوا الكتاب بينوا الكتاب .

الرابع : يا أيها الذين أوتوا الكتاب لتبينن الميثاق ففيه أجر عظيم

الخامس : يا أيها الذين أوتوا الكتاب يجب بيان الميثاق ، بلحاظ أن اللام في (لتبينن) لام التكليف والوجوب .

السادس : يا أيها الذين أوتوا الكتاب لا تكتموا الميثاق .

السابع : يا أيها الذين أوتوا الكتاب بينوا الميثاق ، فقد بينه الله في القرآن.

وهل قول الله تعالى لآدم وحواء ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢) ، من العهد والميثاق ، الجواب نعم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ...﴾^(٣).

والمختار أن النسبة بين العهد والوصية هو العموم والخصوص المطلق ، فالعهد أعم .

وهل يختص الإقتراب في الآية أعلاه بالأكل من الشجرة ، الجواب لا ، وهو من إعجاز الآية ، إذ يشمل كلاً من :
الأول : مقدمات الأكل من الشجرة .

(١) سورة البقرة ١٥٢.

(٢) سورة الأعراف ١٩.

(٣) سورة طه ١١٦.

الثاني : الإصغاء إلى إبليس في مكره وخداعه ، كما ورد في التنزيل ﴿هَلْ أَذُكَّ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾^(١).

الثالث : الهم بالأكل من الشجرة .

الرابع : المناجاة بين آدم وحواء بالأكل من الشجرة .

الخامس : نسيان آدم لما في الأسماء التي علمه الله تعالى من وجوب التقيد بالعهد والوصية وعدم الإصغاء لإبليس .

السادس : إرادة الإقتراب والدنو من الشجرة بعد أن رغب إبليس بالأكل منها سواء كانت شجرة الحنطة أو ما هو أعم ، وهو لا يتعارض مع إفادة الإقتراب لمعنى الأكل من الشجرة .

السابع : النهي عن قيام آدم وحواء بالأكل من الشجرة .

وهو من مصاديق النسيان في قوله تعالى ﴿فَنَسِيَ﴾ وَكَمْ نَجِدُهُ عَزَمًا^(٢) فمن أفراد نسيان آدم في الآية أعلاه أنه نسي ما علمه الله عز وجل النهي عن الأكل من الشجرة ، من ضمن الأسماء في قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾^(٣) ليكون تعليم آدم للأسماء حجة عليه حين أكل من الشجرة ، ولتجلى للملائكة أن هبوطه للأرض لتركه التقيد بعهد الله والميثاق ، وهو من بدايات شهادة الملائكة له على الإنسان ليتولوا الشهادة على كل إنسان بتدوين أفعاله ، قال تعالى ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(٤).

الثامن : قانون إتعاض ذرية آدم من خطيئة الأكل من تلك الشجرة ومقدماتها ، ولزوم الإحتراز من إبليس وإغوائه ، وبلحاظ آية

(١) سورة طه ١٢٠.

(٢) سورة طه ١١٥.

(٣) سورة البقرة ٣١.

(٤) سورة ق ١٨.

البحث فان آية الإقتراب من الشجرة دعوة لتسخير العلم في طاعة الله ، وجعل الحمد والثناء في العمل في مرضاته ، وفي التنزيل ﴿أَفَنسَى أَتَّبَعِ رِضْوَانِ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾^{(١)(٢)}،

وعن عبد الله بن مسعود قال (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن الحفاظين إذا نزلا على عبد أو أمة معهما كتاب مختوم فيكتبان ما يلفظه العبد أو الأمة فإذا أرادا أن ينهضا قال أحدهما للآخر فك الكتاب المختوم الذي معك فيفكه فإذا فيه ما كتب سواء فذلك قول ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)^(٣).

وهل كان على كل من آدم وحواء ملك قريب عندما كانا في الجنة ، أم أن الحكم خاص بأهل الأرض .

المختار هو الثاني ، فقد كلم الله عز وجل آدم قبلاً من غير واسطة ، كما أن قوانين الجنة تختلف عن التكاليف العامة في الأرض ، والعلم عند الله .

المسألة السادسة : لقد ذكرت آية السياق أخذ الله الميثاق والعهد من أهل الكتاب ، وأمرهم ببيانه ، وهذا البيان للناس كافة ، وحذرهم الله من إخفائه وكتمان أحكام الشريعة والبشارات النبوية ، ولم تمثل طائفة للأمر ، إنما فعلوا :

الأول : إخفاء وكتمان الميثاق ، ويدل بالدلالة التضمنية على عدم قيامهم ببيانه للناس ، وفيه إنذار لمشركي مكة في إخفاءهم معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن الناس ، (عن

(١) سورة آل عمران ١٦٢.

(٢) أنظر الجزء الخامس والأربعين بعد المائة من تفسيرنا هذا للقرآن وهو خاص بتفسير هذه الآية الكريمة.

(٣) حلية الأولياء ٥٧/٥.

عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من كتم علماً عن أهله ألجم يوم القيامة لجأماً من نار^(١).

الثاني : هجران الميثاق وعدم العمل به ، لقوله تعالى ﴿فَبَذَلُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾^(٢) والنبد : الترك والطرح والإعراض عن الشيء عن قصد .

الثالث : الرضا بمتاع قليل ، ونفع زائل من الدنيا (عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ فِي قَوْلِهِ : وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، قَالَ : كَتَمُوا وَبَاعُوا فَلَا يُدُونُ شَيْئًا إِلَّا بِثَمَنٍ)^(٣).

ولكن معنى الآية أعم ، ويتجلى بعطف هذا الشراء على الكتمان ، والإعراض عن العهد والميثاق ، ومن معاني الجمع بين الآيتين النهي عن تحريف الكتاب ، وأخبار النبوة .

المسألة السابعة : توجه الخطاب في آية البحث إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ ومن غير أن تبدأ الآية بحرف عطف أو حرف استئناف .

فهل يعني هذا إستقلال وإنفصال مضامين هذه الآية عن الآية أو الآيات التي قبلها سواء في الموضوع أو الحكم ، الجواب لا ، فمن خصائص سياق ونظم آيات القرآن الترابط الموضوعي بينها ، لذا جاء في هذا التفسير باب سياق الآيات وهو من أوسع أبواب تفسير الآية القرآنية وصلتها بالآيات المجاورة ، وفيه استقراء لمسائل واستنباط لقوانين مستحدثة تبين شذرات من خزائن وكنوز آيات القرآن.



(١) الكشف والبيان للثعلبي ٣/٣١١.

(٢) سورة آل عمران ١٨٧.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٣/٣٠٢.

تقدير ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾

من معاني وتقدير (لا تحسبن) بلحاظ الآية السابقة ومصاديق الجمع بينه وبينها وجوه :

الأول : لا تحسبن أن الله لم يأخذ الميثاق على الذين أوتوا الكتب السماوية .

الثاني : لا تحسبن أن الكتاب الذي أنزل على الرسل السابقين لا يتضمن الميثاق .

الثالث : لا تحسبن أن الميثاق الذي أخذه الله على الذين أوتوا الكتاب مفقود ، فإن الله عز وجل أنزل مضامينه في القرآن من مصاديق لغة العموم في قوله تعالى ﴿وَوَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١).

الرابع : يا أيها الذين آمنوا لا تحسبوا أن الله عز وجل يأخذ الميثاق على الذين من قبلكم بالبشارة برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا الحسبان والظن مدد وعون للمسلمين ، وفيه تثبيت للإيمان في صدورهم .

الخامس : لا تحسبن الذين لم يبينوا الكتاب بمفازة من العذاب .
السادس : لا تحسبن خفاء الكتاب والبشارات وإن كتمها الذين أوتوا الكتاب .

السابع : لا تحسبن وجود حاجة للذين كتموا الكتاب والتنزيل ، إنما هذا البيان نفع خاص لهم في النشاطين ، وإلا فإن الله عز وجل يبينه بوسائل وطرق سماوية وملكوية وأنسية متعددة .

الثامن : لا تحسبن الحاجة إلى الذين يكتمون الكتاب ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(١) وقد ورد اسم ﴿غَنِيٌّ﴾ في القرآن اسماً لله عز وجل ثماني عشرة مرة ، ولم يرد فيها أنه ﴿غَنِيٌّ﴾ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿إلا في الآية أعلاه .

ومن إعجاز القرآن أن أغلب المسلمين يستحضر هذه الآية ومعناها ودلالاتها ، وهو من بيان الميثاق الذي أمر الله عز وجل الذين أوتوا الكتاب ببيانه ، فقد بينه الله في القرآن ، ويسر للمسلمين حفظه ، وجعله حاضراً في الوجود الذهني لأنه موافق للفترة والجبلة التي جبل الله عز وجل عليها الناس .

وفي الواقع اليومي لأن الله عز وجل فرض على كل مسلم ومسلمة تلاوة القرآن خمس مرات في اليوم .

التاسع : يا أيها الذين آمنوا لا تحسبوا استثناء الذين أوتوا الكتاب عن رسالتك ، فلا بد من شمولهم بالتبليغ ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْغَسَ وُجُوهَهَا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارَهَا...﴾^(٢).

العاشر : يا أيها الذين آمنوا لا تحسبوا وتظنوا ترتب الضرر على استهزاء طائفة من الذين أوتوا الكتاب في آيات القرآن ، والفرائض العبادية التي جاء بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وتحويل القبلة إلى البيت الحرام بعد أن كانت إلى بيت المقدس ، قال تعالى

(١) سورة آل عمران ٩٧.

(٢) سورة النساء ٤٧.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُم مَّؤْمِنِينَ﴾^(١).

وتدل الآية أعلاه على التفريق والفصل بين الذين أوتوا الكتاب وبين الكفار لإفادة واو العطف في ﴿وَالْكَافِرَ﴾ المغايرة والتعدد ، فالكفار غير الذين أوتوا الكتاب ، كما يبين القرآن المغايرة بين الذين أوتوا الكتاب وبين المشركين ، قال تعالى ﴿تَبْلُؤُنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَتَسْمَعُنَ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^{(٢)(٣)}.

لذا وردت آية السياق بالتخصيص في الذين يقومون بالبيان ، وبالعموم وشمول الناس جميعاً للذين يتلقونه .

اسم الجلالة في الآية

ذكرت الآية السابقة اسم الجلالة وأن الله عز وجل هو الذي أخذ ميثاق أصحاب الكتاب ، ولم تقل الآية (وإذ أخذ ربك) لبيان أنها قانون من الإرادة التكوينية يخاطب الناس جميعاً ، ويذكرهم بالميثاق ، وينذر الذين أخفوا الميثاق من عذاب يوم القيامة ، ولم يرد في آية البحث اسم من أسماء الله الحسنى ، ولكن ذكر الله في الآية من جهات :

الأولى : لغة لخطاب فيها تدل أن الله عز وجل هو الذي يخاطب النبي ويخفف عنه وعن المسلمين بقوله تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ وفيه

(١) سورة المائدة ٥٧.

(٢) سورة آل عمران ١٨٦.

(٣) لقد صدر الجزء التاسع بعد المائتين من هذا السفر خاصاً بتفسير هذه

دعوة للسلم والأمن ، وترك الإرهاب وتخويف الناس لأنها تبليغ وإخبار وإنذار .

الثانية : علم الله عز وجل بحال الفرح عند الناس ، وعلمته وموضوعه وأثره وهو أمر لا يقدر عليه إلا الله عز وجل .

وهل في الآية إصلاح للحالة النفسية للناس ، الجواب نعم ، وفي التنزيل ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾^(١) ، والسر ما أخفاه الإنسان في نفسه ، ولم يظهر على جوارحه ولم ينطق به لسانه .

وعن الإمام الصادق عليه السلام (السر ما كتمته في نفسك، وأخفى ما خطر ببالك ثم أنسيته)^(٢) .

و(عن ابن عباس : السر ما علمته أنت ، وأخفى ما قذف الله في قلبك مما لم تعلمه)^(٣) .

وعن مجاهد : قال الوسوسة ، والسر العمل الذي تسرون من الناس ، والآية أعم .

وعلم الله عز وجل في المقام ليس مجرداً بذاته ، بل هو طريق وعلة لأصلاح النفوس وأعمال الجوارح ، وكما يعلم الله حال الفرح عند الإنسان فانه يعلم حال الكآبة والحزن ، لبيان أن الله عز وجل حينما جعل الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٤) ، فانه سبحانه يعلم ما يظهره وما يخفيه ليقربه إلى سبل الطاعة ، ويبعده عن المعصية .

ولذا نزلت آية البحث لبيان قانون وهو أن الفرح باعلان حقائق التنزيل وليس بإخفاءها .

(١) سورة طه ٧ .

(٢) البحار ٧٩/٤ .

(٣) الدر المشثور ٦ / ٤٩٧ .

(٤) سورة البقرة ٣٠ .

وعن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال :
اطلع علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الباب الذي
يدخل منه بنو شيبه ، فقال : أتضحكون ، ألا أراكم تضحكون ،
أتضحكون ، ثم أدبر ، وكأن على رؤوسنا الخمر ، حتى إذا كان
عند الحجر جاء ، ثم رجع إلينا فقهقري .

فقال : جاءني جبريل ، عليه السلام ، فقال : يا محمد إن الله عز
وجل يقول : لم تقنط عبادي من رحمتي ، نبئ عبادي أنني أنا
الغفور الرحيم ، وأن عذابي هو العذاب الأليم^(١) .

الثالثة : قانون إحاطة الله علماً بما يفعل الناس ، بانزال آية
البحث للإنذار والتخويف والوعيد .

الرابعة : إخبار آية البحث عن نزول العذاب بالذين يكتمون
أسرار التنزيل والبشارات ليصدوا الناس عن الإيمان .

الخامسة : اختتام آية البحث بالتذكير بيوم القيامة ، وعالم
الحساب والجزاء ، وبيان فرد من أفراد وأسباب العقاب بالعذاب
الأليم ، ليكون من مفاهيم الآية وجوب السعي للنجاة من العذاب
الأليم ، بالسعي لأسباب الثناء بالعمل الصالح .

فمن معاني الآية إقامة الحجة على الناس بأنهم يرغبون بالفطرة
بتلقي الحمد والثناء ، وأن هذا الحمد لا يكون إلا على الفعل
والعمل الصالح ، لذا فإن الآية تبشر المؤمنين الذين يعملون
الصالحات بالنجاة من العذاب الأليم ، قال تعالى ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا

(١) معرفة الصحابة لأبي نعيم الاصبهاني ٩٥/٢٢ .

مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مِثْلَهَا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

المسألة الثامنة : لقد تضمنت آية السياق الأمر من الله عز وجل ببيان الميثاق للناس ، والذي يبينه يستحق الحمد لأنه امثل للأمر الإلهي وقام بالبيان ، ولكن قوماً يحبون أن يحمّدوا من غير أن يقوموا ببيان الميثاق ، وإعلان البشارة برسالة خاتم النبيين ، هذا الإعلان الذي يستحق الحمد والثناء لما فيه من سبل الهداية والرشاد للناس والإحتراز من سفك الدماء ، فلو علم عامة أهل الجزيرة بهذه البشارة لعجزت قريش عن تحشيدهم لقتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في معركة بدر وأحد والخندق.

ليكون من معاني الجمع بين الآيتين بعث أهل الكتاب وغيرهم من الناس على بيان فرائد الميثاق وبشارات النبوة والشهادة على إعجاز القرآن ، وما جرى على يد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من المعجزات الحسية في مكة أو المدينة مثل إنشقاق القمر أو حديث الإسراء ، وتكليم بعض الجمادات والشجر له وسلامها عليه.

و(عن أبي بن كعب قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلي إلى جذع إذ كان المسجد عريشا، وكان يخطب إلى ذلك الجذع، فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله هل لك أن تجعل لك منبرا تقوم عليه يوم الجمعة حتى يراك وتسمع الناس خطبتك، قال: نعم، فصنع له ثلاث درجات، هي التي أعلى المنبر، فلما صنع وضعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم موضعه الذي هو فيه، فكان إذا بدأ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يخطب عليه

تجاوز الجذع الذي كان يخطب إليه أولاً ثم أن الجذع خار حتى تصدع وانشق .

فنزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما سمع صوت الجذع مسحه بيده حتى سكن، ثم رجع إلى المنبر، وكان إذا صلى صلى إليه، فلما هدم المسجد أخذ ذلك الجذع أبي بن كعب فكان عنده حتى بلي فأكلته الأرض وعاد رفاتا^(١).

المسألة التاسعة : لقد أختتمت آية السياق بدم الذين أخفوا مضامين الميثاق وامتنعوا عن إعلانها طمعاً بمتاع وحطام من الدنيا إذ قال تعالى ﴿نَبَسْ مَا يَشْتَرُونَ﴾^(٢)، ليكون هذا الطمع وبالأعلى عليهم في النشاطين وأختتمت آية البحث بالوعيد بالعذاب الأليم في الآخرة للذين يفرحون بما أتوا من اتباع الهوى وإخفاء الحقائق.

ترى ما هي النسبة بين الذين جاءهم الوعيد في خاتمة هذه الآية ، وبين الذين ذكرتهم آية السياق ، والمختار أنها نسبة العموم والخصوص المطلق.

وأن الذين يتوجه إليهم الوعيد في آية البحث أعم من الذين ذكرتهم آية السياق لبيان قانون قرآني وهو عموم الوعيد على المعاصي والذنوب بما يؤدي إلى تهذيب النفوس والتوبة والإنابة. لبيان قانون في الإنذار على نحو ترتيبي من وجوه :

الأول : تعيين الموضوع والجهة التي تنزل الآية بخصوصهم ، إذ ذكرت آية السياق موضوع الميثاق .

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ٦٩: ١٢.

(٢) سورة آل عمران ١٨٧.

الثاني : الإخبار عن إقامة الحجة ، كما في آية السياق ، وأن الله عز وجل أخذ الميثاق على أهل الكتاب ، وبما يفيد تأكيد ثبوته ، وعدم إمكان إنكاره ، قال تعالى ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾^(١).

الثالث : بيان قانون وهو ترتب الواجب أو الحرمة على التكليف ، فقد أعطى الذين أوتوا الكتاب العهد والميثاق لله عز وجل بالتقيد بالميثاق ، والعمل بأحكامه .

الرابع : مجئ القرآن بالتكليف الجلي والصريح ، وهو من الحكم الذي لا يقبل التردد والشك ، إذ أخبرت الآية عن أمر وهو وجوب بيان الميثاق لقوله تعالى ﴿لَسِئْتَهُ لِلنَّاسِ﴾.

المسألة العاشرة : اختصت آية السياق بذكر الذين يكتمون الميثاق بعد أن أخذه الله عز وجل عليهم ، ولم تذكر الذين بينوا الميثاق للناس ، ولم يخفوه.

والجواب قد جاءت آيات قرآنية أخرى بالثناء على الذين يتعاهدون الميثاق ، ويعملون بأحكامه ولا يخفون البشارات التي ورثوها بخصوص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فبشرهم الله عز وجل بالثواب واللبث الدائم في الجنة ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يُوَفُّونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَتَّقُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُسُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾^(٢) ، والميثاق على وجوه:

(١) سورة النساء ١٥٤.

(٢) سورة الرعد ٢٠-٢٢.

الأول : الميثاق من جميع الناس كما في ميثاق عالم الذر عند خلق آدم وهل أخذ الميثاق من الناس جميعاً في الجنة بشارة الرحمة العامة لهم من الله ، الجواب نعم .

الثاني : ميثاق وعهد الأنبياء على نحو الخصوص ، وفي التنزيل ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾^(١).

الثالث : ميثاق الذين أوتوا الكتاب الذي اتبعوا الأنبياء السابقين وصدقوا برسالاتهم ، سواء كان هذا التصديق ببعض الأنبياء السابقين أو جميعهم .

وقد تلقى الذين أوتوا الكتاب ميثاق الأنبياء فهم حملة للمواثيق الثلاثة كلها ، وهل منها ميثاق النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي تذكره الآية أعلاه من سورة الأحزاب أم أنهم لا يتحملونه إلا بعد دخولهم الإسلام.

الجواب هو الأول ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾^(٢).

المسألة الحادية عشرة : من معاني الجمع بين الآيتين الدعوة لعدم كتمان حقائق التنزيل ، وعدم الإفتخار والتباهي بهذا الإخفاء ، فهو بذاته إثم فكيف يكون التفاخر به ، ومن معانيه بعث المسلمين والذين أوتوا الكتاب والناس جميعاً على إستحضار الميثاق ، فاذا كانت طائفة قد جعلته وراء ظهورها وأعرضت عنه ، فان هذه الآية تتضمن مسائل :

(١) سورة الاحزاب ٧.

(٢) سورة سبأ ٢٨.

الأولى : تأكيد وجود الميثاق ، وأن الله عز وجل أخذه على الناس .

الثانية : عدم الفرح باخفاء الميثاق .

الثالثة : تلاوة المسلمين آية السياق في الصلاة اليومية تذكير بالميثاق .

الرابعة : آية السياق مادة للإحتجاج على الذين يخفون الميثاق .

الخامسة : دعوة الناس جميعاً للسؤال عن الميثاق ومضامينه ، ومنه البشارات برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

السادسة : بيان طريق مبارك للمدح والثناء وهو إعلان الميثاق الإلهي ، وعدم إخفائه ، وهل من الميثاق قول عيسى عليه السلام كما ورد في التنزيل ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ...﴾^(١) الجواب نعم .

المسألة الثانية عشرة : لوقام الذين أوتوا الكتاب ببيان حقائق التنزيل وأخبروا بما عند علمائهم من البشارات برسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقاموا بالمقارنة والجمع بين معجزاته ومعجزات الأنبياء السابقين لدخلوا وغيرهم الإسلام .

فمن فضل الله عز وجل عدم حصر التصديق بمن يبعثه من الأنبياء بطريق واحد ، بل هناك عدة طرق تدعو الناس للتصديق به ، ومن وجوه تفضيل النبي محمد أنه أكثر الأنبياء والرسل في الطرق والمعجزات التي تدعو الناس للتصديق برسالته ، منها المعجزات الحسية الكثيرة.

وقد ذكرنا في هذا التفسير معجزات حسية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ذكرت في كتب التفسير والسيرة والتأريخ واضفنا لها معجزات كثيرة في هذا السفر المبارك في بيان الوجه الإعجازي في

وقائع وأحداث تتعلق بالسنة القولية والفعلية يدرك الناس أمس واليوم وغداً أنها معجزة خارقة للعادة لا يقدر عليها إلا الله عز وجل .

وقد جمع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إنفراده بكثرة في المعجزات وإنفراده بمعجزات عقلية ، فكل آية من القرآن فريدة من السماء ومعجزة تنفرد عنها المعجزات إلى يوم القيامة .

ومن الإضرار الكتم وإخفاء حقائق التنزيل جعل المنافقين ونحوهم يفترون على أصحاب النبي ، قال تعالى ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرْهًا هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١).

قانون نبذ الإرهاب من إعجاز الآية السابقة

لقد أخبرت الآية السابقة وهو قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾^{(٢)(٣)} عن الميثاق بين الله عز وجل وأهل الكتاب لبيان الميثاق العام من الله مع الناس جميعاً ومما يدل عليه آية الميثاق ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾^(٤).

(١) سورة الأنفال ٤٩.

(٢) سورة البقرة ١٨٧.

(٣) لقد جاء الجزء السابع عشر بعد المائتين من هذا السفر خاصاً بتفسير هذه الآية الكريمة .

(٤) سورة الأعراف ١٧٢.

فيجب أن يحرص كل انسان على حفظ ما بينه وبين الله عز وجل من الميثاق والعهد بالتحلي بتقوى الله .

ومن إعجاز الآية الغيري ذم الذين ينقضون الميثاق والعهد ، وبيان حقيقة وهي أن الإرهاب جزء من هذا النقص .

و(عن ابن عباس في قوله {وإذ أخذ ربك} الآية . قال : إن الله خلق آدم ثم أخرج ذريته من صلبه مثل الدر .

فقال لهم : من ربكم ، فقالوا : الله ربنا .

ثم أعادهم في صلبه حتى يولد كل من أخذ ميثاقه لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم إلى أن تقوم الساعة)^(١).

وهل يختلف ميثاق أهل الكتاب عن الميثاق العام الذي ورد ذكره في الآية أعلاه ، الجواب لا ، إنما هو في طوله ومعه بيان وتفصيل جاء على السنة الأنبياء مثل إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام .

لقد أراد الله عز وجل أن تكون الحياة الدنيا دار البيان ، ولم يهبط آدم إلى الأرض إلا بعد أن علمه الله عز وجل الأسماء ، قال تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾^(٢).

ليكون هذا التعليم والأسماء مقدمة للبيان والإيضاح في الدنيا ومنه وجوب الإيمان ، وقبح الكفر والقتل والسرقة والزنا وضروب المعاصي .

ومن خصائص الإيمان أنه زاجر عن الظلم والتعدي ، لذا تحض آية البحث الذين اتبعوا الأنبياء السابقين ، وورثوا التوراة والإنجيل على عدم نصرته المشركين في حربهم ضد النبوة والقرآن .

(١) الدر المنثور ٤/٣٦٠ .

(٢) سورة البقرة ٣١ .

الوجه الثاني : صلة آية البحث بالآية قبل السابقة ﴿تَبْلُونَ﴾
 فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَتَسْمَعُونَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ
 وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ
 عَزْمِ الْأُمُورِ^(١) ، وفيها مسائل :

المسألة الأولى : إبتدأت آية السياق بحرف اللام ، والخطاب إلى
 المسلمين والمسلمات بالإمتحان والاختبار بالأموال والأنفس بينما
 إبتدأت آية البحث بالخطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله
 وسلم ، وكل من الآيتين لم يرد فيها اسم الجلالة أو أحد الأسماء
 الحسنى .

وكما ورد لفظ ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ في الآية السابقة ، فقد ورد
 أيضاً في الآية قبل السابقة لإرادة التحذير والإنذار ، وتقريهم من
 منازل التصديق بنزول القرآن من عند الله ، ولمنعهم من نصرة كفار
 قريش في حربهم على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .
 ولا يعلم منافع هذه الآية بهذا الخصوص ومنها إعراض أهل
 الكتاب عن دعوة وتحريض قريش ضد النبي محمد صلى الله عليه
 وآله وسلم .

لقد كان رجال قريش يمنعون وفد الحاج من الإستماع إلى
 النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وبعد الهجرة صاروا
 يطوفون على القبائل العربية لتحشيدهم لقتال النبي محمد صلى الله
 عليه وآله وسلم .

ففي معركة أحد استأجر أبو سفيان ألفين من الرجال ، ليكون
 مجموع جيش المشركين ثلاثة آلاف ، وهو من الشواهد النادرة في

تلك الأزمنة أن يكون المستأجرون أكثر من أرباب القضية والخصومة.

وهل توجهت قريش للملوك زمانهم مثل هرقل ملك الروم في الشام ، وكسرى ملك فارس ، والنجاشي ملك الحبشة وغيرهم للإستعانة بهم وبجيوشهم لقتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، المختار نعم .

وقد ورد في التاريخ لقاء أبي سفيان مع ملك الروم ، وذهابه إلى كسرى.

وبعثت قريش لإعادة الصحابة المهاجرين في الحبشة وفداً يتألف من :

الأول : عمرو بن العاص .

الثاني : عمارة بن الوليد .

ومعهما هدايا من أبي سفيان^(١) ورجال قريش إلى النجاشي وحاشيته مع طلب تسليم الصحابة المهاجرين لهم.

وهناك مسألة وهي لو وافق النجاشي على تسليم الصحابة إلى عمرو بن العاص ، وعمارة بن الوليد ، فانهما معرضان للقتل أو الطرد في الطريق من قبل الصحابة إذ كان عددهم ثلاثة وثمانين عدا النساء المؤمنات ، وهناك احتمالات :

الأول : طلب عمرو بن العاص من النجاشي رجالاً يرافقونهم إلى مكة.

الثاني : استئجار عمرو بن العاص رجالاً لحراسة الصحابة حين الوصول إلى مكة وإيذائهم في الطريق .

الثالث : الإمهال حتى عودة عمرو بن العاص برجال من قريش وأخذ الصحابة موثقين بالحبال .

(١) أنظر ذخائر العقبى ٢٠٨/١.

الرابع : الإكتفاء بطرد وإخراج النجاشي الصحابة من الحبشة .
والمختار هو الثاني خاصة وأن السفر في أكثره في البحر .

المسألة الثانية : تبين آية السياق ما كان يلاقيه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من الأذى الشديد في الأموال والأنفس ، ومنه دخولهم المعارك دفاعاً وسقوط القتلى والجرحى ، بينما تجد طائفة من الناس يفرحون بالتدليس وإخفاء البشارات والجدال بغير برهان ، ويتكبرون المعاذير للتخلف عن نصر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما في المنافقين .

ومن معاني الجمع بين آية البحث وآية السياق مواساة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، وإخبارهم بأن فرح الذين كفروا والمنافقين بما أتوا إنما هو أمر زائف يخلف لهم العقاب الأليم ، بينما يكون إبتلاء المؤمنين مناسبة للأجر والثواب .

المسألة الثالثة : ترى ما هي النسبة بين الإبتلاء الذي تذكره آية السياق والإبتلاء الذي ورد في قوله تعالى ﴿وَلَبَلُّوْكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾^(١) .

المختار أن النسبة هي العموم والخصوص المطلق ، فالآية أعلاه أعم موضوعاً وزماناً ومكاناً ، كما أخبرت الآية أعلاه عن مجئ الإبتلاء من عند الله عز وجل لبيان أن الأذى الذي يصل النبي وأهل بيته وأصحابه ، ما كان يصلهم من المشركين لولا الإذن من عند الله عز وجل ، قال تعالى ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾^(٢) .

(١) سورة البقرة ١٥٥ .

(٢) سورة الحديد ٢٢ .

وذكرت آية البحث بصيغة الذم الذين يحبون أن يتوجه لهم الشاء على أمور لم يفعلوها منها :

الأول : يريدون تصديق الناس لهم في دعواهم الدفاع عن النبي والإسلام.

الثاني : في اخراج الزكاة والخمس.

الثالث : في الصلاح والتقوى ، وهم بعيدون عنها ، بينما يتلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته وأصحابه بالأذى من المشركين ، ويصبرون عليه رجاء الأجر والثواب .

ولو تخلى المنافقون عن خبثهم ومكرهم ، وهجروا القعود عند قدوم جيش المشركين ، فهل فيه تخفيف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في ميادين الدفاع ، الجواب نعم ، إلى جانب ما فيه من الصلاح واستقرار المجتمع ، ويدل على أذاهم بيعت الخوف والفرع والإرباك في المدينة ، قوله تعالى ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١).

ولم يرد لفظ ﴿الْمُرْجِفُونَ﴾ في القرآن إلا في الآية أعلاه .

تري ما هي النسبة بينه وبين المنافقين ، فيه وجوه محتملة :

الأول : نسبة التساوي ، وأن المنافقين هم المرجفون .

الثاني : نسبة العموم والخصوص المطلق وهو على شعبتين :

الأولى : المرجفون هم الأكثر والأعم .

الثانية : المنافقون أكثر من المرجفين .

الثالث : نسبة العموم والخصوص من وجه ، فهناك مادة للإلتقاء

وأخرى للإفتراق بين المنافقين والمرجفين .

الرابع : نسبة التباين والإختلاف .

والمختار هو الشعبة الأولى من الوجه الثاني أعلاه ، خاصة وأن سكان المدينة كانوا خليطاً من المسلمين وطائفة من الذين أوتوا الكتاب والكفار .

وهل يشمل لفظ «الرُجْفُون» بعض المؤمنين الذين ينساقون وراء الإشاعات ، ويرددون ما يقوله المنافقون أم أن خاتمة الآية تدل على عدم شمولهم لما فيها من الوعيد .

الجواب فيه تفصيل إذ يشمل لفظ «الرُجْفُون» كل من يقوم ببيت الإشاعات المغرضة مثل قدوم جيش المشركين وعزمهم على اقتحام المدينة ، وأخبار قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ولكن الوعيد الوارد في خاتمة الآية أعلاه لا يشمل المؤمنين .

إنما جاءت الآية لزجر وإنذار المشركين ، وليلفت المؤمنين لوجوب إجتنب محاكاة المنافقين ، وفي هذا الإجتنب تأديب لهم ، ودعوة لهم للتوبة ، والإقلاع عن النفاق بإصلاح النفوس .

المسألة الرابعة : لقد أختتمت آية البحث بالوعيد بالعذاب الأليم للذين ظلموا ويحمدون أن يثنى عليهم ، وفيه بلحاظ آية السياق عهد ووعد وعون للمسلمين للصبر ، وتحمل الأذى .

لذا أختتمت الآية بقوله تعالى «فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ»^(١) .

ترى لماذا اقترن الأمر بالتقوى مع الأمر بالصبر في الآية أعلاه ، الجواب من جهات :

الأول : وجوب عدم إنشغال النبي صلى الله عليه وآله وسلم بايذائه وأصحابه .

الثاني : عدم الرد على المشركين بالمثل لبيان مصداق عملي لقوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١) .

الثالث : وجوب التقوى والخشية من الله عز وجل في القول والعمل .

الرابع : عطف الأمر بالتقوى على الأمر بالصبر بشارة للمسلمين في دفع ورد شرور الذين كفروا .

الخامس : الأمر بالصبر والتقوى مدد وعون من الله عز وجل .

المسألة الخامسة : أختتمت آية السياق بقوله تعالى ﴿فَإِنْ ذَلِكْ

مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٢) وفيه وعد كريم على العمل الصالح ، وهل الصبر المذكور في الآية منه ، الجواب نعم ، فهو أمر وجودي ، وفعل يكون على أقسام :

الأول : الكيفية النفسانية .

الثاني : حبس الجوارح عن الإنتقام والرد والبطش .

الثالث : الصبر العام من قبل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بعدم رد غزو مشركي قريش للمدينة المنورة بمثله ، وهو من أبهى مصاديق الصبر .

الرابع : في معاملة أسرى المشركين ، وعدم الثأر والإنتقام منهم ، وهل كان من أسرى المشركين يوم بدر ممن قتل بعض الصحابة يومئذ أو جرح بعضهم ، ومع هذا لم ينتقم منه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، الجواب نعم .

إنما تلقوا العناية واللفظ ، وهو من الصبر الذي تذكره آية السياق ، ومن لطف الله عز وجل بالمسلمين تقريهم إلى الصبر

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) سورة آل عمران ١٨٦.

والتقوى ، وفي العناية في الأسرى ورد قوله تعالى ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾^(١).

وليس من تشريع في تاريخ الإنسانية يجعل إدارة أسير الحرب بمرتبة واحدة مع الرأفة باليتيم والإحسان إلى المسكين والفقير من ذوي القربى وأهل البلدة ، خاصة مع معرفة أسباب نزول الآية. وعن الحسن البصري أن الآية (نزلت في علي وفاطمة وذلك أن علياً وفاطمة نذرا صوماً فقضياه ، وخبزت فاطمة ثلاثة أقراص من شعير ليفطر علي على أحدها وتفطر هي على الآخر ، يأكل الحسن والحسين الثالث ، فسألها مسكين فتصدقت عليه بأحدها ، ثم سألها يتيم فتصدقت عليه بالآخر ، ثم سألها أسير فتصدقت عليه بالثالث ، وباتوا طاوين)^(٢).

خصوصاً مع التباين في موضوع الأسر ، فالأسير مشرك عابد للأوثان محارب للنبوة والتنزيل ، وسعى في الميدان لقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وسقط بعض المهاجرين والأنصار شهداء ، إذ استشهد في معركة بدر أربعة عشر من الصحابة.

(وقال ابن عباس: كان أسراؤهم يومئذ مشركين. ويشهد لهذا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء)^(٣).

المسألة السادسة : لقد أختتمت آية السياق بالأمر للمسلمين بالصبر والتقيد بسنن التقوى ، وهل يختص هذا الأمر بخصوص مضامين آية السياق ، الجواب لا ، فهو عام ليكون من مصاديق

(١) سورة الإنسان ٨.

(٢) النكت والعيون ٤/٣٦٣.

(٣) تفسير ابن كثير ٨/٣٨٨.

بآيات القرآن الأخرى ، وأداء الفرائض والعبادات ، وفي ملاقاته
المشركين في ميدان المعارك.

ومن الجمع بين الصبر والتقوى في المقام أن النبي محمداً صلى
الله عليه وآله وسلم كان لا يبدأ قتالاً إنما كان ينادي قولوا لا إله إلا
الله تفلحوا.

ومن وجوه تقدير قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا﴾^(١) ، بلحاظ آية
البحث وجوهاً :

الأول : وإن تصبروا وتتقوا لا يضرركم الذين يفرحون بما أتوا بما
هو خلاف الحق .

الثاني : وإن تصبروا وتتقوا يلحق الخزي الذي يفرحون بما أتوا
من المنافقين ونحوهم .

الثالث : وإن تصبروا وتتقوا يصيب الندم الذين يحبون أن
يحمدوا بما لم يفعلوا.

الرابع : وإن تصبروا وتتقوا فلكم الأجر والثواب ، (وعن
صهيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : عجباً لأمر
المؤمن أمر المؤمن كله خير ، إن أصابته سراء شكر كان خيراً ، وإن
أصابته ضراء صبر كان خيراً)^(٢).

الخامس : وإن تصبروا وتتقوا فانكم من الذين يحبون أن يحمدوا
بما فعلوا من واجبات الإيمان.

السادس : وإن تصبروا وتتقوا فانكم تقتدون بالأنبياء والرسل ،
قال تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا
إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران ١٨٦.

(٢) الدر المنثور ٣٣٦/٨.

(٣) سورة الأنعام ٩٠.

المسألة السابعة : لقد جعل الله عز وجل الصبر والخشية منه تعالى صفة للمؤمنين ، وتقدير آية السياق : يا أيها الذين آمنوا إن تصبروا وتتقوا .

ليبان وجوب الصبر في العبادات ، والصبر عن المعاصي ، وفيه دعوة للناس للهدى والصلاح ، ومنه الذين أكرمهم آية البحث بالذكر للنهي عن الإستمرار بالتباهي بالإعراض عن دعوة الحق ، أو بالإحتجاج والجدال بالباطل ، فهذا النهي القرآني لطف من عند الله ولا بد من وجود طائفة تتوب إلى الله عز وجل بسببه ، وفيه شواهد عديدة في احتجاج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع أهل الكتاب الذين في المدينة كما أن مضامين آية البحث لا تختص أو تنحصر بأيام التنزيل والنبوة فهي دعوة متجددة إلى يوم القيامة .

لذا فمن إعجاز الآية أنها لم تبين الفئة والطائفة المقصودة في الآية فلم تقل لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا من أهل الكتاب .

أو لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا من ذرية إبراهيم ومنهم قريش أو الذين ﴿عِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ﴾^(١) ، أو الذين ﴿كَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾^(٢) ، أو الذين ﴿اتَّبَعُوا مَا اسَّخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾^(٣) ، أو ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾^(٤) .

وتبين آية السياق قانوناً وهو دعوة القرآن إلى السلم والموادعة بملاقاة المسلمين للأذى الكثير من المشركين بالصبر والخشية من الله ، ومن مصاديق التقوى في المقام التنزه عن التعدي ، وكل فرد من

(١) سورة المائدة ٤٣ .

(٢) سورة القمر ٣ .

(٣) سورة محمد ٢٨ .

(٤) سورة الأنفال ٤٩ .

الصبر والتقوى واقية من الظلم للنفس والغير ، ومن معاني الصلة بين أول وآخر آية السياق وجوه :

الأول : يا أيها الذين آمنوا إن تصبروا على الإبتلاء في أموالكم.

الثاني : يا أيها الذين آمنوا سقوط الشهداء أسمى مراتب الصبر.

الثالث : يا أيها الذين آمنوا إن تصبروا سقوط الشهداء منكم في ميادين القتال ، وهل الجراحات الشديدة التي أصابت النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يوم معركة أحد من الإبتلاء بالنفوس الذي ذكرته آية السياق ، الجواب نعم.

المسألة الثامنة : لقد أخبرت آية البحث عن وجود طائفة يخفون بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأحكام الشريعة والفرائض العبادية مما يدل على إضهارهم شدة العداوة ، والذي يشير بالدلالة الإلتزامية إلى رغبتهم بالإجهاز على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وقتلهم ، ومع هذا أختتمت آية السياق بقوله تعالى ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(١).

فهل من الصبر والتقوى في الآية أعلاه الدعاء ، الجواب نعم ، وهل هو الدعاء على هذه الطائفة ذات النفاق بالانتقام منهم أم باصلاحهم .

الجواب هو الثاني ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿ادْعُونِي﴾

أَسْتَجِبْ لَكُمْ^(٢).

(١) سورة آل عمران ١٨٦.

(٢) سورة غافر ٦٠.

الوجه الثالث : صلة آية البحث بقوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾^(١).

المسألة الأولى : إبتدأت آية السياق بقانون من الإرادة التكوينية وهو مجئ الموت لكل نفس ، والنسبة بين النفوس والناس هو العموم والخصوص المطلق ، فالنفوس أعم ، وتشمل نفوس الملائكة والجن والشياطين .

ولا يختص القدر المتيقن من موضوع آية السياق بنفوس الناس لبيان أن الموت والحياة بيد الله عز وجل وحده ، قال تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ * كل نفس ذائقة الموت ويُلَوِّكُم بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ^(٢) وقال تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ * كل نفس ذائقة الموت ويُلَوِّكُم بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ^(٣) وقال تعالى ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾^(٤).

(عن ابن عباس {كل نفس ذائقة الموت} قال : لما نزلت قيل : يا رسول الله فما بال الملائكة.

فنزلت {كل شيء هالك إلا وجهه}^(٥) فبين في هذه الآية فناء الملائكة والثقلين من الجن والانس وسائر عالم الله ، وبريته من

(١) سورة آل عمران ١٨٥.

(٢) سورة الأنبياء ٣٤-٣٥.

(٣) سورة العنكبوت ٥٦-٥٧.

(٤) سورة الرحمن ٢٦.

(٥) سورة القصص ٨٨.

الطير والوحش والسباع والأنعام ، وكل ذي روح أنه هالك ميت^(١).

والتذكير بالموت أمر نافع للمؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، ففيه دعوة للإنباة والصلاح ، إذ يجعل استحضار الموت الإنسان يتدبر في أعماله في الدنيا .

ومن إعجاز القرآن عدم إكتفائه بذكر الموت كعاقبة حياة الإنسان في الدنيا فانه أمر ظاهر للوجدان ، ولكن القرآن ذكر الناس بعالم الحساب والجزاء في آيات كثيرة ، وبين إنقسام الناس إلى شطرين بلحاظ أعمالهم في الدنيا ، فأما إلى الجنة ، وأما إلى النار بلحاظ عملهم في الحياة الدنيا ، إذ تقود طاعة الله إلى الجنة ويقود الشرك والمعاصي إلى النار ، قال تعالى ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَلَّيْنَا بَنَى حَاسِبِينَ ﴾^(٢).

ولا تنفي آية السياق وجود حساب في القبر ، إذ أنها تتحدث عن وفاء الحساب يوم القيامة ، أما الحساب الابتدائي في عالم البرزخ وفي القبر فيدل عليه الكتاب والسنة ، منه قوله تعالى بخصوص آل فرعون ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾^(٣) وقوله تعالى ﴿ وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى التِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ

(١) الدر المنثور ٢٢/٨.

(٢) سورة الأنبياء ٤٧.

(٣) سورة غافر ٤٦.

سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١﴾ وقوله تعالى ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢﴾.

وقد وردت نصوص عديدة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تتضمن الإخبار عن الحساب والعذاب في القبر.

(عن جابر بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال : إنهما لا يعذبان في كبير ، وبكى ، أما أحدهما فكان يغتاب الناس ، وأما الآخر فكان لا يتأذى من البول فدعا بجريدة رطبة فكسرها ، ثم أمر بكل كسرة فغrst على قبر فقال : أما إنه سيهون من عذابهما ما كانا رطبتين) (٣).

(عن جابر بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فارتفعت ريح جيفة متنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أتدرون ما هذه الريح هذه ريح الذين يغتابون الناس) (٤).

ويدل عليه قوله تعالى بخصوص شهداء أحد ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ

(١) سورة التوبة ١٠١.

(٢) سورة الطور ٤٧.

(٣) الدر المنثور ٩/٢٧٣.

(٤) الدر المنثور ٩/٢٧٣.

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يُحْزَنُونَ ﴿١﴾ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنْ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ (٣).

و(عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما عمل آدمي عملاً قط أنجى له من عذاب القبر من ذكر الله) (٤).

و(عن عبد الرحمن بن حمزة الأنصاري قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونحن في مسجد المدينة فقال : لقد رأيت البارحة عجباً ، رأيت رجلاً من أمتي قد بسطَ عليه عذاب القبر فجاء وضوءه فاستتقذه من ذلك) (٥).

ليان فضل الله عز وجل بالإيمان بازاحة الخوف والفرع من عذاب القبر من نفوس المسلمين ، فذكر الله يصرفه ، وكذا الوضوء وقراءة سورة من القرآن هي (تبارك الملك) .

ومن معاني آية البحث إنذار الذين كفروا من أسباب ومقدمات عذاب البرزخ ، ومنه إتيان المعاصي ، وقول خلاف الحق ، وإرادة الثناء على الباطل وفعل المنكر .

لقد أراد الله عز وجل للحياة الدنيا أن تكون دار صلاح ، وبعث الأنبياء بالفرائض العبادية وسنن التقوى ، فليس للكفار الاعتراض عليه ، وجدالهم ، ولكن المشركين في الجزيرة قاموا بمحاربة النبي

(١) أنظر الجزء الرابع والخمسين بعد المائة من هذا السفر الذي جاء خاصاً بتفسير هذه الآية الكريمة .

(٢) أنظر الجزء الخامس والخمسين بعد المائة من هذا السفر الذي اختص بتفسير هذه الآية الكريمة .

(٣) سورة آل عمران ١٧٠-١٧١ .

(٤) الدر المنثور ٣٠١/١ .

(٥) الكشف والبيان للثعلبي ٣٥/٥ .

محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالسيف ، وعلى نحو متكرر ، ومن اللطف الإلهي هزيمتهم في معركة بدر ، لتكون زاجراً لهم عن تكرار القتال ، ولكنهم أصروا عليه ، وزادوا في الغي والغرور ، فبعد أن كان عددهم في معركة بدر ألف مقاتل ، وكان ميدان المعركة يبعد عن المدينة المنورة ١٥٠ كم.

زحف بعدها بثلاثة عشر شهراً أي في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة ثلاثة آلاف رجل من المشركين من مكة وأطرافها ، متوجهين إلى المدينة حتى اطلوا وأشرفوا عليها ، ولم يبق بينهم وبين المسجد النبوي سوى (٥) كم فكانت نتيجة تماديهم هذا وجوه :

الأول : عودة مشركي قريش من معركة أحد من غير تحقيق أي فرد من غاياتهم الخبيثة .

الثاني : غزو الرعب قلوب الذين كفروا .

لقد قاموا بغزو المدينة فرد الله عز وجل عليهم بان جعل الرعب ينفذ إلى شغاف قلوبهم ، قال تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوًى لِلظَّالِمِينَ﴾^(١).

وموضوع الآية أعلاه هو معركة أحد ، ولكن معناها أعم ، إذ دخل الرعب إلى قلوب المشركين ، ولم يغادرها لأصالة الإستدامة^(٢) إلا أن يدل دليل على زوال الرعب من قلوب الذين كفروا ، أو انقطاعه في حال السلم مثلاً .

(١) سورة آل عمران ١٥١.

(٢) هذا الإصطلاح مستحدث هنا .

فلو دار الأمر بين استدامة الأمر أو انقطاعه فالأصل الإستدامة إلا أن يدل دليل على الإنقطاع ، وهو غير أصالة الإطلاق التي يقابلها التقييد.

الثالث : قانون الوعيد بالنار للذين يحاربون النبوة والتنزيل .

الرابع : قانون سلامة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من القتل.

الخامس : إزدیاد عدد الذين يدخلون الإسلام.

السادس : توالي نزول آيات القرآن التي تفضح الكافرين ، وتتضمن الإنذار والوعيد لهم ، ومنها آية البحث .

السابع : قيام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بالخروج خلف جيش المشركين عندما بلغه عزمهم العودة للإغارة على المدينة مما حمل المشركين على التعجيل بالعودة خائبين إلى مكة وأكرم الله عز وجل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بنزول آيات بهذا الخصوص ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(١) * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ^(٢) * فَاقْبَلُوا نِعْمَةً مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبِعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾^{(٣)(٤)}.

(١) انظر الجزء السابع والخمسين بعد المائة من هذا السفر الذي اختص بتفسير الآية (١٧٢) أعلاه .

(٢) انظر الجزء الثامن والخمسين بعد المائة من هذا السفر الذي اختص بتفسير الآية (١٧٣) أعلاه .

(٣) سورة آل عمران ١٧٢-١٧٤ .

(٤) انظر الجزء الثامن والخمسين بعد المائة من هذا السفر الذي اختص بتفسير الآية (١٧٤) أعلاه .

ترى متى وأين ألقى الله عز وجل الرعب في قلوب المشركين ،
الجواب لقد جاءت الآية بحرف السين للمستقبل القريب (سنلقي)
ويحتمل وجوهاً :

الأول : نزول الرعب في قلوب المشركين في يوم بدر ، فان قلت
نزلت الآية أعلاه في معركة أحد ، ووردت بصيغة المضارع القريب
بلحظ حرف السين في (سنلقي).

والجواب اثبات شيء لشيء لا يدل على نفيه عن غيره خاصة
وأن موضوع وعلة القاء الرعب متحققة وهي إشراك الذين كفروا
بالله ، لبيان قانون وهو أن هجوم المشركين في معركة بدر وأحد
والخندق فرع الشرك بالله لذا فان الله عز وجل توعده النار على
الشرك وهو مستثنى من موارد العفو والمغفرة لقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ
لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ
افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾^(١).

الثاني : نزول الرعب في قلوب المشركين يوم معركة أحد ، وقبل
يوم القتال ، وهو المختار.

الثالث : الملازمة بين بدء القتال يوم معركة أحد ، ومجيئ الرعب
للذين كفروا ليكون الرعب سلاحاً ضد الذين كفروا وهو من
مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^(٢).

الرابع : التدريج في نفاذ الرعب إلى قلوب الذين كفروا قبل
واثنا وبعد معركة أحد .

(١) سورة النساء ٤٨.

(٢) سورة المدثر ٣١.

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، ويمكن تقدير قوله تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾^(١) ، قد ألقينا ونلقي وسنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب .

ترى هل من صلة بين الآية أعلاه ، وقوله تعالى ﴿لَيُطْعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(٢) ، الجواب نعم ، وفيه وجوه منها :

الأول : قتل طائفة من الذين كفروا في معركة أحد إذ فقدوا اثنين وعشرين من رجالهم في هذه المعركة ، وهل هذا القتل من مصاديق سفك الدماء في قوله تعالى حكاية عن الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٣) ، الجواب لا ، لأن هذا القتل دفاع عن الإسلام والنبوة والتنزيل ، ولم يقصد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه قريشاً في مكة للقتال ، إنما أشرفوا على المدينة بخيلهم وخيلائهم .

ولم يكتفوا بهذا بل حينما وصل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إلى موضع معركة أحد ودعاهم إلى كلمة التوحيد أجابوه بالمناجزة والتقدم للمبارزة ، إذ تقدم أبو سعد بن أبي طلحة صاحب لواء المشركين ، وقال أن قاصم (من ييارز)^(٤) ، والقاصم أي القاطع .

فلم يبرز إليه أحد من المسلمين ليس خوفاً أو جبناً ، ولكن لإقامة الحجة على الذين كفروا ، ولأن قتله بعد إلحاحه بالتحدي وتعير

(١) سورة آل عمران ١٥١ .

(٢) سورة آل عمران ١٢٧ .

(٣) سورة البقرة ٣٠ .

(٤) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ١٩٤/٤ .

المسلمين أشد نكالاً به وبأصحابه ، وهو باعث للرعب في قلوبهم أي ليكون من معاني قوله تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾^(١) ، أي سنلقي في قلوبهم الرعب باصرارهم على القتال والمبارزة بعد أن حضروا إلى أطراف المدينة غزاة معتدين ، ثم نادى مرة أخرى طالباً المبارزة وسط الميدان بين الصفين ، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ينظرون إليه ، ليوثق التأريخ إصرار الذين كفروا على القتال وقانون (لم يغز النبي محمد (ص) أحداً) والذي صدرت بخصوصه أربعة وعشرون جزء من هذا التفسير كما تقدم.

وعندما لم يبرز لأبي سعد بن أبي طلحة أحد من المسلمين إزداد تمادياً في الغي ونادى بأعلى صوته (يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ زَعَمْتُمْ أَنَّ قَتَلَكُمْ فِي الْجَنَّةِ وَأَنْ قَتَلْنَا فِي النَّارِ كَذَبْتُمْ وَاللَّاتِي لَوْ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ حَقًّا لَخَرَجَ إِلَيَّ بَعْضُكُمْ فَخَرَجَ إِلَيْهِ الْإِمَامُ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَاخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ فَضْرِبَهُ عَلِيٌّ فَقَتَلَهُ)^(٢).

الثاني : واقعة أحد باعث للرعب في قلوب الكفار والمشركون ممن اشترك في القتال ومن لم يحضره ليكون من معاني وتقدير قوله تعالى ﴿يَوْمَ اتَّقَى الْجُمُعَانَ﴾ يوم التقى الجمعان فاصاب الرعب جميع المشركين .

الثالث : كل فرد من أفراد آية (ليقطع) سبب لنفاذ الرعب واستقرار الرعب في قلوب المشركين ، سبباً ونتيجة من غير أن يلزم الدور بينهما ومنه :

الأولى : ليقطع طرفاً من الذين كفروا فينفذ الرعب إلى قلوب المشركين .

(١) سورة آل عمران ١٥١.

(٢) انظر الروض الأنف ٢٥٨/٣.

الثانية : سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب ليقطع طرفاً منهم باصابتهم بالوهن والفرع والخوار .

الثالثة : يكبت ويذل ويهين الله الذين حاربوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتكون نتيجة هذا الكبت امتلاء نفوسهم بالخوف والرعب ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾^(١).

الرابعة : تقدير الجمع بين الآيتين : سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب فينقلبوا خائبيين.

ليبان أن قوله تعالى ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(٢) ^(٣) ، يتجلى فيه قانون من الإرادة التكوينية وهو جمع اللفظ القرآني الواحد بين الوعد والحقيقة الواقعة كما في قوله تعالى ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من جهات :

الأولى : قانون الوعد بهلاك طائفة من الكفار الذين قاموا بغزو المدينة ، كما يتوعدون نحو سنة كاملة ويهددون بأنهم سيقتلون النبي محمداً ، ويعثون الرسائل للمهاجرين بأن يعودوا إلى مكة نادمين ، وإلى الأنصار بلزوم التخلي عن نصرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعن إيواء المهاجرين ، حتى إذا ما نشبت معركة أحد فانها لم تستمر إلا ساعات من نهار يوم الأحد النصف من شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة ، ليكون قصر وقتها مع كثرة الإعداد وتهيئة

(١) سورة المجادلة ٥.

(٢) سورة آل عمران ١٢٧.

(٣) انظر الجزء الواحد والثمانين من هذا التفسير وهو خاص بتفسير هذه الآية في صفحة.

مقدماتها من قبل المشركين معجزة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في السنة الدفاعية .

الثانية : قانون تنجز الوعد الإلهي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل نزول الآية ، ولتشملة آيات أخرى مكية بقطع طرف وهلاك طائفة من الذين كفروا ، وتؤكد السنة النبوية ، فحينما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مكة قبل الهجرة ، وكان المشركون يؤذونه وتوعدهم بالرد عليهم ، فمثلاً كان أبي بن خلف الجمحي يتوعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في مكة قبل الهجرة .

وكلما (يلقى رسول الله فيقول : عندي رمكة^(١) أعلفها كل يوم فرق ذرة أقتلك عليها .

قال رسول الله : بل أنا أقتلك إن شاء الله ، فلما كان يوم أحد ودنا منه تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة من الحارث بن الصمة ثم استقبله فطعنه في عنقه وخدشه خدشة فتدهده عن فرسه وهو يخور كما يخور الثور ويقول : قتلتني محمد ،

واحتمله أصحابه فقالوا : ليس عليك شيء ، فقال : بلى ، لو كانت هذه الطعنة بريئة ومضر لقتلهم أليس قال لي : أقتلك إن شاء الله ، فلو بزق علي بعد هذه المقالة لقتلني . فما لبث إلا يوماً حتى مات بموضع يقال له صرف .

فقال حسان بن ثابت في ذلك :

لقد ورث الضلالة عن أبيه ... أبي حين بارزه الرسول
أتيت إليه تحمل رم عظم ... وتوعده وأنت به جهول
يقول فكيف يحى الله هذا ... وهذا العظم عار ومستحيل
(وقد قتلت بنو النجار منكم ... أمية إذا يغوث : يا عقيل

(١) الرمكة - محرقة - : الفرس والأنثى من البراذين معرب ، والمقصود أعلاه الفرس .

وتب ابنا ربيعة إذ أطاعا ... أبا جهل لأمهما الهبول
وأفلت حارث لما شغلنا ... بأسر القوم، أسرته فليل)
وقال حسان بن ثابت أيضاً :

ألا من مبلغ عني أيّاً ... فقد القيت في جوف السعير
تمنى بالضلالة من بعيد ... وقول الكفر يرجع في غرور
فقد لاقتك طعنة ذي حفاظ ... كريم الأصل ليس بذي فجور
له فضل على الأحياء طراً ... إذا نابت مُلَمَّات الأمور^(١).

ليكون قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذا مشابهاً لقول داود عليه السلام لجالوت رأس الجبابرة ، الذي حينما نظر الى داود وقد برز له (يا فتى ، ارجع فإنني أرحمك ان أقتلك . فقال داود : لا بل أنا أقتلك . وأخرج الحجارة فوضعها في القذافة ، كلما رفع حجراً سماه فقال : هذا باسم أبي إبراهيم ، والثاني باسم أبي إسحق ، والثالث باسم أبي إسرائيل ، ثم أدار القذافة فعادت الأحجار حجراً واحداً ، ثم أرسله فصك به بين عيني جالوت فثقت رأسه فقتله ، ثم لم تزل تقتل كل إنسان تصيبه تنفذ منه حتى لم يكن بحيالها أحد ، فهزموهم عند ذلك ، وقتل داود جالوت ورجع طالوت فأنكح داود ابنته ، وأجرى خاتمه في ملكه ، فمال الناس إلى داود وأحبوه^(٢).

الثالثة : تكرار القطع وتفشي القتل بين المشركين في ميدان المعركة .

الرابعة : هل يصح لفظ الطرف في قوله تعالى ﴿لَيَقَطَّعَ طَرَفًا﴾ على المنفرد من رؤساء الذين كفروا ، كما في قتل الإمام علي عليه السلام لعمر بن ود العامري ، الجواب نعم ، إذ أن معنى الطرف هو القطعة ، والجانب (وكل مختار طرف)^(٣).

(١) الثعلبي / الكشف والبيان ٢٣٣/٣ .

(٢) الدر المنثور ٤٣/٢ .

(٣) لسان العرب ٢١٣/٩ .

(وأطرافُ الرجلِ أخواله وأعمامه ، وكلُّ قَرِيبٍ له مُحَرَّمٌ ، والعرب تقول لا يُدْرِي أي طَرَفُهُ أطولُ ومعناه لا يُدْرِي أي والدِيهِ أَشْرَفُ قال هكذا قاله الفراء).

ويقال لا يُدْرِي أَنَسَبُ أَبِيهِ أَفْضَلُ أم نَسَبُ أُمِّهِ .
وقال أبو الهيثم يقال للرجل ما يُدْرِي فلان أي طَرَفُهُ أطولُ أي أي نصفِيهِ أطولُ الطَّرْفُ الأسفلُ من الطَّرْفِ الأعلى فالنصفُ الأسفلُ طَرَفٌ والأعلى طَرَفٌ والخصرُ ما بين مُنْقَطَعِ الضِّلُوعِ إلى أطرافِ الوَرَكَيْنِ وذلك نصفُ البدنِ والسَّوْءُ بينهما كأنه جاهل لا يُدْرِي أي طَرَفِي نفسه أطولُ ابن سيدة ما يُدْرِي أي طرفيه أطول يعني بذلك نَسَبُهُ من قَبْلِ أَبِيهِ وأُمِّهِ .
وقيل طَرَفَاهُ لِسَانُهُ وَفَرْجُهُ وَقِيلَ اسْتَهْ وَفَمُهُ لا يُدْرِي أَيُّهُمَا أَغْفُ وَيُقَوِّيه قول الراجز :

لو لم يَهْوَ ذِلُّ طَرَفَاهُ لَنَجَمَ ... في صَدْرِهِ مِثْلُ قَفَا الكَبْشِ الأَجَمِ .
يقول لولا أنه سَلَحَ وقَاءَ لِقَامِ في صَدْرِهِ من الطعام الذي أكل ما هو أَغْلَظُ وَأَضْحَمُ من قَفَا الكَبْشِ الأَجَمِ^(١) .

وهل في صلح الحديبية قطع لطرف من الذين كفروا ، أما أن القدر المتيقن من الآية الكريمة هو خصوص الكفار الذين يسقطون في ميدان المعركة ، الجواب هو الأول .

لتشمل الآية الكريمة معنى أعم من المعنى اللغوي لذات اللفظ ، ففي الصلح انحسر نفوذ قريش وأصابهم الكبت والوهن ، وأظهر الذين ناصروهم في حربهم على النبوة والتنزيل الندامة ، وهو من مصاديق قوله تعالى بخصوص صلح الحديبية ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(٢) .

الخامسة : من أبهى معاني الوعد الإلهي بقطع طرف الكفار وتحقيقه في الواقع دخول أفواج من الناس وقبائل وأهل قرى كاملة الإسلام بعد صلح

(١) لسان العرب ٩/ ٢١٣ .

(٢) سورة الفتح ١ .

الحديية لبيان أن قطع الطرف من الذين كفروا من عمومات قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١)، وأن القرآن خال من التعارض أو التضاحم بين آياته ومضامينها القدسية.

وهل من مصاديق قوله تعالى ﴿يَقْطَعُ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٢)، محاربة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للإرهاب والقتل بدون حق ، الجواب نعم .

وحينما احتجت الملائكة على جعل الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٣)، بأنه يفسد في الأرض ويسفك الدماء ، أخبرهم الله عز وجل بالقول ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٤)، فمن علم الله عز وجل قطع دابر الإرهاب ببعثة الأنبياء ، واستئصاله برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإن قيل هناك إرهاب باسم عقيدة التوحيد.

فالجواب الإسلام والقرآن والنبوة براء من هذا الإرهاب ، وهو عرض زائل وفعل محدود ذو أثر قليل سرعان ما يزول ، وتبقى الفرائض العبادية. وقد صدرت أجزاء من هذا التفسير بخصوص حرب القرآن على الإرهاب على شعبتين :

الأولى : الأجزاء الخاصة بقانون (التضاد بين القرآن والإرهاب) وقد صدرت بخصوصه الأجزاء :

الأول : الجزء الرابع والثمانون بعد المائة .

الثاني : الجزء الخامس والثمانون بعد المائة .

الثالث : الجزء الثامن والثمانون بعد المائة .

(١) سورة الأنبياء ١٠٧ .

(٢) سورة آل عمران ١٢٧ .

(٣) سورة البقرة ٣٠ .

(٤) سورة البقرة ٣٠ .

- الرابع : الجزء الخامس والتسعون بعد المائة .
- الخامس : الجزء الثامن والتسعون بعد المائة .
- السادس : الجزء التاسع والتسعون بعد المائة .
- السابع : الجزء الثالث بعد المائتين .
- الثامن : الجزء العاشر بعد المائتين .
- التاسع : الجزء الحادي عشر بعد المائتين .
- العاشر : الجزء التاسع عشر بعد المائتين .
- الثانية : الأجزاء التي اختصت بقانون (النزاع المسلح بين القرآن والإرهاب) وقد صدرت بخصوصه أجزاء من هذا التفسير وهي :
- ♦ الجزء الثاني والعشرون بعد المائتين .
 - ♦ الجزء الثالث والعشرون بعد المائتين .
 - ♦ الجزء الرابع والعشرون بعد المائتين .
- الرابع : لقد بدأت معركة أحد بقول حامل لواء المشركين للمسلمين تزعمون أن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار ، فقد انتهت بتأكيد هذا القانون على لسان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .
- فحينما أراد أبو سفيان وجيشه الإنسحاب من معركة أحد نادى لنا العزى ولا عزى لكم ، يتفاخر بالأوثان ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه قولوا : الله مولانا ، ولا مولى لكم .
- فقال أبو سفيان : (يوم بيوم بدر)^(١) .
- ليظهر أنهم انتصروا في معركة أحد وهو نوع مغالطة وزور ، إذ رجعوا إلى مكة بالرعب والفرع ، ثم قال أبو سفيان : يوم لنا ويوم علينا ، ويوم نساء ويوم نسر ، حنظلة بحنظلة ، وفلان بفلان^(٢) .

(١) ابن كثير / السيرة النبوية ٨١/٣ .

(٢) ابن كثير / السيرة النبوية ٨١/٢ .

ولم يكن يوم معركة أحد نصراً للمشركين فقد كان نصراً آخر للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ اعترفت قريش بأن النبوة والإسلام حقيقة قائمة وأن المسلمين ند لهم .

وأجابه رسوله الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا سواء ، أما قتالنا فاحياء يرزقون ، وقتلاككم في النار يعذبون^(١) .
وفي هذا القول مسائل :

الأولى : إنه من مصاديق إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا ، إذ أن إلقاء الرعب أعم من أن يأتي مباشرة بأمر من الله له لينفذ إلى قلوب المشركين ، إنما تكون أفراد منه بالأسباب والعلل الظاهرة ليبقى موعظة للأجيال ليكون كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم أعلاه من مصاديق لحوق الكبت والحسرة يومئذ بجيش المشركين بقوله تعالى ﴿أَوْيَكْبَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(٢) .

الثانية : مواساة الأنصار وقبيلة الأوس والخزرج لسقوط الشهداء منهم في معركة أحد .

وعن ابن إسحاق (شهداء أحد وتعدادهم بأسمائهم وأسماء آبائهم على قبائلهم كما جرت عادته .
فذكر من المهاجرين أربعة: حمزة ومصعب بن عمير وعبدالله بن جحش وشماس ابن عثمان ، ومن الانصار إلى تمام خمسة وستين رجلاً .

واستدرك عليه ابن هشام خمسة أخرى فصاروا سبعين على قول ابن هشام)^(٣) .

(١) ابن كثير / السيرة النبوية ٨١/٢٣ .

(٢) سورة آل عمران ١٢٧ .

(٣) ابن كثير / السيرة النبوية ١٠٤/٣ .

وعن ابن عباس أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يأتيهم فيها رزقهم بكرة وعشيا^(١).

الثالثة : إخبار النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن قانون وعلم من علوم الغيب بأن الشهداء الذين قتلوا وهم يدافعون عن النبي والتنزيل وأهل المدينة في الجنة يرزقون ، وأن الكفار المعتدين في النار ، وإخباره هذا مرة وتفسير للقرآن.

الرابعة : هل يدل هذا الحديث على عالم البرزخ الحياة فيه أم أن القدر المتيقن منه يوم القيامة ، المختار هو الأول ، فكما قال الله تعالى في آل فرعون ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾^(٢) ، وأن المراد حالهم في عالم البرزخ فكذا يجعل الله عز وجل المؤمنين في نعيم مدة أيام البرزخ ، نعم جاء حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصاً وفيه تذكير بعالم الحساب والجزاء .

الخامسة : الثناء على أهل البيت والصحابة الذين حضروا معركة أحد ، وتحملوا الأذى وأصابتهم الجراحات ، وفيه بلحاظ آية البحث دعوة للذين يحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا أن يتخذوا منهاج الحق ويظهروا البشارات النبوية كي يحمدا بما يفعلوا ويقولوا الصدق ، ويشكر لهم الناس هذا القول لما فيه من النفع الخاص والعام .

السادسة : لقد أراد الله عز وجل أن يرجع المشركون إلى مكة خائبين ، ومن مصاديق هذه الخيبة توديعهم لساحة المعركة بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم ، ومعناه على وجوه :

(١) عيون الأثر ١/ ٤٤٩ .

(٢) سورة غافر ٤٦ .

الأول : قتلَى المشركين السبعين في معركة بدر في النار ، ليكون من الإعجاز في قول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم التذكير يوم معركة أحد تحذ بوقائع معركة بدر ، وفيه بعث للكبت والخيبة والوهن في قلوب جيش المشركين ، ومنع من إدعائهم النصر والغلبة

الثاني : بيان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لقانون وهو قتلَى المشركين في معركة أحد وعددهم إثنان وعشرون في النار .

الثالث : إخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١) بأن قتلَى المشركين في المعارك اللاحقة في النار ، لزجرهم عن تجديد الهجوم على المدينة ، ومن هؤلاء عمرو بن ود العامري الذي قتله الإمام علي عليه السلام في معركة الخندق ، ونزل قوله تعالى ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾^(٢).

الرابع : زجر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن الإرهاب وعن الغزو وسفك الدماء ، فليس لقريش وفق الشريعة والأعراف السائدة آنذاك والقانون الدولي في هذا الزمان جمع الجيوش ، وغزو المدينة المنورة وإرادة قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

إن هجوم قريش في معركة بدر وأحد والخندق خلاف السلم ، وحماية حقوق الإنسان ، لذا جاءت آية البحث بصددهم عن تكرار الهجوم بحض أهل الكتب السماوية السابقة بالكشف عن البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإظهار ما توارثه علماء أهل

(١) سورة النجم ٣-٤.

(٢) سورة الأحزاب ٢٥.

الكتاب بهذا الخصوص ، وفيه دعوة للناس جميعاً للتصديق بمعجزاته العقلية والحسية ، والإمتناع عن نصرة قريش في إرهابها .
وهل الذي يظهر البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الذين يستحقون الحمد بهذا الإظهار والإقرار ، الجواب نعم .

الخامس : حينما يخبر المشركون أهل مكة بفقد المقتولين في الميدان يقترن معه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم قتلاكم في النار .

وإن قلت كيف يكون قول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هذا من مصاديق إرادة الله في المقام ، ومصادقاً لقوله تعالى ﴿فَتَقَبَّلُوا خَائِبِينَ﴾^(١) .

والجواب أن قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الوحي ، ومن مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٢) .

السابعة : إنذار الذين كفروا من العودة إلى ميدان القتال مرة أخرى ، فقد ثبت في الوجود الذهني عند كل واحد منهم أنه لو قتل فإن طريقه إلى النار ، لذا حينما هموا من وسط الطريق من معركة أحد بالرجوع للإغارة على المدينة سرعان ما تراجعوا عن هذا الهم وانصرفوا نحو مكة لبيان أن قوله تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾^(٣) ، حاجة للمسلمين والناس جميعاً ، وحرزاً

(١) سورة آل عمران ١٢٧ .

(٢) سورة النجم ٣-٤ .

(٣) سورة آل عمران ١٥١ .

من سفك الدماء ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾^(١) ، بتقريب أن المشركين لو أعادوا الكرة والهجوم على المدينة مع شدة جراحات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وكثرة الإشاعات وأسباب الإخافة في المدينة لصار ضرر على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

فمنع الله عز وجل هذا الضرر وصرف المشركين عن نية وفكرة الرجوع للإغارة على المدينة ، وكان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في جهاد في المقام فحينما سمعوا بعزم المشركين العودة للهجوم على المدينة خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم في طلبهم ومعه مائتان ونيف من أصحابه حتى وصلوا إلى حمراء الأسد ، وأقام فيها ثلاث ليال .

فسمع المشركون نبأ خروجه فأسرعوا العودة إلى المدينة ونزل قوله تعالى ونزلت آيات في الثناء على النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمهاجرين والأنصار الذين خرجوا معه ، وتخليد جهادهم هذا إذ قال تعالى ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾^(٢).

ولم يهاجر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة إلا بعد أن بقيت آيات وسور القرآن في مكة تعانق جبالها ، وتنادي بالذات في أوديتها ، لتكون على جهات :

(١) سورة آل عمران ١١١.

(٢) سورة آل عمران ١٧٢-١٧٤.

الأولى : هذه الآيات والسور ثروة وكنز .

الثانية : قانون كل سورة من السور المكية دعوة إلى الهدى والإيمان .

الثالثة : قانون السور المكية حجة للذين أسلموا وحض لهم للبقاء والثبات على الإيمان .

الرابعة : من خصائص السور المكية وإتصافها بالقصر ، دعوتها الناس للإيمان ، وإخبارها أنها نازلة من السماء ، وتزجر عن الشرك ومفاهيم الضلالة .

وهل كانت هذه السور تحذر المشركين من الخروج إلى معركة أحد ، الجواب نعم ، ومنها قوله تعالى ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾^(١) ، الْقِيَمَةِ ^(١) ، ومنها مثلاً ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾^(٢) .

ليتجلى هذا التضاد في معركة أحد ، ويحمل الذين كفروا أوزارهم على ظهورهم في الدنيا والآخرة .

ومضامين سورة قريش إنذار وتوبيخ للذين كفروا لأنهم قابلوا النعم الإلهية بالجحود وإنكار النبوة ، وتبين السورة أن الله عز وجل رزقهم الأموال والنعم لتكون وسيلة لعبادة الله ، وصيرورتهم أسوة في اتباع نهج أبيهم إبراهيم عليه السلام في مسالك التوحيد ، وبعث لهم النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لتستمر عليهم النعم والأمن داخل مكة وفي طرق القوافل والتي تبلغ مئات الكيلو مترات في عمق الجزيرة ورمالها المتحركة والقبائل التي لا تتورع من سلب

(١) سورة البينة ٥ .

(٢) سورة الزلزلة ٧-٨ .

ونهب الشاة والإناء الصغير فكيف بمن يرون قوافل قريش وكل واحدة تتألف من ألف بعير أو أكثر أو أقل محملة بالبضائع ، ومع هذا يسكون أيديهم وخيلهم عنها ، وهو من مصاديق قوله تعالى بخصوص نعمه على قريش ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾^(١).

ولكن رؤساء قريش حاربوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعادت جيوشهم بالخيبة والخسران ، ليكون من معاني قوله تعالى ﴿فَيَنْتَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(٢) ، خيبة قريش في ميدان القتال وفي تعطيل تجارتهم ، وانفاقهم الأموال الطائلة على الجيوش الغازية للمدينة ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾^(٣).

لقد كانت قريش تهدد وتتوعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من حين وصول فلول قريش من معركة بدر منهزمين. وكانوا يبعثون الرسائل مع المعتمرين ووفد الحاج الى المدينة بأنهم سيقومون بأمور :

الأول : الثأر من هزيمتهم في معركة بدر .

الثاني : اقتحام المدينة المنورة بجيوش جرارة من المشركين .

الثالث : قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وكان الإمام علي عليه السلام فارس بدر ، وأرادت قريش قتله وقتل حمزة بن عبد المطلب.

(١) سورة قريش ٤.

(٢) سورة آل عمران ١٢٧.

(٣) سورة الأنفال ٣٦ .

الرابع : إعلان قریش استعدادها للقتال ، وتهيئة مقدماته ، وجعل أخبار طوافها وتحريضها للقبائل تصل إلى المدينة شعراً ونثراً (فخرج أبو عزة في تهامة ، ويدعو بني كنانة ويقول
إيها بني عبد مناة الرزام ... أنتم حماة وأبوكم حام
لا تعدوني نصركم بعد العام ... لا تسلموني لا يحل إسلام
وخرج مسافع بن عبد مناف بن وهب بن حذافة بن جمح إلى
بني مالك بن كنانة ، يحرضهم ويدعوهم إلى حرب رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال

يَا مَالِ مَالِ الْحَسْبِ الْمُقَدِّم ... أَنشُدْ ذَا الْقُرْبَى وَذَا التَّذَمُّ
مَنْ كَانَ ذَا رُحْمٍ وَمَنْ لَمْ يَرْحَم ... الْحِلْفَ وَسَطَ الْبَلَدِ الْمُحَرَّمِ
عِنْدَ حَاطِمِ الْكَعْبَةِ الْمَعْظُمِ (١).

وكان وحشي بن حرب غلاماً لجبير بن مطعم ، وكان عمه طعيمة بن عدي قد قتل يوم بدر ، فلما سارت جيوش المشركين إلى معركة أحد .

(ودعا جبير بن مطعم غلاماً له حبشياً يقال له وحشي ، يقذف بحربة له قذف الحبشة ، فلما يخطئ بها ، فقال له أخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمي طعيمة بن عدي ، فأنت عتيق) (٢).

وكانت هند بنت عتبة تحرض وحشي في الطريق كلما مر عليها (أو مرت به تقول: ويها أبا دسمة اشف واشتف) (٣).

لتكون آية البحث من آيات إصلاح مجتمع المدينة عامة للدفاع وعدم الخرق من قبل المشركين بحضها أهلها على الشهادة لنبوة محمد

(١) الروض الأنف ٢٤٣/٣.

(٢) السيرة / لابن هشام ٦٠/٢.

(٣) ابن كثير / السيرة النبوية ٢١/٣ .

صلى الله عليه وآله وسلم وأنها حق وصدق ، وفيها دعوة لأهلها للذّب عنها وصدّ المشركين ، وأن الذي يريد أن يثنى عليه ويحمد يقوم بوظيفته في الدفاع عن النفس والعرض والمال ، وآية البحث ونحوها دعوة للمنافقين للعزوف عن النفاق والتخلص من خبث الباطن والسريرة .

المسألة الثانية : النسبة بين أول آية السياق وموضوع آية البحث عموم وخصوص مطلق ، إذ أخبرت آية السياق عن نزول الموت بكل إنسان وهو من سنن الإرادة التكوينية .

بينما أخبرت آية البحث عن قوم فرحوا بنبذ الكتاب وإخفاء البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشراء ثمن قليل بهذا النبذ والإخفاء لبيان أنهم سيموتون ويقفون للحساب بين يدي الله ، وذكرت آية البحث ما يلقون من العذاب الأليم .

وسواء إتخذ الإنسان الإيمان منهجاً أو ركب جادة الضلالة فانه لا بد أن يغادر الحياة الدنيا ، ويأتي الله بقوم وجيل جديد ، والله سبحانه هو الذي يتعاهد الإيمان في الأرض ، ولا يبقى بخصوص الأجيال السابقة إلا الشاء لأهل الإيمان ، والذم للذين كفروا ، وقد تأتي الآية بذكر قوم والمراد العلماء أو الرؤساء أو الوجهاء منهم وهو أحد معاني آية البحث كما أنها تشمل المنافقين ، ليتعظ الناس ، ويلجأون إلى المعجزات والواقع ، وما في تاريخ الأنبياء من البشارات والإنذارات .

ومن إعجاز القرآن عدم ذكره العقاب الأخروي الأليم إلا بعد بيانه لقبائح الأعمال التي يستحق صاحبها هذا العقاب ، وفيه دعوة للناس لأمر:

الأول : التحلي بالإيمان ، ونبذ الشرك بالله ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾^(١) .

الثاني : التصديق بالنبوات ، والتدبر بالمعجزات التي جاء بها الأنبياء.

الثالث : قانون الإخبار عن الحق واتباعه .

الرابع : قانون التنزه عن النفاق ومفاهيم الضلالة .

الخامس : الإمتناع عن كتمان صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونهي الذي يكتمها عن الفرح والغبطة بهذا الكتمان والإخفاء ، قال تعالى ﴿وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾^(٢).

المسألة الثالثة : من إعجاز القرآن أن كل آية منه هدى وإصلاح ، وحرب على الكفر والنفاق ، ومنه آية البحث.

و(عن أبي سعيد الخدري أن رجالا من المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانوا إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدا بما لم يفعلوا، فنزلت ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا﴾^(٣) ^(٤)).

(١) سورة النساء ١٧٠.

(٢) سورة الرعد ٢٦.

(٣) سورة آل عمران ١٨٨ .

(٤) تفسير البغوي ١٥٠/٢.

ولم يكن هناك منافقون قبل معركة بدر ، ولكن عندما أظهر الله عز وجل الإسلام بقوله تعالى ﴿وَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١) ، جمع قوم بين إعلان الإيمان وإخفاء الكفر نفوسهم ، وفيما بينهم .

فتراهم يحضرون صلاة الجماعة خلف النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ويخرجون في سرايا وكتائب الدفاع ولكنهم يضمرون الشك بالنبوة و ينتظرون مجئ الأذى والضرر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ويرجفون في المدينة ، ويحرضون إخوانهم في النسب والقراية من الأوس والخزرج على عدم الخروج إلى ميادين القتال ، وأراد المنافقون التغطية على سوء فعلهم ، وما يضمرون من سوء السريرة فآظهروا الفرح بما يفعلون فجاء القرآن لفضحهم وزجرهم عن النفاق.

وهل انتفعوا من الذم والفضح الوارد في آية البحث ، الجواب نعم ، فلا يعلم عدد الذين تابوا وهجروا النفاق بسبب هذه الآية والآيات التي تدم النفاق إلا الله عز وجل وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢) ، فمن رحمة الله عز وجل بالناس توبة الكافر ، وتوبة وصلاح المنافق ، وصيرورة سريته موافقة لعلايته.

المسألة الرابعة : جاءت آية السياق بقانون ﴿وَأِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٣) ، وتحتل جهة الخطاب في الآية وجوهاً :
الأول : إرادة خصوص الصحابة .

(١) سورة آل عمران ١٢٣.

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧ .

(٣) سورة آل عمران ١٨٥.

الثاني : المراد عموم المؤمنين والمؤمنات إلى يوم القيامة.
الثالث : مواساة الصحابة بقتلهم الذين سقطوا في معركة بدر وأحد.

الرابع : المراد الناس جميعاً.

والمختار هو الثاني أعلاه ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنَكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾^(١) ، إذ ورد لفظ الأجور في القرآن بصيغة الثناء والمدح ، ويلحق به الوجه الثالث بصيغة العموم في الآية أعلاه وأنها تشمل الأموات والأحياء من المسلمين الذين عملوا الصالحات من أيام أبينا آدم إلى يوم القيامة ، وفيه بلحاظ آية البحث ترغيب للذين أوتوا الكتاب وغيرهم لبيان الحق ، والكشف عن البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم واجتناب الإمتناع عن إعلانها ، وموالة ونصرة الذين يكتمون هذه البشارات .

إذ يصرف هذا الإجتنب كثيراً من الوقائع والحروب وسفك الدماء ، ويجعل الناس يحترزون ويمتنعون عن نصرة كفار قریش كيلا يلحقهم الخزي في الشتاتين.

لقد خاطبت آية البحث النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ وفيه مواساة له وللمسلمين ، وكشف لقبح فعل المنافقين والذين كفروا وانكروا رسالته ، فهم يتعمون في الدنيا ولكن العذاب الأليم ينتظرهم ، وفي إمهالهم وتركهم من غير عقاب في أيام من الدنيا بشارة ظهور ونصر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حتى مع عداء الكفار والمنافقين له.

لقد تضمنت آية السياق وعداً كريماً من عند الله بوفاء الأجور والثواب يوم القيامة ، وجاءت الآية بصيغة الجمع (أجوركم) وتحتمل وجوهاً :

الأول : الآية انحلالية ، وتقديرها في الخطاب للمنفرد وإنما توفى أجرك يوم القيامة ، كما في قوله تعالى ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

الثاني : إرادة صيغة الجمع في أجور كل واحد من المؤمنين والمؤمنات ، ويكون تقدير الآية : فانما توفى أجورك يوم القيامة . ولا تعارض بين الوجهين بلحاظ أن صيغة المفرد (أجرك) يراد منه (الجنس) ومن خصائص الأجر من عند الله أنه أضعاف الفعل ، لقوله تعالى ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَلًا﴾^(٢).

وهل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين أجر في الأذى الذي يلاقونه من المشركين بخصوص مضامين آية البحث ، الجواب نعم ، فيأتي الأجر والثواب للمسلمين من وجوه :

الأول : قانون الصبر على سماع الأذى من المشركين ، وحال التبخر والزهد التي هم فيها.

الثاني : قانون التحلي بالصبر في ملاقات أذى المشركين .

الثالث : الثبات على الإيمان مع تلقي الأذى .

الرابع : قانون تلاوة آيات القرآن في الصلاة وخارجها.

وكما أن القرآن نزل على نحو التدريج والتوالي مدة ثلاث وعشرين سنة من حين بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى

(١) سورة البقرة ١١٢.

(٢) سورة الأنعام ١٦٠.

أوان مغادرته الحياة الدنيا إلى الرفيق الأعلى ، فان الناس لم يدخلوا الإسلام دفعة واحدة .

ولم يحدث في تأريخ البشر أن استجاب الناس جميعاً لنبي أو رسول من الرسل .

فان قلت حتى في آدم الذي ليس في الأرض يومئذ إلا أولاده وأحفاده ، الجواب نعم ، إذ يدل قول هاييل ﴿ إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ ﴾^(١) ، في مفهومه على أن قابيل ليس من المتقين بدليل أنه قام بقتل أخيه ظلماً .

المسألة الخامسة : ابتدأت آية السياق بالإخبار عن اختتام حياة كل انسان بالموت على نحو الحتم والقطع ، ومن إعجاز القرآن والسنة النبوية عدم تحديد متوسط لعمر الإنسان أو حد أعلى له .

بل جاءت النصوص عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بطول عمر بعض الأنبياء كما في آدم عليه السلام وأنه عاش تسعمائة وستين سنة ، وبعد أن أهدى من عمره لداود النبي أربعين سنة ، ولكن ورد عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : كان عمر آدم ألف سنة ، وكان عمر داود ستين سنة . فقال آدم : أي رب ، زده من عمري أربعين سنة . فأكمل لآدم ألف سنة وأكمل لداود مائة سنة^(٢) .

وهذا الخبر من مصاديق عالم الذر والوقائع التي حدثت فيه إلى جانب العهد والميثاق الذي أخذه الله سبحانه يومئذ على الناس .

وهل فيه إشارة إلى ما يأتي به العلم الحديث ، والإرتقاء في الطب والتكنولوجيا باطالة عمر الإنسان ، وبإصلاح أعضائه وبدنه

(١) سورة المائدة ٢٧ .

(٢) الدر المنثور ٨٠/٧ .

بما يجعل عمره ضعف ما هو عليه الآن ، الجواب نعم ، إن شاء الله عز وجل .

وبينت آية السياق الأهم في حياة الإنسان وأنه ليس طول العمر إنما التدبر والسعي للنجاة من العذاب الأليم الذي ذكرته آية البحث ، لذا قال تعالى في آية السياق ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ﴾^(١) ، وفيه ثناء على الصحابة الذين قتلوا في معركة بدر وأحد ومواساة لأهلهم بأنهم وإن إنخرم عمرهم وانقطعت أيامهم في الدنيا إلا أنهم فازوا بالتنحية عن النار ، والنجاة منها .

وهل يتضمن قوله تعالى ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ﴾^(٢) ، الإستثناء من عموم قوله تعالى ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَتَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾^(٣) ، الجواب لا ، لدلالة الآية أعلاه على نجاة الذين اتقوا بقوله تعالى ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَتَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾^(٤) ، مما يدل على ورود عموم المتقين إلى النار ، ولكنهم لا يدخلونها وقيل يدخلونها وهي خامدة ، وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام (في قوله ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾^(٥) ، قال: أما تسمع الرجل يقول: وردنا ماء بني فلان ، فهو الورد ولم يدخل) ^(٦) ، أي الإشراف عليها من غير دخولها ، ويدل

(١) سورة آل عمران ١٨٥ .

(٢) سورة آل عمران ١٨٥ .

(٣) سورة مريم ٧١-٧٢ .

(٤) سورة مريم ٧٢ .

(٥) سورة مريم ٧١ .

(٦) البحار ٢٩٢/٨ .

عليه حديث الإسراء الطويل ، ورؤية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للنار وشدة لهيب حرها ، إذ ورد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال (ثم جاوزنا فمررنا بملك آخر ما رأيت من الملائكة خلقاً مثله عابس الوجه كرىه المنظر شديد البطش ظاهر الغضب،

فلما نظر رغبت منه شيئاً وسألته فقلت : يا جبرئيل من هذا؟
فإني رعبت منه رعباً شديداً قال : فلا تعجب أن ترعب منه
كلنا بمنزلتك في الرعب منه،

هذا مالك خازن النار لم يتبسم قط ولم يزل منذ ولّاه الله عز وجل جهنم يزداد كل يوم غضباً وغيظاً على أعداء الله عز وجل وأهل معصيته لينتقم منهم،

قلت : ادني مني . فأدني مني فسلم عليه جبرئيل فلم يرفع رأسه فقال جبرئيل : يا مالك هذا محمد رسول العرب فنظر الي وحياني وبشرني بالخير. فقلت : مذكّم أنت واقف على جهنم؟

فقال : مذ خلقت حتى الآن وكذلك إلى أن تقوم الساعة فقلت : يا جبرئيل مره ليرني طرفاً من النار فأمره ففعل فخرج منه لهب ساطع أسود معه دخان مكدر مظلم إمتلأ منه الآفاق فرأيت هولا عظيماً وأمرأً فظيماً أعجز عن صفته لكم فغشي عليّ وكاد يذهب نفسي ، فضممني جبرئيل وأمر أن يرد النار فردّها) (١).

وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أول خصمين يوم القيامة جاران .

وأخرج البزار عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يجاء بالأمير الجائر فتخاصمه الرعية (٢).

(١) الكشف والبيان للثعلبي ٥٨/٧.

(٢) الدر المنثور ٥١/٨ .

لقد جمعت آية السياق بين أمور :

الأول : قانون مجئ الموت لكل إنسان ، وفيه توطئة وإخبار عن موت أو قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن إعجاز القرآن مجئ أكثر من آية في الموضوع المتحد وذات الآية تتضمن مواضع متعددة.

إذ وردت آيات بهذا الخصوص منها قوله تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^(١).

وهل كانت جراحات النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم معركة أحد من هذه التوطئة ، الجواب نعم ، فكما أن معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عقلية وحسية فكذا الشواهد التي تتعلق بشخصه كنبى رسول من عند الله عز وجل .

الثاني : قانون تحقق الجزاء والثواب على الأعمال ، ولا بد أن يكون هذا الجزاء جلياً ، وقد وعد الله عز وجل أن يكون الثواب على العمل الصالح أضعافاً مضاعفة ، وهو الذي يتحقق في عالم الآخرة.

الثالث : قانون من الثواب الذي يتفضل به الله عز وجل زحزحة وإبعاد العبد عن النار ، وقد تقدم أنه لم يرد لفظ ﴿زُحْزِحَ﴾ في القرآن إلا في آية السياق .

الرابع : قانون دخول المؤمنين الجنة ، فلا يتركهم الله عز وجل بين الجنة والنار ، ومن فضل الله تعالى أنه يعطي بالأتم والأوفى ،

فيبعد المؤمنين عن النار ، ويدخلهم الجنة ، وليس من فترة بين الأمرين .

ليان قانون من عالم الآخرة وهو تعدد مواطن الحساب ، ومراحل النجاة ، وأما المؤمن فينجو أولاً من النار ، ويطمئن لسلامته من الدخول فيها ، وأن الملائكة الذين يسوقون الكفار من أمامه وعن يمينه وشماله لن يأتوا لأخذه معهم ، وهذه السلامة من أعظم النعم ، وهي من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١) ، إذ يزول الخوف بالبشارة بالزحزحة من النار، ولا بد من علامة فاصلة في ساحات الحساب تجعل المؤمن يطمئن لزحزحته عن النار مثل ثقل كفة الصالحات ، ورجحانها على كفة السيئات ، قال تعالى ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢).

المسألة السادسة : لقد أخبرت آية البحث عن شدة العذاب الذي يلقاه الذين نبذوا أخبار وبشارات النبوة وراء ظهورهم ، ويفرحون بعدائهم للنبوة والتنزيل ، وأخبرت آية السياق عن إمكان النجاة من النار ، بقوله تعالى ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾^(٣) ، لبيان قانون وهو ينجو الإنسان من النار إلا بفضل الله عز وجل من جهات :

(١) سورة البقرة ٢٧٧.

(٢) سورة الأعراف ٨ .

(٣) سورة آل عمران ١٨٥.

الأولى : الهداية إلى الإيمان ، وفي التنزيل ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١) ، لذا يتلو كل مسلم ومسلمة سبع عشرة مرة في الصلاة الواجبة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢).

الثانية : قانون مضاعفة الله عز وجل لحسنات العبد ، وجعلها تنمو وتزداد مع تقادم الأيام والسنين ، ومع إقتباس الناس منه واقتدائهم به .

الثالثة : قانون أداء الفرائض والعبادات بقصد القربة إلى الله عز وجل ، قال تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(٣).

الرابعة : قانون الإمتناع عن إرتكاب المعاصي والسيئات ، إذ أنها طريق إلى النار ، وبرزخ دون دخول الجنة.

الخامسة : قانون لزوم التحلي بالتقوى والخشية من عند الله عز وجل.

المسألة السابعة : لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار الزحزحة عن النار ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٤) ، فان قلت هل بشارة الزحزحة من النار مختصة بالبعثة النبوية وما بعدها ، الجواب لا ، لقانون وهو كل بعثة نبي لطف وهبة عامة للناس للزحزحة والإبعاد من النار.

وفيه دعوة للناس لحب الأنبياء وتصديقهم واجتناب تكذيبهم أو الإفتراء عليهم ، لا سيما وأن كل نبي يأتي بمعجزة تدل على أنه مبعوث من عند الله لزحزحة الناس من النار ، ومنعهم من الفرح بما

(١) سورة البقرة ٢١٣.

(٢) سورة الفاتحة ٦.

(٣) سورة البينة ٥.

(٤) سورة الأنبياء ١٠٧.

يفعلون خلاف الحق ومن رجاء الحمد بما لم يفعلوا ، لبيان قانون وهو إزالة آية البحث العوائق دون الزحزحة من النار .

ليتجلى قانون وهو (لاتحسين) رحمة من عند الله بالناس ، ليجاهد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون في دفع ورفع الأسباب التي تمنع زحزحة الناس من النار ، خاصة وأن هذه الأسباب ذاتية تتعلق بالناس وأفعالهم .

ولم يرد لفظ (فقد فاز) في القرآن إلا مرتين ، إحداهما في آية السياق ، والأخرى قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(١).

ومن إعجاز القرآن ما يدل عليه الجمع بين الآيتين في بيان طريق النجاة والزحزحة عن النار بطاعة الله ورسوله ، وتأکید مضامين آية البحث بأن الذين يرغبون بأن يحمداوا باعراضهم عن التصديق بمعجزات النبوة ، وعزوفهم عن الأوامر والنواهي الإلهية يجرمون من نعمة الزحزحة من النار ، قال تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ﴾^(٢).

وتدل الآية أعلاه على كون (ويل) كلمة وعيد وعذاب ونزول الشر وهو مصدر ، ليس له فعل وهو لا يتعارض مع إفادتها معنى آخر محسوساً ، من وجوه :

الأول : عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ويل وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعر^(٣).

(١) سورة الأحزاب ٧١.

(٢) سورة ص ٢٧.

(٣) الدر المنثور ١/١٤٩.

الثاني : عن عثمان بن عفان عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الويل جبل في النار^(١).

الثالث : عن سعد بن أبي وقاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن في النار حجراً يقال لها ويل يصعد عليه العرفاء وينزلون فيه^(٢).

الرابع : عن الإمام علي عليه السلام : الويح والويل بابان . فأما الويح فباب رحمة ، وأما الويل فباب عذاب^(٣).

الخامس : عن عبد الله بن مسعود قال : ويل وادٍ في جهنم يسيل من صديد أهل النار^(٤).

والصديد القيح المنتن ، والدم .

ومن معاني الجمع بين آية البحث وآية السياق صرف الناس عن المعاصي التي تقود صاحبها إلى العذاب الأليم في الآخرة ومنها ما ذكرته آية البحث باخفاء البشارات بالنبى محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتعضيد الذين يحاربونه ، وبالفرح يهنوا الإخفاء ونحوه.

المسألة الثامنة : ابتدأت آية السياق بذكر قوانين من الإرادة التكوينية منها العام :

الأول : قانون كل نفس ذائقة الموت.

الثاني : قانون الوعد بوفاء الأجر والثواب .

الثالث : أوان الوفاء على شعبتين :

الأولى : في الدنيا .

(١) تفسير الطبري ٢/ ٢٦٨ .

(٢) الدر المنثور ١/ ١٤٩ .

(٣) الدر المنثور ١/ ١٤٩ .

(٤) الدر المنثور ١/ ١٤٩ .

الثانية : في الآخرة ، وفيها الجزاء الأبدي ، قال تعالى ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾^(١).

والمراد من (يوم القيامة) في الآية أعم من دخول المؤمنين الجنة ، إذ يبدأ وفاء الأجور من حيث البعث من القبور ، ويصاحب المؤمنين في مواطن الحساب وعند الخوض والميزان والعبور على الصراط ، لذا تضمنت الآية بعد ذكر وفاء الأجور يوم القيامة جملة شرطية ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾^(٢).

والجملة الشرطية مركبة من جملتين بينهما نوع ملازمة وتعاقب إذ أنهما مسبوقتان بأداة شرط ولا يتم معنى الأولى إلا بالثانية . وتسمى الجملة الأولى جملة الشرط ، والثانية جملة جواب الشرط ، ترى لماذا جاءت الجملة بصيغة الماضي ، ولم تقل فمن يزحزح عن النار، الجواب من وجوه :

الأول : الآية حكم.

الثاني : شمول الآية الناس جميعاً من أيام أينا آدم ، قال تعالى ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٣).

المسألة التاسعة : لقد ابتدأت آية البحث بالخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع الوعيد للكفار والمنافقين ولا ينحصر هذا الوعيد بذكر نار جهنم إنما أخبرت الآية عن العذاب الأليم الذي ينتظرهم وفيه مسائل :

الأولى : إنه زيادة في التخويف والوعيد.

(١) سورة العنكبوت ٦٤.

(٢) سورة آل عمران ١٨٥.

(٣) سورة البقرة ٣٨.

الثانية : فيه وزجر عن ارتكاب المعاصي والإقامة عليها.

الثالثة : إنه دعوة إلى الهداية والصلاح.

وابتدأت آية السياق بالإخبار عن عاقبة كل إنسان في الدنيا وهو الموت .

ومن إعجاز القرآن عدم وقوفه عند ذكر الموت إذ ذكرت آية السياق يوم القيامة ووفاء الأجور والثواب للمؤمنين يومئذ مما يدل على التكامل في لغة البشارة والإنذار في القرآن ، وإقامة الحجة على الناس ، وهدايتهم إلى سبل الرشاد والفلاح .

لقد أراد الله عز وجل لقريش وغيرهم التصديق برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فانزل عليه آيات القرآن وهي معجزة عقلية وجرت على يديه معجزات حسية متعددة ، ولكن قريشاً حاربوه وجهزوا عليه الجيوش ، وقام قوم بالسخرية والإستهزاء بالنبوة ، وكان المنافقون إذا خرج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في كتيبة تخلف أكثرهم عنه ، وأظهروا الإعراض أو الإنشغال بأمورهم .

حتى إذا خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم أشاعوا تعرضه وأصحابه للمخاطر والقتل ، ويكون وقع هذه الإشاعات شديداً على أسر وعوائل الأنصار .

ثم إذا ما عاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه سالمين جاء المنافقون يعتذرون منه ، وهل يقبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم اعتذارهم ، الجواب نعم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿هُوَ

أَذْنُ قُلْ أَذْنُ خَيْرَ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).

أي يسمع ما يقال له ، ويظهر التصديق بالإعتذار وإن كان كذباً ، ومن أسباب نزول الآية أعلاه أن رهطاً من المنافقين اجتمعوا وأراد بعضهم أن يقع بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويفتري عليه ، فنهاه بعضهم مع الاختلاف في علة هذا النهي ، إذ قال بعضهم : إنا نخاف أن يبلغ محمداً ما تفترون عليه فيأتيهم الدم والتوبيخ منه ومن الصحابة ولكنهم أجابوا بأن محمداً أذن لحلف له وتبرأ من الإفتراء فيصدق بنا فنزلت الآية.

وجاءت الآية أعلاه بصيغة التبعيض بحرف الجر (من) في ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذِنُ النَّبِيَّ﴾^(١) ، لذا ذكر أن الآية (نزلت في حزام بن خالد ،

والجلاس بن سويد ،

ولياس بن قيس ،

ومخشي بن خويلد ،

وسمّاك بن يزيد ،

وعبيد بن هلال ورفاعة بن المقداد ،

وعبيدة بن مالك ،

ورفاعة بن زيد ،

كانوا يؤذون النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويقولون ما لا

ينبغي .

فقال بعضهم : لا تفعلوا ما يقولون فيقع بنا .

فقال الجلاس : بل نقول ماشئنا .

ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول : فإنما محمد أذن سامعة فأنزل الله هذه الآية.

وقال محمد بن إسحاق عن يسار وغيره نزلت في رجل من المنافقين يقال له : نهشل بن الحرث، وكان حاسر الرأس أحمر العينين أسفح الخدين مشوه الخلقة، وهو الذي قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: من أراد أن ينظر الى الشيطان فليُنظر إلى نهشل بن الحرث^(١).

الثالث : قرب الجزاء ، إذ يبدأ جزاء الإنسان من حين مفارقتها الدنيا ودخوله القبر ، قال تعالى ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَرَأَوْهُ قَرِيبًا﴾^(٢) وكل ما ما هو آت قريب .

(عن أبي سعيد الخدري قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمنين حتى يكون أخف عليهم من صلاة مكتوبة تصلّيها في الدنيا.

وقال إبراهيم التيمي : ما قدر ذلك اليوم على المؤمن إلا كما بين الظهر والعصر)^(٣).

المسألة العاشرة : ابتدأت آية السياق بما ينفي الخلود في الدنيا عن الأنبياء ، ويمنع من الإرتداد عند وفاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وجاءت آيات أخرى صريحة المعنى ، قال تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَتَلْبِسُكُمْ عَلَى أَغْصَابِكُمْ

(١) الكشف والبيان ١٦٩/٦.

(٢) سورة المعارج ٦-٧.

(٣) الكشف والبيان ٣٦٨/١٣.

وَمَنْ يُثْقَلْ عَلَى عَقَبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١﴾ .

لقطع الطريق على المنافقين والكفار الذين كانوا ينتظرون وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لإظهار ما يخفون من الكفر ، ويطعنون بالنبوة ويقولون لو كان نبياً ما مات ، وهذا عيسى عليه السلام لم يمت ، وهل يشمل قوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (٢) الجواب نعم .

وتبعث الآية السكينة في قلوب المسلمين بأن الذين يفترون على النبوة والتنزيل سيأتيهم الموت وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ، وهل هذه الشهادة من مصاديق العذاب في قوله تعالى ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ (٣) الجواب نعم .

وهل آية البحث من هذا العذاب أم أن القدر المتيقن هو إخبارها عن العذاب الأليم ، المختار هو الأول لما فيها من أمور :

الأول : توجه الخطاب من الله عز وجل إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بدفع الظن بنجاة الكفار من النار .

الثاني : نفي الظن غير المعبر والذي لا يصح التعويل عليه ، ليحل بدله ببركة آية البحث الحجة والبرهان في ذات الموضوع ، سواء كانت الحجة موافقة للظن والأمانة أو غير موافقة ، وجاءت في الآية من الأخير للنهي عن الظن بأن المنافقين والكفار ينجون من العذاب الأليم .

(١) سورة آل عمران ١٤٤ .

(٢) سورة العنكبوت ٥٧ .

(٣) سورة آل عمران ١٨٨ .

الثالث : إخبار آية البحث عن ظلم الذين كفروا لأنفسهم بسوء إختيارهم الضلالة ، ومن أفرادها حبس وكتمان البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن وجوه تقدير الآية : يا أيها النبي لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا من إنكار النبوة والمعجزات وكتمان البشارات برسالتك .

الشعبة الثانية : صلة آية البحث بالآية المجاورة التالية ، وهو قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١) وفيه مسائل :

المسألة الأولى : آية السياق وثيقة سماوية وقانون ثابت في كل زمان ، فالله عز وجل خالق كل شئ ورازقه ، ومدبره ، ومن مصاديق دعوة الملائكة والإنس والجن لعبادة الله أن كل خلق خلقه الله عز وجل بأحسن هيئة وصورة وإستدامة في الوجود والحركة ، إلى الأجل الذي يريده الله .

وهل هذا الأجل ثابت لا يقبل التغيير والتبديل ، الجواب لا ، لقوله تعالى ﴿يَخُودُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٢) والله عز وجل يعلم الأجل بالأصل ، وتعين أوانه ، والذي يقبل التغيير والذي يطرأ عليه التغيير وأسباب هذا التغيير .

ومن لطف الله عز وجل تقريب التغيير أو عدمه بالنسبة لأجل الإنسان بما ينفعه في النشاطين ، ويحجب عنه العذاب أو شدته ، ومنه آية البحث فهي رحمة عامة للناس ودعوة لإصلاح الإنسان لأجله ، وبما ينفعه بعد الأجل .

(١) سورة آل عمران ١٨٩ .

(٢) سورة الرعد ٣٩ .

وقد أخبر الله عز وجل بامتناع الشريك له ، وليس له زوجة أو ولد فهو المنفرد بالربوبية ، وليس من الخلق إلا وهو ممكن الوجود ، ويحتاج لرحمة الله في خلقه وبقائه ، واختص الإنسان بأمور:

الأول : نفخ الله عز وجل من روحه في آدم .

الثاني : خلق آدم أبي البشر وحواء أمهم في الجنة ، ولبثهما فيها برهة من الزمن .

الثالث : خلافة الإنسان في الأرض ، فمع منزلة الملائكة وأنهم عقول بلا شهوة ، وعظيم خلقهم من جهة الطول والعرض وكثرة الأجنحة وسرعة الحركة ، فأنهم لم ينالوا مرتبة الخلافة في السماء ولا في الأرض ، ولا في الفضاء الذي بينهما .

وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾^(١) وإن كان معنى هذه الآية أعم كما بيناه في الأجزاء السابقة ، وأن مراد الملائكة التضرع إلى الله عز وجل في جعل عمل الناس كله يتصف بالصالح والتقوى .

لقد أراد الملائكة أن يكون عمل الناس في الأرض مرآة لتسيحهم وإنقطاعهم للذكر .

الرابعة : فضل الله عز وجل بتوالي بعث الأنبياء وانزال الكتب السماوية ، فان قيل قد انقطع الوحي وانزال الكتب منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة من حين انتقال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى .

والجواب هذا صحيح ، ولكن القرآن بقى وثيقة النبوة ، والداعي السماوي إلى الله ، فهو كلامه الذي لا يأتيه التحريف أو التبديل ، قال تعالى ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾^(٢) .

(١) سورة البقرة ٣٠ .

(٢) سورة فصلت ٤٢ .

وكل آية من القرآن رحمة ودعوة للناس للإيمان والصلاح ،
ونبذ الكفر ومفاهيم الضلالة ، ومنه آية البحث ، وكذا كل معجزة
للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم رحمة للناس جميعاً والمسلمين
خاصة .

الخامسة : جهاد الأنبياء والمؤمنين في سبيل الله ، وتعاهد
الفرائض العبادية ، وهدم مفاهيم الكفر ، وإزاحة عبادة الأوثان عن
الأذهان والمجتمعات .

السادسة : لقد جعل الله سبحانه الحياة الدنيا الوعاء المكاني
والزمني لعمل الصالحات وجني الحسنات ، والإتصاف بالأخلاق
الحسنى .

السابعة : حضور المشيئة الإلهية في نصرة الحق ، والذب عن أهل
الإيمان ، وفي دحر الباطل من يوم هبوط آدم إلى الأرض ، وإلى
أوان النفخ في الصور ، وفي التنزيل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ
آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾^(١).

وهل يختص هذا الدفاع بصرف غوائل وكيد الكفار ، الجواب لا
، لأصالة الإطلاق فيشمل دفع أذى المسلمين بعضهم عن بعض
حتى داخل بيوتهم وأسرهم ، لذا جاء القرآن بالتأكيد على بر
الوالدين والعناية بهم ، وعلى لزوم حسن تربية الأبناء ووراثتهم
الصلاة والفرائض العبادية ، ومن معاني (يدافع) صرف الآفات
والنوازل ، وهل منه رفع المرض تدريجياً أم دفعة فقط ، الجواب هو
الأول .

لذا ورد على لسان إبراهيم عليه السلام في التنزيل ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾^(١).

الثامنة : حشر الناس في عالم البرزخ والقبر إلى حين البعث والنشور ، ومنهم من يكون قبره روضة من رياض الجنة ، ومنهم من يكون قبره حفرة من حفر النيران .

المسألة الثانية : لقد ورد ذكر اسم الجلالة في آية السياق مرتين ، ويفيد موضوع كل واحدة منهما الإطلاق في عظيم صنع الله عز وجل ، وأنه على كل شئ قدير ، مما يدل بالدلالة التضمنية على خضوع الأشياء كلها له سبحانه .

ومن عظيم خلق الله عز وجل خلقه السموات والأرض وتعاهده لها ، ولا يقدر على حفظها وانظمتها الخارقة للعقول إلا الله عز وجل ، قال تعالى ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(٢).

وقد أودعها الله عز وجل خزائن وكنوزاً ، وجعل الملائكة حفظة من غير أن يتعارض هذا الحفظ مع إنقطاعهم إلى التسبيح والذكر .

واسم الجلالة اسم لله عز وجل ولم يسم به غيره ، وهو الخالق والمعبود ، وقيل هو الاسم الأعظم ، قال تعالى ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي

السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾^(٣) ، وذكر اسم الجلالة في القرآن (٢٦٩٩) مرة .

وذكرت البسملة في القرآن (١١٤) مرة ، وتبدأ بها كل سورة من القرآن باستثناء سورة التوبة ، وقد تفضل الله عز وجل وذكر

(١) سورة الشعراء ٨٠ .

(٢) سورة يس ٤٠ .

(٣) سورة الأنعام ٣ .

البسمة في سورة النمل لبيان جزئيتها من القرآن ، قال تعالى ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِإِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾^(١).

ومنع الاختلاف بين المسلمين بهذا الخصوص لما في هذا الاختلاف من الحرمان من منافع عظيمة للبسمة والإنشغال عند التدبر في معانيها ودلالاتها .

المسألة الثالثة : أخبرت آية البحث عن العذاب الأليم الذي يلقيه الذين يؤذون النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم سراً وعلانية ، وفضحت ما يخفون من العداوة للرسالة السماوية والكتاب النازل من عند الله ، وكيف يأتي لهم العذاب وهم منعمون في الدنيا.

فنزلت الآية التالية لتخبر بأن السموات والأرض كلها لله عز وجل ، وهو يفعل ما يشاء لا تستعصي عليه مسألة ، ومنها نشور الناس وجمعهم في أرض الحشر يوم القيامة ، ونزول العذاب بالكافرين والذين يؤذون شخص النبي بغير حق ، وإن كان الذين يفرحون بما أتوا من الباطل يطمعون بالمنافع والربح من وراء هذا الفرح فقد قطعت آية السياق هذا الطمع إذ أخبرت بأن مقاليد الأمور كلها بيد الله عز وجل ، وهو الذي يرزق الناس ، وفي التنزيل ﴿ وَاللَّهُ يُرْزِقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(٢) ، أي بما يفوق العد والحساب.

وعن (ابن عباس : يعني كثيراً بغير فوت ولا (هنداز) لأن كل ما دخل عليه الحساب فهو قليل)^(٣).

ولكن لا ملازمة بين ما يحسب وبين القليل ، فقد يكون الذي يحسب ويحصى كثيراً لبيان أن رزق الله عز وجل أكثر من الكثير

(١) سورة النمل ٣٠.

(٢) سورة البقرة ٢١٢.

(٣) الثعلبي / الكشف والبيان ٤١٨/١.

وهناك معاني أخرى لقوله تعالى ﴿بَغْيَرٍ حَسَابٍ﴾ منها بغير تبعة ولا يحاسب في الآخرة ، ولا يقال لم أعطيت هذا.

ليكون من أسرار مجئ آية السياق وما فيها من الإخبار عن الملكية المطلقة لله عز وجل للسماوات والأرض احتمال التضييق في الرزق والمنافع على الذين كفروا والمنافقين ، بلحاظ معاني الإنذار في آية البحث .

وهل من هذا الملك منع إستدامة الفرح عندهم أم أن المراد هو الملك المادي الحسي وحده ، الجواب هو الأول ، ليكون من معاني الآية الإنذار والوعيد لهم ، وقد تحقق هذا المنع وبسرعة بفضل الله .

فقد أصاب الذين كفروا الحزن عندما انتصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في معركة بدر، ونشأت طائفة المنافقين ، ولكنهم عندما وقعت معركة أحد صاروا يرجفون في المدينة ويتظنون هجوماً عاماً من قريش على المدينة المنورة لإستئصال الإسلام .

وتبادلوا الرسائل مع كبار رجالات قريش ، ومنهم من ذهب إلى مكة بذريعة العمرة أو التجارة واتصل بقريش وأظهر انكاره لنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنشد الأشعار في التحريض عليه وربما كان يقول في المدينة أنه الرسول الذي بشر به الأنبياء السابقين ليكون اتصالهم هذا من معاني آية البحث فهم يفرحون بما أتوا وأخبروا به قريش من إنكار النبوة ، ويجبون أن يحمدا على إظهارهم التصديق بالنبوة وهم في المدينة حينما رأوا انتصارات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، وازدياد عدد المسلمين والمسلمات ، وتنامي الهجرة ، وكثرة الصحابة الذين قدموا من مكة ومن القرى ويسكنون الصفة بجوار المسجد ، ويحضرون الصلوات الخمس ، وهم مستعدون للدفاع عن النبوة والتنزيل .

وهل هو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَبُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَبَجَعَلَهُمْ أَتَمَّةً وَبَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ^(١) أم أن الآية تتعلق ببني اسرائيل ونجاتهم من فرعون وجنوده أم لم يكن أوانها ، وأنها تخص ايام الإمام المهدي من آل محمد .
المختار هو الأول ، وموضوعها لا ينحصر بالإمام عليه السلام .

المسألة الرابعة : لقد أخبرت آية السياق بقوله تعالى ﴿وَلَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ^(٢) عن قوانين منها :

الأول : قانون الله خالق السموات والأرض .

الثاني : قانون لا يقدر على خلق السموات والأرض إلا الله .

الثالث : إرادة الإطلاق في ملك الله عز وجل ، وأنه سبحانه يملك ما بين السموات والأرض من الفضاء والهواء ، وفي آية أخرى قال تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ^(٣) .

وتبارك أي تقدس وتعالى ، وتوالت نعمه ، وخيره ، وهل تدل الآية أعلاه على وجود نعم ورزق وخير في الفضاء الذي بين السماء والأرض .

المختار نعم ، وهو الذي سيظهره الإرتقاء التقني والصناعي الحديث والتطور في الإختراع والإكتشافات المتعاقبة .

الرابع : قانون قدرة الله على كل شئ إيجاباً ، وتبديلاً ، وإعداماً ، واستحداثاً ، وعند موت الإنسان كيف أن الله عز وجل يبعثه من جديد للحساب والجزاء .

(١) سورة القصص ٥.

(٢) سورة آل عمران ١٨٩.

(٣) سورة الزخرف ٨٥.

المسألة الخامسة : في آية السياق وبلحاظ آية البحث البشارة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين بتغيير حال الذين يخفون العداوة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن ما لا يظهرون نحو التوبة ، وأن الله عز وجل قادر على تبديل سرائرهم إلى حال حسن ، لذا أمرت الآية قبل السابقة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بالصبر والخشية من الله ، وقال سبحانه ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(١) .

وقلوب العباد بيد الله عز وجل ، وهل هو من ملكه للسموات والأرض أم أنه بدليل وحكم آخر ، الجواب لا تعارض بين الأمرين ، إذ أن ملك الله عز وجل للأشياء ، وعامة الخلائق ملك تصرف وتدبير ، ومنه القلوب ، بما يثبت عقيدة التوحيد في الأرض ، ومثلاً دخل المغول غزاة إلى البلاد الإسلامية ، فما لبث أمراؤهم حتى دخلوا الإسلام ، ولا يعلم الذين تابوا من المنافقين والذين تذكروهم آية البحث إلا الله عز وجل ،

(عن النّوّاس بين سمعان سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : الميزان بيد الرحمن . يرفع أقواماً ويضع آخرين إلى يوم القيامة ، وقلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن . إذا شاء أقامه ، وإذا شاء أزاغه ، وكان يقول : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)^(٢) .

ومن معاني الجمع بين آية البحث وآية السياق استدامة العز للمؤمنين ، ولا يلقي الكافرون إلا الوهن والضعف ، قال تعالى

(١) سورة آل عمران ١٨٦ .

(٢) الدر المنثور ٣/٢٨٧ .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾^(١).

المسألة السادسة : من معاني بيان آية السياق الإطلاق والعموم في ملك الله عز وجل ، والإخبار عن عجز الذين كفروا عن التغيير والتبديل في الخلق ، وفي مسار الحياة الدنيا ، فقد أرادها الله عز وجل أن تكون وعاء ومحلاً لعبادته من غير ممانعة أو مدافعة من أحد ، لأن كل شئ ملك لله عز وجل .

ومن خصائص هذه الملكية الإنقياد التام لله عز وجل ، وهذا الإنقياد لصالح الناس جميعاً طوعاً أو قهراً ، وجعل مفاهيم الكفر والضلالة عند حد لا تتجاوزه ، وهو من مصاديق رد الله عز وجل على الملائكة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢) لإعانة المؤمنين في إزاحة مفاهيم الكفر عن الأرض ، وقد ورد في قوله تعالى ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ إِنِّيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(٣) للدلالة على خضوع وإنقياد المخلوقات لله عز وجل .

فجاءت آية البحث لهداية الذين يفرحون بإخفاء حقائق التنزيل التأريخية إلى إظهارها حسب ما تم توارثها ، وما ورد في الكتب السماوية السابقة ، ولإنذارهم وزجرهم عن محاربة النبوة والتنزيل .

المسألة السابعة : من معاني الربوبية المطلقة لله عز وجل إنتفاء الشريك والولد له سبحانه ، وإنعدام سلطان غيره في الوجود .

ليكون من معاني آية البحث رجاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم الفضل من عند الله تعالى بدخول الناس في الإسلام ، وحصر

(١) سورة محمد ١١.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة فصلت ١١.

الذين يفرحون بخلاف التنزيل بأفراد وجماعات قليلة ، ويكون نزول وتلاوة آية البحث سبباً لتوبتهم .

لقد أخبرت الآية التالية عن قانون شمول ملك الله لكل شئ في الوجود ، وأختتمت بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو القادر على أن يخلق سماوات وأرضين وعوالم أخرى ، وهو القادر على إزالة السموات والأرض وما فيها من غير أن ينقص من ملكه سبحانه شئ ، وهو الغني عن العالمين ، وفي التنزيل ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾^(١).

لييان فقر وحاجة الناس مجتمعين ومتفرقين ، وفيه إنذار للذين كفروا مطلقاً ، وللذين ذكرتهم آية البحث ، وهل تختص الآية أعلاه بالتهديد والوعيد لفناء وهلاك الناس جميعاً ، الجواب لا ، إنما تشمل المعنى الخاص بهلاك الكفار أو طائفة منهم والموعظة للناس جميعاً لما فيه إصلاح المجتمعات ، ومنع غلبة مفاهيم الكفر ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبْتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(٢).

وكل فرد من الأفراد الثلاثة التي تذكرها الآية أعلاه باعث للوهن والضعف في صفوف الذين كفروا .

ومن ملك الله عز وجل بعثه الأنبياء والمرسلين ، والوحي إليهم ، ونزول الكتب السماوية ، وإطلاعه على القلوب وما يدور في الخلد ، ولا ينحصر ملك الله في المقام بهذا الإطلاع إنما يقلب الله عز

(١) سورة الأنعام ١٣٣.

(٢) سورة آل عمران ١٢٧.

وجل القلوب بما فيه الرحمة والرفق بأصحابها والناس جميعاً ، وفي التنزيل ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفُ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾^(١).

وقال الإمام علي عليه السلام : عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم وحل العقود^(٢).

وتدل آيات القرآن على الملازمة بين ملكية الله المطلقة لكل شئ ووجوب عبادته ، ولا تختص هذه العبادة بالناس بل تشمل الخلائق كلها ، وفي التنزيل ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾^(٣) لتكون العبادة الصفة العامة للخلائق ، وفيه زجر عن

الشرك ، ومنع من التعدي على النبوة باخفاء البشارات بها . وهل بشارة الأنبياء السابقين بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من ملك الله أم أن القدر المتيقن من الملك هو المحسوسات وليس المعقولات.

الجواب هو الأول ، وهو من الخصوصيات التي ينفرد بها سلطان وملك الله عز وجل ، فهو ليس مثل الملك والإستيلاء الحسي كما في الذي بين الناس ، هذا يملك داراً وهذا يملك بستاناً ، وهذا مصنعاً ، فهؤلاء وما يملكون جميعاً من ملك الله عز وجل ، وكذا فان بشارات النبوة ملك لله سبحانه ، لبيان قانون وهو : من ملك الله

(١) سورة الانعام ٤٦-٤٧.

(٢) البحار ١٩٧/٥ .

(٣) سورة الزخرف ٨٤.

الوحي الذي يذكر في قوله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١).

ليبيان مسألة فيما يخص آية البحث ، وهو فرح الذين كفروا والمنافقين بانكار وإخفاء البشارات من الخروج عن ملك الله ، والجحود فيه ، لذا أختتمت الآية بالوعيد لهم بالعذاب الأليم في الآخرة .

المسألة الثامنة : من معاني الجمع بين الآيتين تأديب المسلمين والناس جميعاً بالتفقه في المعارف والتسليم بأن الموجودات والخلائق كلها من صنع الله ، وتمت بمشيئته ، وفيه دعوة إلى عبادته والإنقطاع لذكره ، والسعي في مرضاته ، ومنه رجاء الحمد بالفعل الحسن ، وما يقرب العبد إلى الله تعالى ، وهذا الرجاء ليس من الرياء لسبق قصد القربة وموضوعيته في إتيان الفعل ، لبيان أن رجاء الحمد بالفعل المذموم قبيح ، إذ أن هذا الفعل يعرض صاحبه للعقاب الأليم في الآخرة .

ومن مصاديق ملك الله عز وجل للسموات والأرض الآيات الكونية التي تطلع على الناس كل يوم لتكون دعوة للإيمان ، وتذكيراً بوجوب عبادة الله ، ودليلاً لطريق الرزق الكريم بالهدى والإيمان .
لذا جاءت آية البحث لإنذار الذين كفروا فيما يخص أيام حياتهم الدنيا وفي الآخرة لذا تكرر فيها ذكر العذاب من جهتين :

الأولى : عدم نجاة الكفار من العذاب بقوله تعالى ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَقَارَةِ مِنَ الْعَذَابِ﴾^(٢).

(١) سورة النجم ٣-٤.

(٢) سورة آل عمران ١٨٨.

الثانية : القطع بنزول العذاب بهم ، وبيان شدته لقوله تعالى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).

ليان قانون وهو تحقق الفرح عند الأمن من النار ، والسلامة من شدة عذابها ، وتأتي آية عائدة ملك السموات والأرض لله عز وجل دعوة للناس للجوء إلى النبوة والتنزيل.

فقد جاء الأنبياء بتأكيد عالم الآخرة ، والتصديق به من أصول الدين ، وعقيدة التوحيد ، والملة التي جاء بها إبراهيم عليه السلام وعليها المسلمون والنصارى واليهود.

من مواطن الآخرة

تسبق علامات الساعة الصغرى أهوال يوم القيامة ، ومن هذه العلامات بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وموته وقد ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم (بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالسبابة والوسطى)^(٢) ، ومنها انشقاق القمر.

قال ابن عباس (لما أنزل الله تعالى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾^(٣) ، قال الكفار بعضهم لبعض : إن هذا يزعم (أن) يوم القيامة قد قرب فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر ما هو كائن ، فلما رأوا أنه لا ينزل شيء.

قالوا : ما نرى شيئاً ، فأنزل الله تعالى ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾^(٤) الآية.

(١) سورة آل عمران ١٨٨.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١٠٢/٣ .

(٣) سورة القمر ١.

(٤) سورة الأنبياء ١.

فأشفقوا وانتظروا قرب الساعة، فلما إمتدت الأيام قالوا : يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوفنا به فأنزل الله ﴿آتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾^(١)، فوثب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورفع الناس رؤوسهم فنزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾^(٢)، فاطمأنوا فلما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بأصبعيه إن كادت لتسبقني^(٣).

ومنها كثرة الأموال واستغناء اغلب الناس عن (الصدقة).
ومنها سيادة الأمن كما في ضبط القوانين الوضعية للمعاملات والسلوك العام ، ومنها شيوع الربا ، وقد وردت أحاديث متعددة عن أشراط الساعة منها ما ورد عن عمرو بن تغلب قال (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن من أشراط الساعة أن يفيض المال ، ويكثر الجهل ، وتظهر الفتن ، وتفشو التجارة)^(٤).

ويمكن تقسيم علامات يوم القيامة إلى قسمين :
الأول : العلامات الأرضية ، ومنها ظهور الإمام المهدي عليه السلام ، وفتنة المسيح الدجال ، ونزول عيسى عليه السلام ، وهو الذي يقتل الدجال.
ويأجوج ومأجوج .

ومنها تسير الجبال ثم اختفاؤها ، قال تعالى ﴿وَسُيِّرَتُ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾^(٥)، ومنها إنبعاث الناس من القبور ، وخروج خزائن وكنوز

(١) سورة النحل ١.

(٢) سورة النحل ١.

(٣) الثعلبي / الكشف والبيان ٣٧٢/٧.

(٤) الدر المنثور ٨٨/٣.

(٥) سورة النبأ ٢٠.

الأرض وما مدفون فيها ، قال تعالى ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾^(١) ، لبيان النعم الإلهية على الناس للناس في هذه الأزمنة ، ومعجزة تتجلى بقانون وهو : كل ما اجتهدتم باخراج الذهب والنفط والمعادن الأخرى من الأرض فان الأرض يوم القيامة تلقي خزائن كثيرة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾^(٢).

الثاني: العلامات السماوية ، ومنها تكوير الشمس ، وخسوف القمر .

ثم يبعث الناس جميعاً ليوم النشور ، والوقوف الطويل في عرصات يوم القيامة للحساب ، ومن هذه المواطن وأحوال يوم القيامة وجوه :

الأول : التبدلات والأهوال والإضمحلال الذي يحدث لكثير من الأكوان قبل يوم القيامة منها :

الأولى : تصدع وإنشقاق السماء وحركتها وهي تموج وتشرف على الإنهيار ، قال تعالى ﴿فَإِذَا انْشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالذِّهَانِ﴾^(٣).

الثانية : تبدل الأرض ، وقرب طيها والسماء طياً ، قال تعالى ﴿يَوْمَ بُدِّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾^(٤) .

الثالثة : تفجير البحار (عن أبي بن كعب قال : ست آيات قبل يوم القيامة بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذا وقعت الجبال على وجه الأرض ، فتحركت

(١) سورة الانشقاق ٤.

(٢) سورة الأنعام ١٤٩ .

(٣) سورة الرحمن ٣٧ .

(٤) سورة إبراهيم ٤٨ .

واضطربت واختلطت ففزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن ،
واختلط الدواب والطيور والوحش فماجوا بعضهم في بعض { وإذا
الوحوش حشرت } قال : اختلطت { وإذا العشار عطلت }^(١) أهملها
أهلها { وإذا البحار سجرت }^(٢) قال : الجن والإنس نحن نأتيكم بالخبر
فانطلقوا إلى البحر فإذا هي نار تأجج ، فبينما هم كذلك إذا
انصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة وإلى السماء
السابعة ، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتتهم^(٣).

الرابعة : تكوير وإضمحلال الشمس ، قال تعالى ﴿ إِذَا الشَّمْسُ
كُوِّرَتْ ﴾^(٤).

الثاني : النفخ في الصور مرتين ، وكل واحدة تتبعها أهوال
بالصعق في الأولى ، والقيام والترقب في نفخة الصور الثانية ، قال
تعالى ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾^(٥).

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية أعلاه (فاكون أول
من يرفع رأسه ، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا
أدري أرفع رأسه قبلي أو كان ممن استثنى الله عز وجل)^(٦).

(١) سورة التكوين ٤.

(٢) سورة التكوين ٦.

(٣) الدر المنثور ٣٠٤/١٠.

(٤) سورة التكوين ١.

(٥) سورة الزمر ٦٨.

(٦) الدر المنثور ٤٧٥/٨.

و(عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم { ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله } قالوا : يا رسول الله من هؤلاء الذين استثنى الله .

قال جبريل ، وميكائيل ، وملك الموت ، وإسرافيل ، وحملة العرش . فإذا قبض الله أرواح الخلائق قال لملك الموت : من بقي . وهو أعلم فيقول : رب سبحانه ، رب تعاليت ذا الجلال والاکرام بقي جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت . فيقول : خذ نفس ميكائيل . فيقع كالطود العظيم . فيقول : يا ملك الموت من بقي .

فيقول سبحانه رب : ذا الجلال والاکرام بقي جبريل وملك الموت . فيقول مت يا ملك الموت ، فيموت فيقول يا جبريل من بقي فيقول : سبحانه يا ذا الجلال والاکرام بقي جبريل وهو من الله بالمكان الذي هو به .

فيقول : يا جبريل ما بد من موتك . فيقع ساجداً يخفق بجناحيه يقول : سبحانه رب تباركت وتعاليت ذا الجلال والاکرام . أنت الباقي وجبريل الميت الفاني ، يأخذ روحه في الخفقة التي يخفق فيها ، فيقع على حيز من فضل خلقه على خلق ميكائيل كفضل الطود العظيم^(١) .

الثالث : حال الفزع العام ، قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾^(٢) وحتى الذي يستثنى من الفزع والخوف يأتي طائعاً خاشعاً لله عز وجل .

(١) الدر المنثور ٨/٤٧٥ .

(٢) سورة النمل ٨٧ .

الرابع : القيام ووقوف الناس في المحشر ، يتعارف الناس بعضهم على بعض ، قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُخْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يُلْبِثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ ^(١) وهل هذا التعارف على نحو القضية الشخصية والاسم وصلة القربى والجوار ، الجواب إنه أعم ، فهو تعارف بالأعمال وإحسان بعضهم لبعض ، والصلات الإيمانية بينهم والتعارف بين الابن وأبيه ، بل وآبائه كالسابع والثامن ، ومعرفة المظلوم للظالم ، واستبشاره بأنه يقتص ويأخذ حقه منه في المحشر حيث كل إنسان يحتاج إلى الحسنات.

ومن عمومات التعارف الذي تذكره الآية أعلاه قوله تعالى ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَسَخَّطْنَا لَهُمْ عَنَّا كُرْهُهُمُ إِنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ ^(٢) لتكون آية البحث تذكيراً للتابع والمتبوع في بعقوبة إخفاء بشارات النبوة ، والذي يحب أن يحمد ويشنى عليه بما يفعل ، والذي يقوم بالشاء عليه .

ليكون من إعجاز آية البحث إدراك الناس بالفطرة التي جبلهم الله عليها أن فاعل الحرام والسيئة لا يستحق الثناء ، فان قلت إن كان شخص أو جماعة اثنوا على الظالم وفاعل السيئة تقية وخشية بطشه فهل يشملهم العقاب ، الجواب لا ، وكل ما غلب الله عليه فالله أولى بالعدر .

(١) سورة يونس ٤٥.

(٢) سورة البقرة ١٦٦-١٦٧.

لذا فمن إعجاز الآية عدم ذكرها للذين يقومون بهذا الثناء ، إنما أختصت بالذين يجبون تلقي الثناء بغير استحقاق .

وبين القرآن أن مادة (تبع) لا تنحصر بالذين كفروا وعتابهم يوم القيامة ، فتشمل المدح والبشارة للذين اتبعوا أهل الإيمان ، وركبوا جادة الصلاح والفلاح ، قال تعالى ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١).

الخامس : النشر والحشر .

السادس : شد حرارة الشمس .

السابع : عبور الصراط أو عدمه بلحاظ الأعمال في الدنيا ، وهل ينفع المسلم يومئذ تلاوته لقوله تعالى ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢) الجواب نعم ، وهناك مسألة وهي هل يختص هذا النفع بالهداية إلى فعل الصالحات ، وبواسطتها يعبر المؤمن الصراط ، ويمشي عليه إلى ساحل الأمان ، أم أنه يشمل عبور الصراط بالأصل ، الجواب كلا الوجهين صحيح ، ويجتمعان عند الصراط ليجتازه المؤمن بأكثر من وسيلة مبارك وسلاح .

ويكون من معاني الآية أعلاه : أهدنا عبور الصراط المستقيم .
(و)عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أول من يدعى يوم القيامة أنا فأقوم فألبي ، ثم يؤذن لي في السجود فأسجد له سجدة يرضى بها عني ، ثم يؤذن لي فأرفع

(١) سورة التوبة ١٠٠.

(٢) سورة الفاتحة ٦.

رأسي فأدعو بدعاء يرضى به عني ، فقلنا يا رسول الله كيف تعرف أمتك يوم القيامة .

قال : يعرفون غراً محجلين من أثر الطهور فيردون علي الحوض ما بين عدن إلى عمان بصري ، أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وأبرد من الثلج وأطيب ريحاً من المسك ، فيه من الآنية عدد نجوم السماء ، من ورده فشرب منه لم يظماً بعده أبداً ، ومن صرف عنه لم يرو بعده أبداً ، ثم يعرض الناس على الصراط.

فيمر أوائلهم كالبرق ، ثم يمرون كالريح ، ثم يمرون كالطير^(١) ، ثم يمرون كأجاويد الخيل والركاب ، وعلى كل حال وهي الأعمال. والملائكة جانبي الصراط يقولون رب سلم سلم ، فسالم ناج ، ومخدوش ناج ، ومرتبك في النار ، وجهنم تقول هل من مزيد حتى يضع فيها رب العالمين ما شاء الله أن يضع فتقبض وتغرغر كما تغرغر المزايدة إذا ملئت وتقول قط قط^(٢).

السابع : الميزان : الميزان لغة الآلة التي توزن بها الأشياء ، وتساوي الكفتين أو رجحان إحداهما ، قال تعالى ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾^(٣) ، أما في الإصطلاح فهو مادة وزن الأعمال القيامة ومن لفظ الميزان في القرآن ، بخصوص موازين العدل والمكيل في الحياة الدنيا ، وتكرر لفظ الميزان في ثلاث آيات متتالية ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾^(٤).

(١) في الأصل كالطرف بدل كالطير.

(٢) الدر المنثور ٢٨٧/٩.

(٣) سورة المطففين ٣.

(٤) سورة الرحمن ٧-٩.

وهل فيه تذكير بميزان الآخرة ، ولزوم الاستعداد له بالإستقامة .
 الجواب نعم ، وقد وردت الإشارة إلى ميزان الآخرة بآيات منها
 قوله تعالى ﴿وَالْوِزْنَ يُؤَمِّدُ الْحَقُّ فَسَنُثَقِّلُ مَوَازِينَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
 الْمُفْلِحُونَ﴾ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بَمَا كَانُوا
 بِآيَاتِنَا يَظْلُمُونَ ﴿١﴾ .

والميزان في الآخرة حق ، والإجماع على أن له كفتين ولساناً بما
 يدرك بالحس وتشاهده الخلائق ، وهو المستقرأ من نصوص عديدة .
 (وعن عائشة سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
 يقول: خلق الله كفتي الميزان مثل السماء والأرض .
 فقالت الملائكة : يا ربنا من وزن بهذا ، قال : أزن به من شئت .
 وخلق الله الصراط كحد السيف ، فقالت الملائكة : يا ربنا من تجيز
 على هذا ، قال : أجزى عليه من شئت) (٢) .
 عن أنس قال : سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يشفع
 لي يوم القيامة فقال : أنا فاعل .
 قلت : يا رسول الله أين أطلبك .
 قال : أطلبني أول ما تطلبني على الصراط .
 قلت : فإن لم ألقك على الصراط ، قال : فاطلبي عند الميزان .
 قلت : فإن لم ألقك عند الميزان ، قال : فاطلبي عند الحوض ،
 فإني لا أخطيء هذه الثلاثة مواطن (٣) .

وفي قوله تعالى ﴿وَالْوِزْنَ يُؤَمِّدُ الْحَقُّ﴾ (١) ، ورد عن ابن عباس أنه
 قال : له لسان وكفتان يوزن ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم

(١) سورة الاعراف ٨-٩ .

(٢) الدر المنثور ٤/١٩٥ .

(٣) الدر المنثور ٤/١٩٥ .

المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم ومنازلهم في الجنة بما كانوا بآياتنا يظلمون^(١).

و(عن حذيفة قال : صاحب الموازين يوم القيامة جبريل عليه السلام ، يرد بعضهم على بعض فيؤخذ من حسنات الظالم فترد على المظلوم ، فإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فردت على الظالم)^(٢).

ومنهم من أنكر الهيئة الحسية للميزان .

و(عن مجاهد : أنه استعارة للعدل)^(٣).

وبه قال الشيخ المفيد^(٤).

والمشهور شهرة عظيمة والذي أدعى عليه الإجماع هو أن الميزان يوم القيامة حسي وعلى نحو الحقيقة ، وهو المختار ، والخلاف صغروي ، فمن المتسالم عليه وجود ميزان بالحق للأعمال يوم القيامة ، وفيه مسائل :

الأولى : دعوة المسلمين والناس جميعاً للإجتهد في الصالحات.

الثانية : إحراز الحسنات التي تثقل كفة الميزان.

الثالثة : إجتنب السيئات التي تجعله خفيفاً وما يترتب عليه من

سوء العاقبة ، قال تعالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةُ * نَارُ حَامِيَةٍ ﴾^(٥).

(١) سورة الأعراف ٨.

(٢) الدر المنثور ٤/١٩٣.

(٣) الدر المنثور ٤/١٩٣.

(٤) أنظر المحرر الوجيز ٤/٢٣٩.

(٥) البحار ٦٨/٢٢٦.

(٦) سورة القارعة ٨-١١.

وهل ما ورد في آية البحث من فرح الإنسان بما يأتي به من إنكار النبوة ، وإخفاء البشارات بالرسالة الخاتمة ، مما يخفف كفة الميزان أم أن الفرح كيفية نفسانية لا يؤاخذ عليها.

المختار هو الأول فذات الفرح بمحاربة النبوة والتنزيل أو الصدود عنها خفة في الميزان وكذا ترجل هذا الفرح لفعل ومبرز في الخارج ، وهو من أسرار مجئ الآية بصيغة الجمع (يفرحون) لإجتماهم على هذا الفرح باللمز والغمز والقول والفعل. وهل من معاني آية البحث التذكير بالحوض والميزان ، الجواب نعم.

ومن منافع هذا التذكير توبة طائفة من الذين يخفون البشارات ، والذين يريدون الثناء عليهم لفعل صالح لم يقوموا به ، ومنها إجتتاب الناس الخصلتين اللتين ذكرتهما آية البحث وقيامهم بالنهي عنهما ، وكشف القبح الذاتي لهما ، وما يترتب عليهما من الضرر العام.

الثامن : الحوض : وهو لغة الموضع الصغير لتجمع الماء ، وفي الإصطلاح هو حوض مبارك للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة ، وهو مجمع عظيم للماء يرده المؤمنون والمؤمنات.

وقد وردت نصوص عديدة عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن حوضه يوم القيامة ، وفيه بعث للأمل والرجاء ، والعمل الصالح ، فمن خصائص الإيمان الجمع بين الرجاء والعمل.

(عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إني لكم فرط وإنكم واردون عليّ الحوض ، فانظروا تخلفوني في الثقلين قيل : وما الثقلان يا رسول الله.

قال : الأكبر كتاب الله عز وجل . سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم ، فتمسكوا به لن تزلوا ولا تضلوا.

والأصغر عترتي وأنهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض ،
وسألت لهما ذاك ربي فلا تقدموهما لتهلكوا ، ولا تعلموهما فإنهما
أعلم منكم^(١).

والفرط هو السابق والمتقدم ، لبيان أن النبي محمداً صلى الله
عليه وآله وسلم يبشر بالحوض وما فيه من الأمن قبل وصول
المؤمنين.

وأن العمل بالقرآن ومودة واتباع أهل البيت طريق النجاة لأنهم
على الحوض للشفاعة ، قال تعالى ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِيهِ
الْقُرْبَى﴾^(٢).

وهل المراد من الحوض هو نفسه حوض الكوثر ، الجواب لا ،
فالمراد من حوض الكوثر هو نهر الكوثر في الجنة بعد دخول المؤمنين
الذين عملوا الصالحات الجنة.

(وصفته على ما جاء في الأخبار أن رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم وصف حوض الكوثر فقال : حصابؤه الياقوت الأحمر
والزبرجد الأخضر والدر والمرجان وحمأته المسك الأذفر وترابه
الكافور ، وماءه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وأبرد من
الثلج .

يخرج : من أصل السدرة عرضه وطوله ما بين المشرق والمغرب ،
حافته الزعفران وقياب الدر والمرجان ، من دخله أمن من الغرق ،
ولا يشرب منه أحد فيظماً ، ولا يتوضأ منه أحد فيشعث ، فيه طيور
أعناقها كأعناق الجزر^(٣).

(١) الدر المنثور ٤٠١/٣ .

(٢) سورة الشورى ٢٣ .

(٣) الثعلبي / الكشف والبيان ٢٣٦/١٤ .

وذكر أن الكوثر نهر في الجنة يخرج من الحوض ، وقيل أن الكوثر هو الحوض بعينه ، ولكن حوض رسول الله عند النشور وفي مواطن الحساب وللتباين الموضوعي بين النهر والحوض .

وورد ذكر للحوض في حديث الإسراء .

ومن ألقاب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (صاحب الحوض والكوثر)^(١) .

(صاحب الحوض المورود والشفاعة)^(٢) .

والحوض من أرض ومواطن المحشر ، والكوثر نهر عظيم في الجنة .

وفي حديث الإمام موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله أنا سيد من خلق الله ، وأنا خير من جبرئيل وإسرافيل ، وحملة العرش ، وجميع الملائكة المقربين ، وأنبياء الله المرسلين ، وأنا صاحب الشفاعة والحوض الشريف ، وأنا وعلي أبوا هذه الامة^(٣) .

والإجماع على وجود الحوض وأنه حق ، ولا عبرة بانكار بعض المعتزلة ونحوهم ، وقد وردت نصوص وأحاديث نبوية عديدة فيه ، وفي وصفه وسعته وطوله وأنه مسيرة شهر لبيان إمكان وصول أجيال المؤمنين المتعاقبة على كثرتهم له ، وخصائصه وعذوبة مائه وكيف أنه يأتي من الجنة .

وعن قتادة (ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول: "والذي نفس محمد بيده، ليردنّ على الحوض ممن صحبني

(١) البحار ١٦/ ١٠٦ .

(٢) البحار ١٦/ ١٣٠ .

(٣) البحار ١٦/ ٣٦٤ .

أقواماً، حتى إذا رُفِعوا إليّ ورأيتهم، اختلجوا دوني، فلاقولن : ربّ أصحابي أصحابي فليقالن : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك^(١).
وقد ورد هذا الحديث بطرق متعددة.

وهل يحتاج الإنسان مطلقاً الحوض عند المحشر أم أن شطراً من الناس يحتاجون إليه ، الجواب هو الأول ، لطول يوم الحساب ، وشدة الحر ، وحال الخوف والفرع.

ليبان أن الحوض رحمة من الله عز وجل يوم القيامة ، وهو من الأفراد التسعة والتسعين التي ورد ذكرها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال (إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ، فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة . فلو يعلم الكافر كل الذي عند الله من رحمته ، لم ييأس من الرحمة . ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب ، لم يأمن من النار)^(٢).

وهل يحرم من السقاية من الحوض الذين نزلت آية البحث بدمهم من الذين يفرحون بشرائهم الدنيا وزينتها ، وإخفائهم الحق ، وستر ما يرتكبون من المعاصي والتحريض على النبي صلى الله عليه وآله وسلم والتنزيل .
الجواب نعم.

ليكون من معاني أحاديث النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن الحوض وجوه :

الأول : الإخبار عن علم من علوم الغيب.

الثاني : الكشف عن الحوض كحقيقة ورحمة يوم القيامة.

(١) تفسير الطبري ٩٤/٧.

(٢) الدر المنثور ١٠٣/٦.

الثالث : الطمأنينة في نفوس المؤمنين وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(١).

الرابع : نفاذ الخوف والفرح في قلوب الذين كفروا ، وإدراكهم لفقرهم وفاقتهم.

فهذا الفرح الذي أخبرت عنه الآية قصير مدته ، سريع زواله ، وعند الحوض تتغشاهم الكآبة والحزن.

فنزلت آية البحث للتدارك والإرتواء من حوض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

التاسع : الحساب : الحساب لغة هو العد والإحصاء أما في الإصطلاح فهو وقوف الناس جميعاً بين يدي الله يوم القيامة من المحاسبة للحساب على أعمالهم في الدنيا سواء كانت خيراً أو شراً ، بالقول أو الفعل إلا من شاء الله عز وجل استثناءه من الحساب ، والحساب من أهوال يوم القيامة ، كما أنه مقدمة للجزاء.

وجاءت آيات في الحساب الأخروي ، منها قوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾^(٢) ، ولا يقع الحساب للناس إلا بعد طول وقوفهم في المحشر مما يزيد من حال الهلع والخوف إلا من رحم الله عز وجل وأول أمة تبدأ الحساب هم أمة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال

(١) سورة فصلت ٣٠.

(٢) سورة الانشقاق ٧-٩.

تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(١).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال (نحن الآخرون السابقون يوم القيامة)^(٢).

ومن فضل الله وسعة رحمته يوم القيامة قيامه بنفسه بحاسبة الناس ، قال تعالى ﴿إِنَّا إِيَّاهُمْ * ثُمَّ إِنَّا عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ﴾^(٣) ، ولا يوكل الله عز وجل الحساب أو شطر وجزء منه إلى الملائكة أو الأنبياء ، قال تعالى ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٤).

ومن الآيات دلالة هيئة الإنسان في المحشر على كيفية وسنخية حسابه إذ قال تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَنَقَلَبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾^(٥).

ولابد عند إحصاء آيات الحساب من وضع قواعد معينة لضبط وتحديد هذه الآيات ، والنسبة بين آيات الوعيد وآيات الحساب هو العموم والخصوص المطلق ، فالوعيد أعم في ألفاظه وموضوعه وزمانه فمثلاً قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى

(١) سورة البقرة ١٤٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ٥١٧/٧ .

(٣) سورة الغاشية ٢٥-٢٦ .

(٤) سورة الانعام ٥٢ .

(٥) سورة الانشقاق ٧-١٢ .

السُّجُودَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُقُهُمْ ذُلَّةٌ وَقَدَّ كَانُوا يَدْعُونَ
إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ^(١) ، من الوعيد وليس من الحساب ،
ومنه ﴿ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ^(٢) 》.

من آيات الحساب

الأولى : ﴿يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقِيَ^١ وَسَعِيدٌ^٢ 》^(٣).

الثانية : ﴿لِيُخْرِجَ^١ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ^٢ 》^(٤).
وتشمل هذه الآية موضوع الحساب والجزاء .

الثالثة : ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا
يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا^١ 》^(٥).

الرابعة : ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ إِنْسَانٍ بِمَا مِمَّ مِمَّنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ
يُسْرَوْنَ^١ كِتَابُهُمْ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا^٢ 》^(٦).

الخامسة ، السادسة ، السابعة : ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً
وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعَرَضُوا عَلَيَّ رَبِّكَ صَفًا لَقَدْ جِئْتُونَا كَمَا
خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا * وَوَضَعَ الْكِتَابَ قُدْرَىٰ

(١) سورة ن ٤٢-٤٣.

(٢) سورة الزخرف ٨٣.

(٣) سورة هود ١٥.

(٤) سورة ابراهيم ٥١.

(٥) سورة الإسراء ١٣-١٤.

(٦) سورة الإسراء ٧١.

الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿١١﴾.

الثامنة : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْمَى﴾^(٢) ، والحساب مقدمة للجزاء لإقامة الله سبحانه الحجة على الناس مع بيان سعة رحمته حتى بالنسبة للذين يدخلون النار ، في تقييهم من سبل الهدى ، وإمهالهم وتذكيرهم ، ودعوتهم للتوبة والإنابة ، ومنه آية البحث ، وهل تحضر هذه الآية يوم القيامة وتكون شاهداً ، الجواب نعم ، من وجوه :

الأول : آية البحث شاهد للمؤمنين الذين يتلونها ويكثرون من تلاوتها خاصة في الصلاة اليومية.

الثاني : تشهد الآية على الذين يفرحون بما أتوا من الباطل والإفتراء والنفاق .

الثالث : تحضر آية البحث يوم القيامة لتشهد للذين يحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا من وجوه الخير .

الرابع : تشهد آية البحث يوم القيامة للذين استمعوا لها واتعظوا منها ، قال تعالى ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٣) ، وتشهد للمؤمن في قراءته واستماعه لها ، ولو كان المؤمن مأموماً في صلاة الجماعة ، فهل يكون قارئاً أم مستمعاً ، المختار أنه قارئ في الصلاة الإخفائية لأن القراءة وظيفة الإمام وهو تابع له ، وقارئ ومستمع في الصلوات الجهرية ، مثل صلاة الصبح والمغرب والعشاء .

(١) سورة الكهف ٤٧-٤٩.

(٢) سورة طه ١٥.

(٣) سورة الأعراف ٢٠٤.

التاسعة : ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^(١).

العاشرة : ﴿الْإِنِّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٢).

الحادية عشرة : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَنَقَلَبَ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾^(٣).

وهل من صلة بين فرح الكفار والمنافقين بما أتوا كما في آية البحث ، وبين السرور الذي تذكره الآية أعلاه ، الجواب نعم ، لبيان إعجاز القرآن بأن فرحهم متصل ويصاحبهم حتى عند العودة إلى البيوت مما يدل على تحريض أهلهم وأبنائهم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم والتزليل ، لذا نزلت آية البحث لإنذار الأهل والأبناء من إتباع المنافقين والكفار في عداوتهم للنبي والقرآن ، وتجد كثيراً من الأبناء دخلوا الإسلام وصاروا من خيرة الصحابة مع أن آبائهم من رؤساء الكفر ، ومنهم :

الأول : أبو حذيفة مهشم بن عتبة بن ربيعة .

الثاني : زوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو اللذان هاجرا إلى الحبشة بدينهما ، وفراراً من أبيهما .

الثالث : الوليد بن الوليد بن المغيرة .

الرابع : سلمة بن هشام أخو أبي جهل .

الخامس : حنظلة بن أبي عامر ، وهو من الأنصار ، واستشهد يوم أحد وهو غسيل الملائكة .

(١) سورة الحج ٦٩.

(٢) سورة النور ٦٤.

(٣) سورة الإنشقاق ٧-٩.

وكذا لا بد من إحصاء آيات النفخ والصعق مثل قوله تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾^(١) ومنه ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾^(٢) مع ذكر بعض الأحاديث النبوية بخصوص كل منهما .

الثانية عشرة : قوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ * نَارُ حَامِيَةٍ﴾^(٣).

ليان سوء عاقبة الذين تخف موازينهم ، فيكون أمانة وطريقاً إلى النار ، فحالما ترى الخلائق خفة كفة الصالحات لشخص عند حسابه يعلمون أنه يساق إلى النار ، إلا أن تدركه الشفاعة بفضل من الله ، وهل هناك علامات للشفاعة قبل تحققها حتى عند الميزان ، خاصة وأن الآيات أعلاه تفيد العموم ، المختار نعم ، فان الله عز وجل يلقي في قلوب الناس موضوعية الشفاعة ، وعلامات الأشخاص الذين ينالونها .

وهل يقوم الملائكة بالبشارة لهم بهذه الشفاعة عند حلول أوانها ، المختار نعم ، وفيه ترغيب للناس جميعاً لإجتنب ما تتضمن آية البحث ذمه من سوء الفعل ، وإن كان على نحو الكتمان مثل إخفاء البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومصاديق الرحمة الدنيوية والأخروية في رسالته.

(١) سورة الزمر ٦٨.

(٢) سورة ق ٢٠.

(٣) سورة القارعة ٥-١١.

سُخْيَةُ الْإِبْتِلَاءِ

لقد ذكرت آية السياق مسائل :

الأولى : إبتلاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بنقص أموالهم سواء قبل الهجرة أو بعدها ، وبخصوص المهاجرين أم الأنصار.

فصحيح أن البركة صاحبت النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عند هجرته إلى المدينة إلا أن غزوات المشركين على المدينة في معركة أحد والخندق وغيرها شغلتهم عن الزراعة ومزاولة التجارة والكسب ، وحتى الزروع والنخيل التي كانت للأنصار فان المشركين كانوا يبعثون سرايا حول المدينة لقطع النخيل وحرق المزروعات .

وفي معركة أحد عندما قدمت جيوش المشركين نحو المدينة ، وصارت عند سفح جبل أحد سرحوا خيولهم وإبلهم في زروع المدينة ، ولم تكن هذه الخيل والإبل قليلة ، إذ كان عدد أفراد الجيش ثلاثة آلاف أغلبهم جاءوا ركباناً ، وقد خرج بعض المزارعين من أهل المدينة لتفقد زروعهم كعادتهم ، أو لشدة حرقتهم ولهفهم على زراعاتهم ، فقام المشركون برميهم بالنبال والسهام ، مما زاد في ألمهم ، فلجأوا إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأخبروه واشتكوا عنده ، ولعله من أسباب تعجيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم الخروج للقاء المشركين عند جبل أحد .

ومن بركة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن الإبتلاء بالمال لم يدم كثيراً ، فمثلاً في معركة بدر أسر المسلمون سبعين من المشركين ، وغنموا كثيراً من الإبل والخيول والأسلحة ، ثم قاموا بتلقي البدل والعوض عن أغلب الأسرى ، وكل أسير يدفع أربعة آلاف درهم فضة أي أربعمئة دينار ، وكل دينار مثقال ذهب عيار ثمانى عشرة حبة ، فيكون عوض كل أسير من أجل فكه من الأسر نحو سبعين ألف دولار في عملة هذا الزمان بلحاظ أن الدينار الذهبي

نحو أربعة غرامات على اختلاف في مقداره ، وكان هذا المبلغ يدفع للذي قام بتأسير الأسير ، أي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يأخذ منه شيئاً .

وما صاحب النصر في معركة بدر من الأمل والغبطة والعز والرضا بفضل الله عز وجل أعظم ، وهل هذه الأمور من مصاديق النصر في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾^(١) أم أن القدر المتيقن من الآية هو النصر في ميدان المعركة ، الجواب هو الأول ، ويعطي الله عز وجل بالأوفى والأتم والأكمل .

ومن معاني الإبتلاء في الأموال جمعها وكثرتها والإنشغال بها ، ولزوم إخراج الزكاة والحقوق الشرعية منها .

فقوله تعالى ﴿تَبْلُؤُنَ فِي أَمْوَالِكُمْ﴾^(٢) يجمع بين المتضادين لما فيه الرحمة والأجر والثواب العظيم ، وهو من أسرار القرآن وتعدد معاني اللفظ القرآني .

فجاءت الآية دعوة سماوية للمسلمين للثبات في منازل الإيمان في حال الرخاء أو الشدة والسراء أو الضراء .

ولتهيئة أذهان المسلمين لما يلاقون من الأذى ومن تعدي المشركين وإصرارهم على القتال ، ومنه البشارة بتوالي الصحابة لشؤون الحكم والإمارة والقضاء ، فلا بد من النزاهة وحسن السمات والصلاح .

إن استحضر المسلمون بعد فتح مكة لحال العوز والأذى الذي كانوا عليه ، واضطهاد وحرب كفار قريش عليهم مناسبة للشكر لله عز وجل ، لذا فإن قوله تعالى ﴿تَبْلُؤُنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾^(٣)

(١) سورة آل عمران ١٢٣ .

(٢) سورة آل عمران ١٨٦ .

(٣) سورة آل عمران ١٨٦ .

دعوة لأجيال المسلمين لمعرفة معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الانتقال السريع له ولأصحابه من حال الذل والعوز إلى حال العز والحكم ، ومجئ الأموال إلى المدينة ، وهل حال المدينة المنورة في هذا الزمان ورغبة كل مسلم بزيارتها والسلام على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من معجزاته ، الجواب نعم .

الثانية : إبتلاء المسلمين بالنفوس بالحروب والإقتال مع المشركين ، ففي معركة بدر قُتل أربعة عشر من الصحابة ، وفي معركة أحد سقط سبعون شهيداً ، ونزل قوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءُ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(١).

وقيل الإبتلاء (بالأمراض والأوجاع والقتل)^(٢).

ولكن الأمراض والأوجاع تأتي للمؤمنين كعامة الناس والبشر وينالهم من المحو وصرف الأذى في المقام ما هو ظاهر للعيان ، ومدرك بالعقول ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٣) ، إنما الحال الأمور الطارئة التي تنزل عليهم كمسلمين وأظهرها وقوع المعارك بينهم وبين المشركين .

ولم يتعرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه قبل الهجرة في مكة إلى القتال والمبارزة بالسيوف ، كما أن أهل المدينة لم يعهدوا مجئ آلاف الأفراد من قريش لقتالهم في معركة أحد والخندق ، ولم يكن هناك سبيل للصالح والتراضي للتضاد بين الإيمان والكفر ، ولأن المشركين زحفوا من أجل القتال والقتل .

(١) سورة البقرة ١٥٤.

(٢) السمرقندي / بحر العلوم ٣٥٠/١.

(٣) سورة الرعد ٣٩.

وهل من الإبتلاء بالنفوس توعد المشركين قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزول قوله تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ..﴾^(١).
الجواب نعم لأن الإبتلاء أعم من تحقق المصداق الخارجي ،
فيشمل التهديد والحيلة والحذر .

وجاءت آية السياق لبعث المسلمين على الصبر والثبات ، وعدم اليأس أو القنوط ، والإستعداد لتلقي مصيبة القتل والخسارة بالصبر والتقوى ، ويمنع غلبة النفاق وصوته في المجتمعات ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٢).
لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار الإبتلاء والإمتحان ، ولا يسلم منه الأنبياء ولا الصالحون والمؤمنون ، إنما هو سنة الحياة الدنيا ، نعم يفوز الأنبياء وعموم المؤمنين بالأجر والثواب ، قال تعالى ﴿وَلَنُبَلِّغُكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَكُمْ أَخْبَارَكُمْ﴾^(٣).

الثالثة : إبتلاء المسلمين بالأموال والأنفس في آن واحد سواء في واقعة مخصوصة كما في حال المراقبة فانها بذل للجهد والمال والنفوس ، وتعطيل للأعمال ومفارقة للأهل والعيال ، أو في عدة وقائع في آن واحد ، منها ما يتعلق بالنفوس ومنها ما يتعلق بالمال .

الرابعة : سماع النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة أذى كثيراً من طائفة من الذين أوتوا الكتاب ، ومن إعجاز نظم الآيات

(١) سورة آل عمران ١٤٤.

(٢) سورة البقرة ١٥٦.

(٣) سورة البقرة ١٥٦.

ورود آية السياق بتقييد الذين أوتوا الكتاب بأنهم قبل المسلمين ، وقبل نزول القرآن بينما لم يرد هذا القيد في الآية السابقة .

ويحتمل الإبتلاء في مجيئه وجوهاً :

الأول : مجئ الإبتلاء للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه على نحو دفعي .

الثاني : مجئ الإبتلاء على نحو التدرج .

الثالث : العنوان الجامع للوجهين أعلاه .

والمختار هو الأخير لأصالة الإطلاق ، ولييان صبر وجهاد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمهاجرين والأنصار ، وتحملهم الأذى من الذين كفروا ، فمع الخسارة في النفوس وسقوط الشهداء ، ونقص الأموال يأتي أذى من طائفة من أهل الكتاب ، وأذى كثير من المشركين .

وجاءت آية البحث بالوعيد على هذا الأذى ، وعلى قيام المشركين بالهجوم على المدينة والإبتداء بالقتال .

قانون (نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ)

ومن معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إعراض ملوك الزمان عن نصرة كفار قريش ، وهل كان هذا الإعراض من أسباب رضا وإمضاء قريش لصلح الحديبية ، الجواب نعم .

(وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : نصرت بالرعب ، يسير بين يدي مسيرة شهر)^(١) .

وفي هذا الحديث شاهد بان النبي محمداً لم يغز أحداً ، ولم يطلب القتال ، ولكن الذين ينوون غزو المدينة وقتاله يصابون بالفزع والرعب .

(١) الذهبي / تاريخ الإسلام ١٢٩/١ .

ومن الإعجاز أن الحديث لم يرد بخصوص النصر بالرعب وحده ، بل ورد في سياق نعمة متعددة اختص الله عز وجل بها النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أُعْطِيَ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هُوَ قَالَ نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ وَسُمِّيتُ أَحْمَدَ وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهُورًا وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الْأُمَمِ) ^(١).

من خصائص الأنبياء التفرد بخصال حميدة تفرق جهود البشر ، فيأتي النبي بمعجزة لو اجتمع خلق كثير لتعذر عليهم الإتيان بها ، إلى جانب المعجزة التي هي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي .

وقد بعث الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بين قوم كافرين يعبدون الأوثان ، وجاء هو بالصلاة خمس مرات في اليوم والزكاة والصيام والحج والخمس وإقامة الحدود ، قال تعالى ﴿الْأَنفُسُ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفُ بِالْأَفْ وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ وَالسِّنُّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ ^(٢) .

وأدرك كبراء المشركين صبغة التساوي بين الناس التي جاء بها الإسلام ، وأن عبيدهم سيصبحون بعد حين أحراراً ، وقد يكونون أئمة وقادة لهم ، وهو الذي تحقق واقعاً .

فقد كانت قريش تتدارس أخبار الأمم والتاريخ ، وتستقرأ منه الدروس ، ولكنها لم تتخذة عبرة وموعظة بل أصروا على الكفر باستثناء الذين دخلوا الإسلام ، وهم عدد غير قليل من أهل البيت وأهل مكة وغيرهم ، فمثلاً هاجر ثلاثة وثمانون رجلاً وتسع عشرة امرأة من مسلمي مكة إلى الحبشة لإحراز سلامة دينهم ، وهي معجزة غريبة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) مسند أحمد ٢/٢٣٠.

(٢) سورة المائدة ٤٥.

ولقد أخبر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن المدد والعون الإلهي له بسلاح الرعب والفرع ، وقد ورد لفظ ﴿الرعب﴾ أربع مرات في القرآن ، وكل واحدة منها تخبر عن إلقاء الرعب من عند الله عز وجل في قلوب الذين يحاربون النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وهي :

الأولى : قال تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَوْسَى الظَّالِمِينَ﴾^(١).

الثانية : قال تعالى ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبُّوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾^(٢).

الثالثة : قال تعالى ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾^(٣).

ليبيان قانون الزجر عن نصرة ومظاهرة الذين كفروا في حربهم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم لذا جاءت الآية السابقة بترغيب الذين أوتوا الكتاب باعلان الميثاق وعدم كتمان البشارات بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم الواردة في الكتب السماوية وعلى السنة الأنبياء السابقين .

الرابعة : قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعُهُمْ

(١) سورة آل عمران ١٥١.

(٢) سورة الأنفال ١٢.

(٣) سورة الأحزاب ٢٦.

حُصُونَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ^(١).

وهل لسلاح الرعب موضوعية في إمتناع ملوك الأرض من محاربة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الجواب نعم ، ومن مصاديقه وجوه :

الأول : الرعب كيفية نفسانية وحال يجعل الفرد والجماعة يتصفون بها ، والرعب من الكلبي المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة ، ويكون سببه على جهات :

الأولى : سبب يستحق الرعب .

الثانية : زيادة أهوال أسباب ومقدمات الرعب .

الثالثة : سبب الرعب أدنى منه .

الرابعة : الوهم والظن غير المعبر .

والرعب الذي ورد في الحديث النبوي (نصرت بالرعب) من الجهة الأولى والثانية أعلاه .

الثاني : مقدار وكم وكيف الرعب الذي يلقيه الله في القلب ولا يقدر عليه إلا هو سبحانه .

الثالث : هذا الرعب من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً

لِّلْعَالَمِينَ﴾ ^(٢) لما فيه من منع من الحروب والمعارك المتكررة بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمشركين ، وكثرة القتلى والجرحى فيها .

(١) سورة الحشر ٢.

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧.

الرابع : من معاني هذا الرعب إمتناع الدول العظمى عن التوغل في أرض الجزيرة العربية ، وخشية عطش الجنود فيها ، وتعرضهم للنهب والسلب من قبل أفراد القبائل .

ومن خصائص العربي الإنتقام والثأر والغدر بمن يغزو أرضه .
ومن الإعجاز في النصر بالرعب خلوه من سفك الدماء ، لذا فهو من مصاديق إحتجاج الله عز وجل على الملائكة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١) بعد قولهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٢) يوم أخبرهم بأنه يجعل ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٣) .

ليان أن الرعب آلة نصر الأنبياء ، ومن أسباب إزاحة مفاهيم الشرك والفساد في الأرض من غير أن يكون فيه قتال وقتل .
ومع أن الشرك أم الكبائر ، فإن النسبة بين الفساد وبينه هو العموم والخصوص المطلق ، فالشرك من الفساد من غير أن يلزم الدور بينهما ، وتتفرع عند أفراد كثيرة من الفساد ، لذا قال الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾^(٤) ، شامل للشرك ، ولم يرد لفظ ﴿يُفْسِدُ﴾ و﴿يَسْفِكُ﴾ و﴿تَقْدَسُ﴾ في القرآن إلا في الآية أعلاه .

وهل يأتي سلاح الرعب على الشرك ، فيصيب المشركين بالفزع لإختيارهم الشرك ، الجواب نعم ، ليكون تقدير قوله النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (نصرت بالرعب) على وجوه :

الأول : نصرت بالرعب ليتوب الناس .

الثاني : نصرت بالرعب لينحسر الشرك .

(١) سورة البقرة ٣٠ .

(٢) سورة البقرة ٣٠ .

(٣) سورة البقرة ٣٠ .

(٤) سورة البقرة ٣٠ .

- الثالث : نصرت بالرعب لمنع شيوع الفساد .
- الرابع : نصرت بالرعب ليصبح المؤمنون في أمن وسلام .
- الخامس : نصرت بالرعب فلا تصل النوبة إلى غزو المشركين .
- السادس : نصرت بالرعب ليتدبر الناس في الآيات ويدخلوا الإسلام .
- السابع : نصرت بالرعب لتثبيت معالم الإيمان في الأرض إلى يوم القيامة .

وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿١﴾ .

ومن معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في المقام إخباره بانفراده بالخصال والمعجزات الرسالية الكريمة التي وردت في الحديث المتقدم فلم تجد في القرآن وفي الكتب السماوية السابقة وقصص الأنبياء ما يدل على نيل أحد الأنبياء إجتماع المعجزات التي وردت في الحديث ، إنما هي خاصة بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي :

- الأولى : النصر بالرعب ، وفي رواية جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (نصرت بالرعب مسيرة شهر) (٢) .
- الثانية : إعطاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مفاتيح الأرض .
- الثالثة : تسمية أحمد ودلالته في معاني الثناء على الله عز وجل .
- الرابعة : صيرورة التراب طهارة للنبي والمسلمين بالتميم به عند فقد الماء ، قال تعالى ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ (٣) .
- الخامس : جعل أمة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خير الأمم .

(١) سورة النصر ١-٣ .

(٢) سورة المائدة ٦ .

(٣) البيهقي / السنن الكبرى ٢١٢/١ .

بحث أصولي مستحدث: لام التكليف

اللام هو الحرف الثالث والعشرون من الحروف الأبجدية ، ومخرجه من طرف اللسان .

وتتعدد معاني (اللام) حسب موقعها في الجملة ، وفيه وجوه :

الأول : إنها موطنة للقسم أي أن الله سبحانه أخذ عليهم عهداً بالبيان .

الثاني : اللام لام التعليل ، وأن الله عز وجل أخذ الميثاق من الذين أوتوا الكتاب لبيانه للناس ، وهو لا يتعارض مع وجوب تقييد الذين أوتوا الكتاب بالميثاق ، ليكون بيانه للناس قولياً وفعلياً .

لام التعليل ، وهي التي تأتي (كي) بدلاً عنها ، وهي على مذهب أكثر الكوفيين ناصبة بتقدير حرف نصب بعدها تقديره (أن) وهي عند البصريين جارة.

كما في اللام في ﴿تَعْلَمُوا﴾ في قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ تَعْلَمُونَ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(١) وقوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلِغَكُمْ إِلَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾^(٢).

الثالث : المراد لام التكليف ، وهو إصطلاح أصولي جديد هنا أعم من المعنى النحوي للحروف والكلمات ، بلحاظ مضمون ودلالة الآية القرآنية ، لقانون وهو أن معنى الحرف والكلمة القرآنية أعم من القواعد النحوية والكلامية والأصولية .

وهو من إعجاز القرآن إذ أن هذه القواعد وضعية من تأسيس واستقراء العلماء ، وهي لا يصل إلى كنه ودلالة القرآن .

(١) سورة يونس ٥.

(٢) سورة الملك ٢.

وقد تقدم بيان أقسام اللام إذ أنها على وجوه منها :
الأول : لام الملك ، وهي التي تدخل بين ذاتين بما يستقرأ منه الملك ، وتتصل هذه اللام بالمالك وليس بالملوك ، كما في قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١).

الثاني : لام شبه الملك مثل العلف للحيوان ، وهذه اللام قريبة من لام الإستحقاق ، ومنهم من جعلها مع لام الإستحقاق .
الثالث : لام الإختصاص وهي التي تدخل بين اثنين ، ولكنها لا تفيد الملك إنما تفيد النسبة ، كما في تكرار لام الإختصاص في قوله تعالى ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾^(٢) وقول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (الولد للفراش وللعاهر الحجر) إذ ورد عن السدي (في قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء . . . }^(٣) الآية .

قال : غضب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً من الأيام فقام خطيباً ، فقال : سلوني فإنكم لا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به ، فقام إليه رجل من قريش من بني سهم يقال له عبد الله بن حذافة - وكان يطعن فيه - فقال : يا رسول الله ، من أبي .

قال : أبوك فلان ، فدعاه لأبيه ، فقام إليه عمر فقبل رجله ، وقال : يا رسول الله ، رضينا بالله رباً ، وبك نبياً ، وبالقرآن إماماً ، فاعف عنا عفا الله عنك ، فلم يزل به حتى رضي ، فيومئذ قال : الولد للفراش وللعاهر الحجر ، وأنزل عليه {قد سألتها قوم من قبلكم} ^(٤) ^(٥).

(١) سورة آل عمران ١٨٩.

(٢) سورة آل عمران ١٩٩.

(٣) سورة المائدة ١٠١.

(٤) سورة المائدة ١٠٢.

(٥) الدر المنثور ٤٩٤/٣.

الرابع : لام الإستحقاق وهي التي تقع بين اسم ذات واسم معنى كما في قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فالحمد اسم معنى ، واسم الجلالة اسم ذات .

الخامس : لام العاقبة وتسمى لام الصيرورة ولام المآل ، وجاءت مكررة في قوله تعالى ﴿لَا كَرْنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَدْخَلْتَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(١).

السادس : لام التبيين وتسمى البينة وهي التي تأتي بعد اسم الفعل مثل قوله تعالى ﴿مِثْلَكَ﴾^(٢) وتتعلق اللام بفعل مقدر تقديره أعني .

السابع : تكون اللام بمعنى (إلى) لانتهاء الغاية كما في قوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾^(٣).

الثامن : لام التوكيد وهي اللام الزائدة ، فهي لتوكيد الكلام ، وقد تقع بين الإرادة والأمر ، كما في قوله تعالى ﴿وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤) وكما في قوله تعالى ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾^(٥) وغيرها من معاني اللام .

وقد (أحصى الخليل بن أحمد عدد اللامات، فبلغت إحدى و أربعين لاما؟ نعتها عدا وهي: لام القسم، لام جواب القسم، لام الأمر، لام جواب الأمر، لام الوعد، لام الوعيد، لام التوكيد، لام

(١) سورة آل عمران ١٩٥.

(٢) سورة يوسف ٢٣.

(٣) سورة النساء ٧٩.

(٤) سورة الأنعام ٧١.

(٥) سورة النور ٤٤.

العماد، لام الجحد، لام كي، لام إن الخفيفة، لام الغاية، لام
الترجي، لام التمني، لام التحذير، لام المدح، لام الذم، لام كما،
لام المنقول، لام الجزاء، لام الشفاعة، لام الاستغاثة، لام الجر، لام
الصفة، لام الأصل، لام المعرفة، لام التكثير، لام الابتداء، لام
التفضيل، لام ليس، لام النفي، لام غير، لام التبرئة، لام الصلة، لام
النهي، لام الدعاء، لام الاستحقاق، لام الإلحاق، لام الفصاحة^(١).

وتنقسم اللام من جهة العمل إلى قسمين :

الأول : اللام العاملة .

الثاني : اللام غير العاملة مثل لام الإبتداء ، واللام المرحلة ،
واللام الفارقة ، وهي الواقعة بعد (أن المخففة) مثل ﴿وَأَنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا
عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(٢) ومنها اللام الواقعة في جواب القسم .

وتنقسم اللام العاملة إلى ثلاثة أقسام :

الأول : اللام العاملة للجر ، ومنها لام الجحود ، كما في قوله
تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾^(٣).

الثاني : اللام العاملة للنصب .

الثالث : اللام العاملة للجزم (اللام الموضوعة للطلب، وحركتها
الكسر، وسليم تفتحها، وإسكانا بعد الفاء والواو أكثر من تحريكها،
نحو (ليستجيبوا لي وليؤمنوا بي)^(٤).

وقد تسكن بعد ثم نحو (ثم ليقضوا) في قراءة الكوفيين وقالون
والبزي، وفي ذلك رد على من قال: إنه خاص بالشعر. ولا فرق في
اقتضاء اللام الطلية للجزم بين كون الطلب أمراً، نحو (لينفق ذو

(١) الجدول في إعراب القرآن ١٢/٢١.

(٢) سورة البقرة ٤٥.

(٣) سورة الأنفال ٣٣.

(٤) سورة البقرة ١٨٦.

سعة^(١) أو دعاء نحو (ليقض علينا ربك)^(٢) ، أو التماساً كقولك لمن يسأوك ليفعل فلان كذا إذا لم ترد الاستعلاء عليه، وكذا لو أخرجت عن الطلب الى غيره، كالتي يراد بها وبمصحوبها الخبر نحو (من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً)^(٣) ، (اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم)^(٤) أي فنتولى ونحمل، أو التهديد نحو (ومن شاء فلي كفر) وهذا هو معنى الأمر في (اعملوا ما شئتم)^(٥).

ويمكن إنشاء اسم وتقسيم جديد لحرف اللام وفق مباحث علم الأصول وهو لام التكليف ، وإن وافق التقسيمات النحوية المتقدمة ، خاصة وأن العلماء أجهدوا أنفسهم في هذه التقسيمات ، وأكثروا من التوسعة والتفريع فيها ، ولام التكليف هنا إصطلاح شرعي يتعلق بالأوامر والنواهي ، وهي بلحاظ الأحكام التكليفية على أقسام :

الأول : لام الوجوب التي يستقرأ منها القطع والوجوب ومنه اللام في قوله تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾^(٦) ، واللام هنا ووفق الصناعة النحوية لام التعليل ، ولا مانع من تسميتها أيضاً لام الوجوب ، ومنه قوله تعالى ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ﴾^(٧) ، واللام هنا لام الأمر ، وتسمى أيضاً اللام الطلبية لتشمل لام الدعاء كما في ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾^(٨).

(١) سورة الطلاق ٧.

(٢) سورة الزخرف ٧٧.

(٣) سورة مريم ٧٥.

(٤) سورة العنكبوت ١٢.

(٥) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ١/ ٨٣.

(٦) سورة البينة ٥.

(٧) سورة الطلاق ٧.

(٨) سورة الزخرف ٧٧.

الثاني : لام الإستحباب الذي يفيد ذكرها الندب للإستحباب
مثل اللام في ﴿لَتَبْتَغُوا﴾ كما في قوله تعالى ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ
الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١)، لتحضر صلاة العيد .

الثالث : لام الإباحة كما في قوله تعالى ﴿وَأَنكُم تَمْرُونُ عَلَيْهِمْ
مُصْبِحِينَ﴾^(٢) وقوله تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ تَرْكَبُوا مِنْهَا
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾^(٣) . مثل : لألبس الثوب الجديد .

الرابع : لام الكراهة مثل : لأصلي بثوب واحد .

الخامس : لام النهي والحرمة كما في اللام في قوله تعالى ﴿إِنكُم لَتَأْتُونَ
الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾^(٤)، وهي اللام المزلحقة
للتوكيد، ومنه قوله تعالى ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيَانَهُمْ
لِيُجَادِلُوكُمْ﴾^(٥) فهذا الجدال حرام وكذا قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ
أكْبَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾^(٦) .

السادس : لام الجزاء ، وهي التي تترتب على أداء التكليف ،
قال تعالى ﴿وَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٧) .

(١) سورة الإسراء ٦٦ .

(٢) سورة الصافات ١٣٧ .

(٣) سورة غافر ٧٩ .

(٤) سورة الأعراف ٨١ .

(٥) سورة الأنعام ١٢١ .

(٦) سورة الأنعام ١٢٣ .

(٧) سورة الجاثية ٢٢ .

ومنه في آية البحث حرف الجر اللام في قوله تعالى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولا بأس في كتابة رسالة دكتوراه عن اللام في القرآن وفق علم الأصول بعد بيان معناها النحوي ومنه استعراض لامات القرآن ، والمختار أن لام الوجوب هي أكثر لامات القرآن.

إن قانون لام التكليف مقدمة ومثال لإنطباق الأحكام التكليفية في غايات حروف الجر أخرى ونحوها في القرآن فهو تأسيس لمدرسة علمية واستظهار لكنوز وذخائر من آيات القرآن ، تسير مع علوم النحو من غير أن تتعارض معها.

وما ورد في الآية السابقة ﴿لَتَبْلُغَنَّ لِلنَّاسِ﴾ يفيد الوجوب .

قانون بيان الميثاق مقدمة للإيمان

أختتمت آية السياق بالإخبار عن قبح فعل الذين يخفون الميثاق ، وأن هذا الإخفاء لا يعود عليهم إلا بالضرر ، ومن إعجاز الآية توجه فعل الذم (بئس) إلى الذين يشترتون ويكسبون من إخفاء الميثاق والبشارات.

وهو من بديع الإحتجاج إذ توجه لهم اللوم بالبرهان الإنبي ، فيدل قليل يربحون على قبيح فعلهم ، وضلالتهم ومخالفتهم للأوامر الإلهية ، لذا جاء الأمر من الله عز وجل بوجوب بيان الميثاق .

أما خاتمة آية البحث فقد أكدت وجود عذاب أليم في الآخرة ، وأن هذا العذاب يشمل الذين يخفون الآيات وأفراد الميثاق الذي أخذه الله عز وجل على الناس ، إذ أن هذا الميثاق خير محض وهو سبيل صلاح وطريق الفوز باللبث الدائم في النعيم في الآخرة .

وهل يشتكي رهط وشطر من الناس يوم القيامة على الذين أخفوا الميثاق ، ولم يعلنوه ، ويقولون لو كان هؤلاء أعلنوا الميثاق لأمنّا ، الجواب نعم.

ولكن حجتهم لا تقبل لوجود آيات كثيرة كانت تدعوهم في الدنيا إلى الإيمان وأداء الفرائض العبادية ، لذا كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حينما بعثه الله عز وجل لم يقف عند إظهار الذين أوتوا الكتاب الميثاق والبشارات به ، بل جاء بالمعجزات العقلية والحسية التي تدل على نبوته ، وتؤكد صدق بعثته من عند الله عز وجل .

وكل آية من القرآن معجزة عقلية ومنها عقلية حسية ، كما في الإسراء والمعراج ، قال تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١).

وهل يعني هذا أن إظهار الذين أوتوا الكتاب الميثاق أمر زائد ، الجواب لا ، ففيه نفع خاص وعام ، نفع خاص للذين يعلنون الميثاق ، ونفع عام لهداية الناس ، ومنع رؤساء الكفر من تسيير الجيوش لقتال طائفة من سكانها خصوصاً اليهود النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وهل كان من أسباب إختيار المدينة (يثرب) رجاء إظهار الميثاق وما كانوا يعلنونه من البشارات بخصوص نبي آخر الزمان ، الجواب نعم ، وهو من أسباب دخول الأنصار في بيعة العقبة الإسلام ، فحينما دعاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن في العقبة في منى أيام موسم الحج في السنة الحادية عشرة للبعثة النبوية ، إذ كان يهود المدينة يشيرون بنبي آخر زمان ، ويتوعدونهم به إذا حدثت وقائع وخصومات ومعارك بينهم .

فحينما التقى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بوفد الخزرج يومئذ سألهم من أنتم .

قالوا : نفر من الخزرج .

وأراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يتأكد من محل سكنهم وانتمائهم وولائهم ، فقال أمن موالي يهود^(١) .

قالوا نعم ، أي أن اليهود كانوا معهم ، وكانت بينهم موثيق وعهود ، ويدل هذا السؤال على إقتراب الخزرج من أهل الكتاب ، وأنهم ليسوا من الذين أطبق عليهم الشرك وعبادة الأوثان .

فلم يقل لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أهل يثرب ، ولم يرجع بهم إلى نسبهم من اليمن ، بل عرفهم بصيغة إيمان لتأكيد الحاجة لبيان أهل الكتاب الميثاق الذي أخذه الله عز وجل عليهم ، قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾^(٢) .

فالخزرج والأوس من الناس الذين ذكرتهم الآية السابقة ، وهذا البيان تأكيد للإيمان الذاتي ، ومقدمة لإيمان الغير .

وكان عدد وفد الخزرج ستة نفر وقد تقدم ذكر أسمائهم^(٣) ليس فيهم من الأوس أحد ، خاصة وأن تبعات وبقايا حرب بُعث لا زالت بينهم ومنها النفرة ، وخشية الغدر والوقعة ، ولم يكن هؤلاء النفر أول من دعاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإسلام من أهل يثرب ، فقد سبقهم أفراد إذ كان الأوس والخزرج يحجون البيت الحرام مع باقي قبائل العرب .

فمثلاً (كَانَ سُؤيدُ بْنُ الصَّامِتِ مِنَ الْأَوْسِ قَدْ قَدِمَ مَكَّةَ فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يُعِدْ وَلَمْ يُجِبْ حَتَّى قَدِمَ

(١) ابن هشام / السيرة النبوية ٤٢٨/١ .

(٢) سورة آل عمران ١٨٧ .

(٣) أنظر الجزء الثاني والعشرين بعد المائتين من هذا التفسير ص ٢٨٥ .

أَنَسُ بْنُ رَافِعٍ أَبُو الْحَيْسَرِ فِي فَتْيَةٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ يَطْلُبُونَ الْحَلْفَ فَدَعَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْإِسْلَامِ فَقَالَ إِيَّاسُ بْنُ مُعَاذٍ وَكَانَ شَابًا حَدَّثًا : يَا قَوْمُ هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا جِئْنَا لَهُ فَضْرِبُهُ أَبُو الْحَيْسَرِ وَانْتَهَرَهُ فَسَكَتَ ثُمَّ لَمْ يَتِمَّ لَهُمُ الْحَلْفَ فَانْصَرَفُوا إِلَى الْمَدِينَةِ ^(١) .

فقال لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أفلا تجلسون أكلمكم .
قالوا : بلى .

لقد علموا أنه يريد أن يحدثهم عن أمر ذي شأن ، ويتعلق بهم ويخصهم ، لبيان أن تعريف النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم بأنهم من موالي اليهود مقدمة لإستجابتهم بالإضاقاة إلى الطلعة البهية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وحضور الوحي معه .

عند سؤاله لهم ودعوته ليكلّمهم من الوحي ، وهو أنسب للإلتفات والتدبر في الأمر ، وإمكان الجدال والإحتجاج والسؤال فيه ، وفيه شاهد بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يخشى من السؤال وطلب البينة التي تدل على صدق نبوته .

فسأل الوفد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من أنت .
فجاء جوابه على قسمين :

الأول : بيان الإنتساب ، وهل ذكر آباءه كلهم في هذا الإنتساب ، المختار لا ، إنما ذكره اسمه واسم أبيه واسم جده بما يكفي للتعريف ، وقد خطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوماً في المدينة بعد الهجرة وذكر أسماء آبائه مع عظيم المنزلة التي رزقهم الله عز وجل ، إذ ورد (عن أنس قال : خطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد

مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار .

وما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما ، فأخرجت من بين أبوي فلم يصبني شيء من عهد الجاهلية ، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم ، حتى انتهيت إلى أبي وأمي ، فأنا خيركم نفساً وخيركم أباً^(١) .

الثاني : إخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم الخزرج بأنه نبي آخر الزمان ، فجلسوا معه ، وصاروا ينصتون إليه ، فدعاهم إلى التوحيد ، وعبادة الله وحده ، وعرض عليهم الإسلام ، ومنه الصلاة اليومية ، وأداء الحج ، ولم تكن الزكاة والصيام قد فرضا بعد ، إذ أنهما فرضا في السنة الثانية للهجرة .

ثم تلا عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم آيات وسوراً من القرآن ، وكانت السور المكية تتصف بالقصر ولغة الإنذار والوعيد ، وهي سهلة الحفظ ، لتكون الهدية والتحفة التي ينقلها هذا الوفد إلى المدينة يثرب .

كما كان أفراد القبائل وأهل مكة ينقلونها إلى الناس ، فحينما قالت الآية السابقة للذين أوتوا الكتاب ﴿لَيُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ﴾ وقصرت طائفة في البيان قام الناس من مسلمين وغيرهم بجانب من البيان بنقل سور وآيات القرآن إلى عامة الناس .

لقد تلقى هؤلاء نفر ما ذكر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لهؤلاء نفر بالقبول ، واستصحبوا ما كان اليهود يتحدثون به عن نبي آخر زمان ، فاطمأنت قلوبهم ، وصاروا يصغون بانتباه وتلهف لما يقوله النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وتأملوا

شمائل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأحواله فقال بعضهم لبعض (تَعْلَمُونَ وَاللَّهِ يَا قَوْمِ أَنَّ هَذَا الَّذِي تَوَعَّدُكُمْ بِهِ يَهُودُ فَلَا يَسْبِقَنَّكُمْ إِلَيْهِ) ^(١).

ولم يكن وفد الخزرج هو أول وفد يحدثهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بل كان يجدد الإتصال مع وفود الحاج على مداخل مكة وفي منى لتحذر الناس من اللقاء بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والإستماع له .

ويدل هذا اللقاء على وجود ساعة غفلة عند قريش ، يتصل بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأفراد من وفد الحاج ، وهو من فضل الله تعالى ، ومن مقدمات بعثته التي تفضل الله عز وجل بها جعل اشهر الحج حرماً ، قال تعالى ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ^(٢) ، وسيأتي قانون (الأشهر الحرم مقدمة لبعثة النبي محمد) (قانون الأشهر الحرم شاهد على استغناء النبي (ص) عن الغزو).

يدخلون مكة للعمرة أو التجارة أو زيارة الأرحام كوسيلة لترغيبهم بالإسلام وإخبارهم بما هو حق وصدق ، وكذا يبينه لوفود القبائل التي تأتي للحج إذ يعرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه عليهم ، ومنهم :

الأول : بَنُو عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ .

الثاني : مُحَارِبُ بْنُ حَصَفَةَ .

(١) زاد المعاد ٣/ ٣٨.

(٢) سورة التوبة ٣٦.

الثالث: فَزَارَةُ .

الرابع: غَسَّانُ .

الخامس: مَرَّةُ .

السادس: حَنِيفَةٌ .

السابع: سَلِيمُ .

الثامن: عَبَسَ .

التاسع: بَنُو النَّضْرِ .

العاشر: بَنُو الْبَكَاءِ .

الحادي عشر: كَنْدَةُ .

الثاني عشر: كَلْبٌ .

الثالث عشر: الْحَارِثُ بْنُ كَعْبٍ .

الرابع عشر: عَذْرَةٌ .

الخامس عشر: الْحَضَارِمَةُ .

فَلَمْ يَسْتَجِبْ مِنْهُمْ أَحَدٌ^(١) .

وكان هؤلاء النفر من وجهاء أهل يثرب ، فأخبروا النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بأنهم يرجعون إلى قومهم ويذكرون لهم دعوته للإسلام ، وبعثته ونبوته ، وأنهم يرجون الإستجابة منهم ، كما أخبروه بوجود خصومة بين الأوس والخزرج ، ومن الآيات إدراكهم لقانون وهو وقوع الصلح بينهم بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو الذي حصل .

وزاد الله عز وجل عليهم من فضله بما يفوق التصور الذهني ، فلا يعلم هؤلاء الوفد بأن القرآن سيخلدهم في الدنيا والآخرة بلغة الثناء والمدح .

وهل كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يعلم هذا الخلود يوم التقى بهم لعمومات قوله تعالى ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾^(١) وقوله تعالى ﴿لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾^(٢).

به^(٣).

المختار أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعلم إجمالاً المنزلة الرفيعة التي ينالها السابقون للتصديق برسالته ، وكان يبين هذا الأمر لقريش ، ويذكر منزلتهم في الجنة ، ومنه حديث عبادة بن الصامت أدناه ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٣) ومن معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم شيوع

الإسلام في المدينة بعد عودة هؤلاء النفر الستة إليها من جهات :

الأولى : عدم ديبب الشك إلى نفوس هؤلاء النفر بعد مفارقتهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو بعد مغادرتهم مكة .

الثانية : إعراض هذا الوفد عن إفتراء قريش على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن ، لبيان قانون وهو إنجذاب الذين يلتقون مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الهدى والإيمان .

الثالثة : نشر خبر لقاء الوفد مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بلغة التصديق بنبوته .

الرابعة : تلاوة آيات القرآن في متديات ومجالس وأسواق المدينة.

الخامسة : عدم صدور الشكوك والإفتراء من يهود المدينة ، بخلاف ما كانت قريش تقوم به .

(١) سورة طه ١١٤.

(٢) سورة القيامة ١٦.

(٣) سورة الإسراء ١٠٥.

السادسة : تلقي شطر من أهل المدينة الدعوة إلى الإسلام بالرضا والقبول .

السابعة : دخول آيات القرآن وأخبار نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى كل بيت من بيوت المدينة .

وفي السنة التالية في موسم الحج في السنة الثانية عشرة للبعثة النبوية الشريفة قدم وفد من الأوس والخزرج وعددهم اثنا عشر رجلاً ، وقد تقدم ذكر أسمائهم^(١) .

وقال عبادة بن الصامت فيما بعد (بايعنا رسول الله صلى الله عليه وآله على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفرض الحرب: على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزنّي، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفترينه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلکم الجنة وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمرکم إلى الله عز وجل، ان شاء عذب وإن شاء غفر)^{(٢)(٣)} .

النسبة بين أهل الكتاب والذين أوتوا الكتاب

قد يتبادر إلى الذهن أن النسبة بينهما هي التساوي ، والقصد من كل من الاسمين ذات المصداق والمسمى ، ولكن من إعجاز القرآن وجود فرق على نحو الموجبة الجزئية بين الاسمين .

وورد أحد الاسمين دون الآخر من جهات :

الأولى : موضوع الآية الكريمة التي يرد فيها هذا الاسم .

الثانية : دلالة الاسم .

الثالثة : صلة الآية بالآيات المجاورة ، وغالباً ما يأتي لفظ ﴿أوتوا

الْكِتَابِ﴾ للإنذار .

(١) أنظر الجزء الثاني والعشرين بعد المائتين من هذا التفسير ص ٢٨٤ .

(٢) البحار ٣٦٧/٨٨ .

(٣) المتنظم ٢٧٢/١ .

والمختار أن النسبة بينهما العموم والخصوص المطلق ، وأن الذين أوتوا الكتاب أعم زماناً وكتاباً ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾^(١) .

ويدل عليه بيان القرآن لطول الأمد ، قال تعالى ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾^(٢) أي طول المدة وإنشغالهم بالملذات واقبالهم على الدنيا ، وطول الفترة بين البشارة بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبين تحقيق المصداق ببعثته صلى الله عليه وآله وسلم إذ كانت فترة خالية من الرسل بين عيسى عليه السلام والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم نحو ستمائة سنة .

والنسبة بين لفظ (أتى) ولفظ (جاء) العموم والخصوص المطلق ، إذ يدل الإتيان على تحقق الوقوع والتلقي والإستسلام ، أما جاء فانه إخبار عن الوصول كما في قوله تعالى ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾^(٣) وقد يرد أحدهما محل الآخر .



(١) سورة النساء ١٣١.

(٢) سورة الحديد ١٦.

(٣) سورة الأنفال ١٩.

قانون إقامة الصلاة في كل دقيقة

من الإعجاز في أوقات الصلاة ارتباطها بالآيات الكونية كطلوع الفجر ، وزوال الشمس وأوان الغروب ، فلا تمر دقيقة على الأرض إلا ويكون هناك :

الأول : من يرفع الأذان لحلول وقته .

الثاني : من يقيم للصلاة .

الثالث : من يصلي صلاة الصبح لطلوع الفجر .

الرابع : من يصلي صلاة الظهر لحلول الزوال في بلدته أو قريته في ذات الوقت الذي يصلي فيه شخص وجماعة آخرون صلاة الصبح .

الخامس : من يصلي صلاة العصر .

السادس : من يصلي صلاة المغرب .

السابع : من يصلي صلاة العشاء .

وكل فرد من الوجوه أعلاه تكون الصلاة القائمة في تلك الدقيقة جماعة أو فرادى .

وهو من الإعجاز في دوران الأرض وسير الشمس والقمر ، والتباين في الأوقات ، وآنات الليل والنهار بين بقاع الأرض بتسخيرها للعبادة والذكر إلى جانب النفع العام منها ، وكذا بالنسبة لإقامة الصلاة في البحار بواسطة البحارة ، وفي الجو في الطائرات ونحوها .

وسيأتي يوم قريب تؤدي الصلاة في الفضاء والكواكب السماوية الأخرى ، وهل هذه الصلاة من خلافة الإنسان في الأرض ، الجواب منها ومما علم الله عز وجل الإنسان من العلوم وما زاد عليه من فضله وإحسانه ، ففي كل دقيقة من دقائق الليل والنهار هناك من يؤدي الصلاة في جهة وبقعة من الأرض ، وهو من أسرار وتقسيم الصلاة على الفرائض الخمسة ، وجعل وقت مخصوص لكل صلاة ،

وهل هذه الصلاة وكيفيتها الزمانية من الميثاق الذي أخذه الله عز وجل على الناس ، الجواب نعم .

وإن لم يأت بلفظ الميثاق ، فيتوجه إلى المسلمين في مشارق ومغارب الأرض قوله تعالى ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾^(١) لبيان أن تعيين أوقات الصلاة من الميثاق الذي أخذه الله عز وجل على المسلمين ، ومن قبل أخذ الله عز وجل ميثاق الصلاة على أهل الكتاب ، قال تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢) فجاء الوحي في أول الآية بصيغة التثنية بينما ورد الأمر بالصلاة بصيغة الجمع ﴿ أَقِيمُوا ﴾.

ومن الميثاق أمر الأنبياء لأهلهم باقامة الصلاة ، قال تعالى ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾^(٣) ، ثم تضمن القرآن الدم والتبكيك لذرية الأنبياء والمؤمنين التي تركت الصلاة ، قال تعالى ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾^(٤) ، ويدل قوله تعالى ﴿ وَمَنْ هَدَيْتَنَا وَاجْبَيْنَا إِذَا تَلَّيْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾^(٥) ، على شمول ذرية غير الأنبياء المؤمنين والصالحين في الآية الأخيرة.

(١) سورة هود ١١٤.

(٢) سورة يونس ٨٧.

(٣) سورة مريم ٥٤-٥٥.

(٤) سورة مريم ٥٩.

(٥) سورة مريم ٥٨.

وكذا بالنسبة للنصارى ، كما ورد حكاية عن عيسى عليه السلام في التنزيل ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا* وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا* وَالسَّلَامُ عَلَيَّ وَمَ وَلَدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾^(١) .

ليبان تعدد الميثاق ، وأن من ميثاق عيسى عليه السلام البر بوالدته ، وهو من إعجاز القرآن إذ ورد بالبر بالوالدين ، فبينت الآية خصوص البر بالوالدة لأن عيسى ليس له أب .

وهل تتضمن الآية الإشارة في هذا الزمان وما بعده إلى الإستنساخ البشري ، ونشوء الجنين من غير أب ، الأقرب نعم ، لبيان وجوب عدم خروجه عن الضوابط الشرعية .

لقد أراد الله عز وجل من إقامة أهل الأرض الصلاة في كل دقيقة تمر عليها علة لإستدامة الحياة ، وتوالي نزول الرزق على الناس ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢) فلا بد أن تكون هناك عبادة لله في الأرض ، لبيان قانون وهو أن قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣) .

أي وما أرسلناك إلا ليصلي المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها فتستديم الحياة ، إذ تكون هذه الصلاة رحمة بالعالمين ، لذا نزل القرآن بالتأكيد على الصلاة ووجوبها في تثبيت الصلاة وتعليم المسلمين كيفية أدائها .

ومن أهم صيغ التعليم هذا أداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة خمس مرات جماعة ، ولم يوكل إمامة الصلاة إلى أهل البيت والصحابة .

(١) سورة مريم ٣١-٣٣ .

(٢) سورة الذاريات ٥٦ .

(٣) سورة الأنبياء ١٠٧ .

وعن أبي حازم أنه كان يرى سهل بن سعد (يقدم فتيانا من فتيان قومه فيصلون به ، فقلت : أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولك من الفضل والسابقة تقدم هؤلاء الصبيان ، فيصلون بك أفلا تتقدم وتصلني لقومك .

فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : إن الإمام ضامن ، فإن أتم كان له ولهم ، وإن نقص كان عليه ولا عليهم ، فلا أريد أن أتحمل ذلك^(١).

والضمان هنا بمعنى التعاهد وحفظ أمانة الأداء ، وإتقان الصلاة ، وكفالة بعض أجزاء الصلاة مثل التلاوة ، إذ تجب على الإمام ولا تجب على المأموم .

ومن الإعجاز في الأذان أنه مقدمة للصلاة ، ودعوة للإنقطاع فيها إلى الله عز وجل ، والتخلي عن الدنيا وزينتها ، وهولاء سلام يجهر به ، فبدل أن يرفع المسلم هذا اللواء يعلن بالأذان أنه ضد الإرهاب ، وأنه يمتنع عن ترويع الناس ، إنما يدعوهم بالأذان إلى الإطمئنان له ، والإلتجاء إلى الذكر .

وهل الأذان من الميثاق الذي تذكره الآية السابقة ، الجواب إنه من الميثاق بمعناه الأعم ، وذات الأذان ميثاق وعهد ، وقد ورد عن النبي ما فيه ثناء على المؤذن إذ قال عليه السلام (الإمام ضامن ، والمؤذن مؤتمن ، اللهم أرشد الأئمة ، واغفر للمؤذنين)^(٢).

ومن خصائص كل من الأذان والصلاة وجوه :

الأول : التذكير بالميثاق .

الثانية : وجوب العمل بالميثاق .

(١) المستدرك على الصحيحين ٢/٢٩١.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني ٢٠/٣٣٦.

الثالث : ذات الصلاة امتثال للميثاق ، وهل الأذان كذلك ،
الجواب نعم .

وهل تطبق القاعدة الأصولية وجوب المقدمة لوجوب ذبيها على رفع
الأذان قبل عند حلول وقت الصلاة ، كأذان الظهر ، الجواب لا ، إنما
وردت النصوص بخصوصه وهو مستحب ، نعم من مصاديق القاعدة أعلاه
وجوب الوضوء لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا
وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ
كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ
الْمَاطِئِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا
يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ﴾^(١).

أقسام ميثاق النبوة

من وظائف الأنبياء أمور :

الأول : تلقي الميثاق بالقبول والرضا .

الثاني : إظهار الميثاق ، وتكرار إعلانه .

الثالث : بيان بنود وتفصيل الميثاق للناس .

الرابع : تأديب الأنصار والأتباع على العمل بالميثاق .

الخامس : تلقي الأذى في سبيل الله بصبر ، وفيه الثواب العظيم ،

قال تعالى ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾^(٢) ، ويأتي الثواب

على كل من :

الأول : تحمل أعباء الميثاق .

(١) سورة المائدة ٦ .

(٢) سورة الأحقاف ٣٥ .

الثاني : الصبر على الأذى في سبيل الله .

وهل كانت معارك الإسلام الدفاعية في بدر وأحد والخندق وحنين من الأذى في سبيل الله ، الجواب نعم ، لذا كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا يبدأ قتالاً ، ولا يرضى لأصحابه الإبتداء بالقتال أو الرمي ، إنما كان ينادي بين الصفين (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا).

ترى هل يدرك الفلاح الذي ذكرتهم آية البحث بصيغة الذم وكيف يدركهم ، الجواب نعم بالتوبة ، وكشف بشارات الأنبياء برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتدبر باعجاز القرآن ، وفعل الواجب وترك الحرام .

وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (ما من إنسان يتوب إلى الله عز وجل قبل أن تغرغر نفسه في شذقه إلا قبل الله توبته) ^(١).

وهل يختص الأجر والثواب على تحمل الميثاق والصبر عليه ، والعمل بمضامينه في عالم الآخرة ، الجواب لا ، إنما يشمل الأجر والثواب وتوالي نعم ، والوجاهة والعز في الدنيا .

لقد أخبرت آية البحث عن عدم نجاة الذين كفروا وجحدوا من العذاب في الدنيا والآخرة ، فمن باب الأولوية مسارعة الثواب للمؤمنين حملة الميثاق ، ويكون إخلاصهم وتقواهم سبباً لتوبة أهل آية البحث .

وهو دعوة لأصحاب الأنبياء واتباعهم بالثبات على الميثاق ، والإجهار به ، إلا أن يكون هذا الإجهار معارضاً بأحكام التقية من الذين كفروا .

السادس : تجلي الميثاق في قول وعمل النبي والرسول ، وتأتي المعجزة لتعضد الميثاق ، وتدعو الناس للتمسك به .

السابع : تبليغ الأنبياء الناس بالميثاق ، وحب الله عز وجل لمن يعمل بالميثاق .

من نعم الله عز وجل على أهل الأرض فضله بالنبوة ، ونزول الوحي على مائة وأربعة وعشرين ألف نبي ورسول ، وهذا الفضل متجدد شاء الله عز وجل أن يقيه مستديماً وتوليداً برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو من أسرار نزول القرآن بالشهادة من عند الله بالنبوة والتنزيل ، وتفضل الله عز وجل وذكر قصص خمسة وعشرين نبياً .

وكل قصة تتضمن الدلالة على الميثاق من جهات :

الأولى : الميثاق بين الله والأنبياء ، وفي التنزيل ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ^(١) .

الثانية : الميثاق بين الله والناس بواسطة الأنبياء ، قال تعالى ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ^(٢) .

الثالثة : الميثاق بين الأنبياء وبين أتباعهم لذا جاءت صفة (أهل الكتاب) وللميثاق موضوعية فيها .

الرابعة : الميثاق والمعاهدة بين النبي وأهل الكتاب كما في معاهدات النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع يهود المدينة

الخامس : الميثاق والعهد بين اتباع الأنبياء وهو على قسمين :

الأول : الميثاق بين أهل الملة الواحدة كاليهود والنصارى والمسلمين .

الثاني : الميثاق بين أهل الملل المتعددة .

لذا جاء القرآن بالتأكيد على حفظ المواثيق والعهود .

(١) سورة آل عمران ٨١ .

(٢) سورة الأعراف ١٦٩ .

الخامسة : العهد والميثاق بين النبي والمشركون ، وتجلّى في السنة القولية والفعلية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من وجوه :

الأول : صبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أذى المشركين في مكة قبل الهجرة .

الثاني : موادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الطوائف وقبائل من المشركين حول المدينة .

وفي كتيبة ودان (قال ابن إسحق فوادعته فيها بنو ضمرة وكان الذي وادعه منهم عليهم مخشى بن عمرو الضمرى وكان سيدهم في زمانه ذلك ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة ولم يلق كيدا) ^(١).

ولا دليل على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أراد الغزو في خروجه في كتيبة ودان هذه والتي تسمى أيضاً الأبواء .

الثالث : معاهدة و صلح النبي مع عامة الناس ، وقد أجرى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الصلح مع المشركين في الحديبية ، ووصفه الله عز وجل بأنه فتح ، إذ قال تعالى ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴾ ^(٢).

ومن الدلائل على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يقصد قریشاً في كتيبة ودان ، إلا عند توجهه إلى مكة لفتحها بعد أن نقض المشركون ميثاق صلح الحديبية ، بينما كانت كتيبة ودان في شهر صفر من السنة الثانية للهجرة ، أي قبل معركة بدر بسبعة شهور ، وكانت الغاية منها على وجوه :

(١) عيون الأثر ١/ ٢٩٥.

(٢) سورة الفتح ١-٣.

الأول : الدعوة إلى الله عز وجل .

الثاني : استكشاف ما حول المدينة من الطرق .

الثالث : تنبيه وإنذار القبائل المحيطة بالمدينة من إعانة قريش ، إذا قاموا بالهجوم على المدينة ، وغزوها .

الرابع : إقامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الصلاة على أفواه ومداخل القرى ، وفيه مسائل :

الأولى : بيان صبغة السلم التي جاء بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

الثانية : عرض الإسلام وأحكامه ، لتكون كتائب النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مصاديق قوله تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾^(١) .

الثالثة : ترغيب الناس بأداء الفرائض .

الرابعة : إنصات الناس لقراءة القرآن وسماعهم للأذان وما تدل عليه فصوله ، وابتدائها بتكرار التكبير ثم الشهادة بالتوحيد ثم التصديق بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، لبيان قانون الأذان شاهد على السلم والأمن .

وهل من صلة بين تكرار كل فصل من فصول الأذان وبين تكرار ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ في آية البحث ، الجواب نعم ، إذ يطرد كل منهما وتكراره الغفلة والجهالة عن الناس .

الخامسة : تقريب الناس إلى منازل الإيمان ، ومن منافع هذا التقريب بعثهم على الإعراض والعزوف عن نصرّة مشركي قريش ، وهو الذي تجلّى في تعاقب الأحداث ، وخارطة المعارك بينهم وبين النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

آيات معركة الأحزاب

بعد أن قام المشركون بالهجوم والإصرار على القتال في معركة بدر في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وبعد أن غزا المدينة ثلاثة آلاف من المشركين في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة ووقعت معركة أحد عند مشارفها ، وبعد أن قام عشرة آلاف من المشركين بغزو المدينة في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة في معركة الأحزاب ، وتسمى أيضاً معركة الخندق ، تلك المعركة التي سماها الله عز وجل الأحزاب ، وبيان أن المشركين هم الغزاة، وأن المسلمين كانوا في حصار وخوف لولا فضل الله في آيات عديدة من القرآن ، ومع هذا يسميها المفسرون والعلماء بأنها غزوة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وتبين آيات معركة الأحزاب أن المشركين هم الغزاة ، ومن هذه الآيات :

الأولى: قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾^(١).

الثانية: قوله تعالى ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونُ﴾^(٢).

الثالثة: قوله تعالى ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾^(٣).

الرابعة: قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾^(٤).

(١) سورة الأحزاب ٩.

(٢) سورة الأحزاب ١٠.

(٣) سورة الأحزاب ١١.

الخامسة : قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْإِفْرَارَ﴾ (٢).

السادسة : قوله تعالى ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُلِوا الْفِتْنَةُ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّوْا بِهَا إِلَّا سِيرًا﴾ (٣).

السابعة : قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدُّبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ (٤).

الثامنة : قوله تعالى ﴿قُلْ لَنْ يُنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْغُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٥).

التاسعة : قوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهْمٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٦).

العاشرة : قوله تعالى ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٧).

(١) سورة الأحزاب ١٢.

(٢) سورة الأحزاب ١٣.

(٣) سورة الأحزاب ١٤.

(٤) سورة الأحزاب ١٥.

(٥) سورة الأحزاب ١٦.

(٦) سورة الأحزاب ١٧.

(٧) سورة الأحزاب ١٨.

الحادية عشرة : قوله تعالى ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾^(١).

الثانية عشرة : قوله تعالى ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابَ يَوَدُّوا لَوَأْتَهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢).

الثالثة عشرة : قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(٣).

الرابعة عشرة : قوله تعالى ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾^(٤).

الخامسة عشرة : قوله تعالى ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾^(٥).

(١) سورة الأحزاب ١٩.

(٢) سورة الأحزاب ٢٠.

(٣) سورة الأحزاب ٢١.

(٤) سورة الأحزاب ٢٢.

(٥) سورة الأحزاب ٢٣.

السادسة عشرة : قوله تعالى ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(١).

السابعة عشرة : قوله تعالى ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾^(٢).

قريش والميثاق

لقد كانت قريش أهل تجارة يرحلون إلى الشام حيث النصارى ، وإلى اليمن حيث المجوس ، وإلى يثرب حيث اليهود من بين سكان تلك الأمصار ، وقد وثق القرآن هذه الرحلات بسورة مكية كاملة ، قال تعالى ﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٌ * إِلَّا فِيهِمْ رَحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾^(٣).

ومن إعجاز هذه السورة أنها وثيقة سماوية تاريخية تبين منزلة وشأن قريش بين الأمم ، وأنهم على معرفة بأحوال الناس والممل السائدة ، ويعلمون شيوع عقيدة التوحيد والنبوة ، ويتفرع عن هذا الشيوع حديث أهل العلم والسياسة عن نبوة آخر زمان ، وحلول أوانها وتجلي علاماتها .

ومع هذا فان قريشاً تعكف على عبادة الأوثان ، وتجدد هذا التباين في أغلب الأزمنة ، لذا نزل القرآن بدم المشركين لإصرارهم على الإقامة على ما كان عليه آبائهم من عبادة الأوثان ، والإعراض عن الرسالة السماوية ، كما ورد في التنزيل ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا

(١) سورة الأحزاب ٢٤ .

(٢) سورة الأحزاب ٢٥ .

(٣) سورة قريش ١-٤ .

وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١﴾

ولم تقف قریش عند الکفر بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بل جهزوا الجيوش لمحاربتة وقتاله ، ولم ينفعهم إختلاطهم مع النصرارى واليهود ، ولم يتدبروا في معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ولم يستحضر وقد ورد في التوراة البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأوصافه التي تذكر من قبل أهل الكتاب .

(٤٢: ١ هو ذا عبدي الذي اعضده مختاري الذي سرت به نفسي وضعت روحي عليه فيخرج الحق للامم

٤٢: ٢ لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته

٤٢: ٣ قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة خامدة لا يطفئ الى

الامان يخرج الحق

٤٢: ٤ لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الارض و تنتظر

الجزائر شريعته

٤٢: ٥ هكذا يقول الله الرب خالق السماوات و ناشرها باسط

الارض و نتائجها معطي الشعب عليها نسمة و الساكنين فيها روحا

٤٢: ٦ انا الرب قد دعوتك بالبر فامسك بيدك و احفظك و

اجعلك عهدا للشعب و نورا للامم

٤٢: ٧ لتفتح عيون العمي لتخرج من الحبس الماسورين من بيت

السجن الجالسين في الظلمة

٤٢: ٨ انا الرب هذا اسمي و مجدي لا اعطيه لآخر و لا تسيحي للمنحوتات).

ومعنى (لا اعطيه لآخر) بيان بأن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النبيين ، وفيه إنذار للمشركين لأن المراد من المنحوتات الأصنام .

ولا يرفع النبي صلى الله عليه وآله وسلم صوته ، وفيه بيان لحسن خلق النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو مصداق لقوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١) ، وفيه إشارة إلى رحمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمساكين والضعفاء ، وكان يقرب المؤمن وان كان فقيراً ، وفيه شاهد على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يغز أحداً .

وفي سفر صفنيا (٣: ٩) لاني حيثذ احول الشعوب الى شفة نقية ليدعوا كلهم باسم الرب ليعبدوه بكتف واحدة)^(٢).

ليان تعاهد المسلمين لسنن التوحيد إلى يوم القيامة.

وللبيان والإنصاف أن رهطاً من قريش دخلوا الإسلام وصدقوا بمعجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لذا حينما برز ثلاثة من رجال قريش للمناجزة بين الصفين يوم بدر وهم عتبة بن ربيعة وأخوه شيبه وابنه الوليد بن عتبة ، وبرز لهم ثلاثة من شباب الأنصار ، لم يرضوا بهم ، وقالوا (مَا لَنَا بِكُمْ مِنْ حَاجَةٍ . ثُمَّ نَادَى مُنَادِيهِمْ يَا مُحَمَّدُ أَخْرِجْ إِلَيْنَا أَكْفَاءَنَا مِنْ قَوْمِنَا)^(٣) .

وفي رواية : أكفاءنا من بني عمناء .

(١) سورة ن ٤.

(٢) موسوعة الكتاب المقدس ٣/٣١٨.

(٣) السيرة / ابن هشام ١/٦٢٥.

وفي رواية (وقالوا: يا محمد أخرج إلينا أكفأنا من قريش، فتناولت الانصار لمبارزتهم، فدفعهم النبي صلى الله عليه وآله، وأمر علياً وحزمة وعبيدة بالمبارزة)^(١).

ليجتمع على الكفار أسباب سرعة الهلاك من جهات :
الأولى : الكفر والإجهار به .

الثانية : الجحود برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .
الثالثة : تجهيز الجيوش والزحف لمحاربة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع إنتفاء السبب لهذا الزحف ، إذ جعلوا نبأ تعرض النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لقافلة أبي سفيان سبباً للنفي والخروج من مكة .

ولكن أبا سفيان أرسل لهم رسولاً آخر يخبرهم بسلامة القافلة وتوجهها نحو مكة ، وطلب منهم أن يرجعوا لإنتفاء سبب الخروج ، ولكن بعض قادتهم أصروا على التوجه نحو ماء بدر .

الرابعة : المناجزة والبروز والتبخر بين الصفين ، وأشهار السيوف وطلب المبارزة ، ولم تكن سيوف رجالات قريش صدئة أو بالية ، بل كانوا يختارون أحد السيوف وأمتن الدروع ، وأسمك الخوذ ، وصحيح أن مدة النفير إلى معركة بدر كانت ثلاثة أيام وهي مدة قليلة إلا أنها كافية لاعدادهم الأسلحة .

وكان الحدادون ينشطون في تلك الأيام ، وهل يؤثم هؤلاء الذين أصلحوا سيوف ودروع قريش لمحاربة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الجواب نعم ، لأنه من الإعانة على الإثم ، وهو حرب على الله ورسوله .

ولو كان الحداد مسلماً ويخفي اسلامه بين مشركي قريش فهل يؤثم أيضاً ، الجواب نعم ، لوحدة الموضوع في تنقيح المناط ، ، قال

تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(١).

وتبين الآية أعلاه مصداقاً للملكية المطلقة لله عز وجل للأرض والسماء ، بأنه لو أراد أحدهم الهجرة يسر الله له السبيل .
فان قلت قد قامت قريش بحبس نفر من الصحابة أرادوا الهجرة وتعذيبهم وفرض الإقامة الجبرية على بعضهم مثل الوليد بن الوليد ، وعياش بن ربيعة ، وهشام بن العاص .

والجواب هؤلاء الصحابة لم يساعدوا قريشاً في هجومهم وقتالهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بل كان عبئاً ثقيلاً على قريش ، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدعو لهم على نحو خاص ويدعو لعامة المؤمنين المستضعفين بالنجاة ، كما قام بارسال بعض الصحابة لإنقاذهم .

(فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خبر بئر معزنة، جاء معها من ليلة واحدة مصابهم ومصاب مرثد بن أبي مرثد، وبعث محمد بن مسلمة .

فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: هذا عمل أبي براء، قد كنت لهذا كارهاً. ودعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على قتلهم بعد الركعة من الصبح، في صبح تلك الليلة التي جاءه الخبر .

فلما قال: سمع الله لمن حمده!

قال: اللهم اشدد وطأتك على مضرا .

اللهم عليك ببني لحيان وزعب ورعل وذكوان وعصية، فإنهم عصوا الله ورسوله .

اللهم عليك ببني لحيان وعضل والقارة، اللهم، أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن ابن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين .

غفارٌ غفر الله لها، وأسلم سالمها الله! ثم سجد.
فقال ذلك خمس عشرة، ويقال أربعين يوماً، حتى نزلت هذه الآية ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾^(١) ^(٢).

قانون الهجرة تثبيت للفرائض العبادية

لقد جاء الحَضُّ على الهجرة من وجوه :

الأول : الإقتداء بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في هجرته ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(٣).

الثاني : الترغيب بالهجرة لحسن إيواء واستضافة الأنصار للمهاجرين .

الثالث : ملاقة المسلم والمسلمة المشقة في أداء الصلاة والفرائض العبادية الأخرى في مكة ، والسعة والمندوحة في أدائها في المدينة.

لقد كان المسلمون في مكة يؤدون الصلاة قبل هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبعدها أما بالنسبة لفريضة الصيام فإنها فرضت في السنة الثانية للهجرة في المدينة ، هل يلزم الصيام المسلمين الذين في مكة والذي لم يهاجروا بعد سواء من أهل مكة أو غيرها من المدن أو القرى ، الجواب نعم .

(١) سورة آل عمران ١٢٨.

(٢) ومغازي الواقدي ١/١٣٥.

(٣) سورة الاحزاب ٢١.

وهو من الإعجاز في إبتداء آيات الصيام ببدء الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا مِن طَبِئَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾^(١)، إذ يدل هذا النداء على إرادة عموم المسلمين والمسلمات .

ولو صام المسلمون في مكة فقد يجدون مشقة وأذى من الكفار بينما يصوم المهاجرون والأنصار في المدينة بغبطة ورضا ، لبيان قانون منافع الهجرة ، وفيه شاهد على حاجة النبي وأهل بيته وأصحابه وأجيال المسلمين للهجرة النبوية المباركة .

الرابع : الفوز بالثواب العظيم عند إختيار الهجرة ، ونزول آيات القرآن التي تبعث على الهجرة والصبر عليها ، قال تعالى ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يُنْفِقُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾^(٢).

قانون إزاحة عوائق الهجرة

لقد تفضل الله في إزاحة العوائق عن الهجرة ، وقد بذل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم جهوداً مضنية لإعانة أصحابه على الهجرة ، ومن الآيات أن الأنصار لم يظهروا كدورة أو ضيقاً من كثرة توافد المهاجرين إلى المدينة مع قلة الموارد فيها ، وكان أكثر المهاجرين شبه عاطلين إذ أنهم لا يحسنون العمل بالفلاحة ، بينما يعتمد أهل المدينة على الزراعة ويقومون بالحرث والسقي والعناية بالنخيل .

وإلى هذا الزمان ينفرد أناس قلائل بالصعود إلى النخيل وتلقيحها ثم جني الرطب والتمر منها ، ويكون الذي يصعد النخيل

(١) سورة البقرة ٢٦٧.

(٢) سورة الحشر ٨.

حاذقاً حذراً ، ومعه جبل غليظ يجمع بينه وبين جذع النخلة ليصعد عليه النخل ، ويسمى الكرّ -بفتح الكاف- والجمع كرور. و(الكرّ: الجبل الغليظ، وهو أيضاً جبل يصعد به على النخل، قال أبو الوازع :

فإن يك حاذقاً بالكرّ يغنم ... يبانع معوها أثر الرقي^(١).

ويسمى هذا الجبل الحلفة ويسمى المصعاد .

قال صاحب بن عباد (والمصعاد: الكرّ يُصعدُ به النخل)^(٢).

فالتجأ أكثر المهاجرين العزاب إلى الصفة وهي ظلة من جريد النخل ، أمر بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بجوار المسجد من جهة الركن الشمالي الشرقي ، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتفقد أهل الصفة ، ويجالسهم ، ويحيب على استئلتهم ويأتي لهم بما يكون عنده من الطعام ، كما يقوم عدد من الأنصار بأخذ جماعة منهم إلى بيوتهم للغذاء أو العشاء ، ويأتون بأقناء الرطب فتعلق بالمسجد النبوي ليأكلوا منها ، ورغب الله عز وجل باكرامهم واطعامهم ، قال تعالى ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تَتَّقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾^(٣)، ومن الإعجاز في بناء هذه الظلة أمور :

الأول : حضور المهاجرين الصلوات الخمس مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

الثاني : توجه أهل الصفة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالسؤال ، وتفقههم في الدين .

(١) العين ٤٢٤/١ .

(٢) المحيط في اللغة ٥٣/١ .

(٣) سورة البقرة ٢٧٣ .

الرابع: تعلم أهل الصّفة تعليم بعضهم بعضاً ، والتعليم عند الأنصار .

الخامس: واستعداد أهل الصّفة للخروج للدفاع ، في الحال عند سماع نبأ قيام المشركين بغزو المدينة فلا يلزم الذهاب إلى بيوتهم وما يستغرق الذهاب والنداء والمجيئ من وقت .

وهل مؤاخاة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بين المهاجرين والأنصار بعد وصوله إلى المدينة من أسباب إزاحة العوائق عن الهجرة ، الجواب نعم ، لما فيه من الترغيب بالهجرة من داخل المدينة ، ومحل المأوى ، فلا يشيع الذين كفروا زوراً بأن المهاجرين في حال بؤس وفقر وجوع في المدينة .

ومع إزدياد أعداد المهاجرين إلى المدينة ، وضيق أزقتها بهم فان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يلجأ إلى افتعال المعارك والحروب والإستيلاء على الغنائم ، إنما كان سلاحه أداء الصلاة خمس مرات في اليوم ، والحرص على تفقه أصحابه في الدين ، والتسليم بأن الله هو ﴿الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾^(١) .

ومن الإعجاز أن الكلمات أعلاه آية مستقلة فهي قانون من الإرادة التكوينية ، ولم يرد اسم ﴿الْمَتِينُ﴾ في القرآن إلا في الآية أعلاه .

إعجاز الآية الذاتي

مع قلة كلمات آية البحث فقد وردت فيها واو الجماعة خمس مرات ، واسم موصول ، والضمير (هم) ، وهل كلها لطائفة واحدة من الناس تتصف بالفرح بما فعلوا خلاف الحق ، وحبهم للثناء عليهم من غير استحقاق ، أم يشترك معهم من يتصف ببعض هذه الصفات المذمومة .

المختار هو الثاني ، وهو من إحاطة كلمات القرآن المحدودة باللا محدود من الوقائع والأحداث .

تبين الآية قانوناً وهو حب الإنسان لأن يثنى عليه ، وهل هو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَفَخَّ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾^(١) ، المختار نعم ، فأراد الله عز وجل للناس أن يتلقوا الثناء على الفعل الحسن ، والذي يكون الأجر والثواب عليه أعظم من الثناء في الدنيا ، كما أنه واقية من النار لذا جاء قبل ثلاث آيات قوله تعالى ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾^(٢).

وردت في آية البحث كلمات لم ترد في غيرها من آيات القرآن، وهي :

الأولى : أتوا .

الثانية : يحمدا .

الثالثة : تحسبنهم .

الرابعة : مفازة .

لقد أكرم الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بأن يخاطبه في موضوع وحكم موجه للناس جميعاً ، وفي أمور الدين الدنيا ، مع نجاة المؤمنين من صبغة الذم فيها . فمن إعجاز آية البحث بيانها لبعض خصال الكافرين والمنافقين .

ويمكن تسمية آية البحث آية (بمفازة).

(١) سورة السجدة ٩.

(٢) سورة آل عمران ١٨٥ .

إعجاز الآية الغيري

في آية البحث تأديب للمسلمين والناس جميعاً ، للبعث على فعل الصالحات ، وجعلها طريقاً للمدح والثناء ، وهذا المدح مقدمة للأجر والثواب في الآخرة ليحجب كل من المدح في الدنيا والثواب في الآخرة عن الذين يحبون أن ﴿يَحْبُوزَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يُفْعَلُوا﴾^(١).

وتدل الآية بالدلالة الإلزامية على تمتع الذين كفروا بالنعمة في الدنيا وأنهم ينكرون الحق ويخفون البشارات برسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولم يبطش بهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يعرضهم على السيف ، ولكن هذه الآية تضمنت الوعيد لهم بالعذاب الأليم في الآخرة لتنفذ الكآبة إلى نفوسهم.

وتصاحبهم الدعوة إلى التوبة والصلاح ، وفي فرحهم بما أتوا وانكارهم النبوة ونزول القرآن أذى للنبي وأصحابه ، فيأتي ذكر الله واقامة الصلاة خمس مرات في اليوم لبعث السكينة في نفوس المسلمين ، وبشارة الثواب والأجر .

وهو من اللطف الإلهي ، فلا يختص الأجر بما يفعله المسلم ، إنما يشمل تلقيه الأذى الجسدي والنفسي ليكون من معاني الآية السابقة ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا﴾^(٢) ، أي يأتيكم الأجر والثواب بالصبر والخشية من الله ، ومن مصاديق الرحمة التي نزل بها القرآن قانون بيان القرآن لقبيح فعل المشركين ومنع النبي والمسلمين من الانتقام منهم أو الإضرار بهم ، إذ أن يدل الأمر من الله عز وجل للنبي بالصبر في مفهومه على عدم الإضرار بهم.

(١) سورة آل عمران ١٨٨.

(٢) سورة آل عمران ١٨٦.

ومن فضل الله في توجيهه وتعيين ظن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بما يوافق الواقع ، ليختار القول السديد ، والفعل الصحيح.

وفيه بعث لليأس في قلوب الكفار والمنافقين ، فهم حتى لو لجأوا إلى الكذب والتدليس فإن الله عز وجل قد أمد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بآية البحث بما يعصمهم من أضرار هذا الكذب .

ليكون من إعجاز القرآن النفاذ إلى عالم الظن وترجيح أحد الوجوه بما يمنع من الوهم ، ويطرده الغفلة .

ومن إعجاز الآية قانون تفرع المنهاج القويم والفعل السليم عن الظن الحسن الذي يكون بلطف وهداية من الله عز وجل .

وهل يختص موضوع الآية الكريمة بالظن الذي نهت عنه آية البحث ، الجواب لا ، فمن إعجاز الآية بيانها لقانون وهو فضل الله في إصلاح ظن المسلمين في الطوائف والملل ، وفي سلوك الأشخاص ، ومنه قوله تعالى ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾^(١).

ومن الإعجاز في بيان آية البحث الزجر عن قيام الذين ذكرتهم الآية نصره قریش في حربها مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ تكشف لهم أن الله عز وجل عالم بما يخفون في أنفسهم من المكر والخبث ، وهو سبحانه يقوم بإظهاره وفضحه ، مما يدل بالأولية القطعية على بيان الله عز وجل لما يقومون به من الكيد للنبوة والتنزيل .

لتكون آية البحث باعثاً للحسرة في قلوب الذين كفروا بدل الفرح بغير حق ، وفيه دعوة لهم للتوبة والإنابة .

ومن خصائص كشف التنزيل لما في النفوس من المقاصد والنوايا والميل والرغائب مسائل :

الأولى : تأكيد نزول القرآن من عند الله عز وجل ، وفي التنزيل ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(١) ، ويدرك كل إنسان أنه لا يعلم ما في قلبه إلا الله عز وجل .

الثانية : قانون التنزه عن النوايا السيئة .

الثالثة : قانون تفقه المسلمين في المعارف الإلهية ، ومعرفة أعدائهم والحذر منهم .

الرابعة : جذب الناس إلى حب الله والنبوة ، والإصغاء لتلاوة القرآن والتدبر في الحقائق التي يظهرها للناس ، والتي لا تختص بما في النفوس .

الآية سلاح

تدل الآية على أن الله عز وجل يعلم ما تخفي الصدور ، ومنه غبطة وفرح المنافقين والكفار بما عندهم ، وبصدودهم عن البعثة النبوية ، ومن معاني قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾^(٢) أن الذين يحاربون النبي صلى الله عليه وآله وسلم يغبط بعضهم الآخر ، ويفرح بما يفعل صاحبه لتعدد معاني صيغة الجمع في ﴿يَفْرَحُونَ﴾ .

وإذا اجتمعوا فأنهم يتناجون بما يؤذي النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين فنزلت آية البحث تخاطب النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ولتجعل الفرحة يغادر المنافقين والكفار عند إيدائهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) سورة البقرة ٢٣٥ .

(٢) سورة آل عمران ١٨٨ .

لقد كان هذا الفرح عوناً للكفار والمنافقين في تماديهم في إيذاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، فنزلت آية البحث لقطع هذا العون ، ولبعث الحزن والأسى في صفوف الكفار والمنافقين مما يخفف وطأة أذاهم ، وهو من الشواهد على أن آية البحث سلاح للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين .

ليكون من الإعجاز في تلاوة القرآن في الصلاة على نحو الوجوب كون هذه التلاوة سلاحاً لمنع المشركين من الفرح بغير حق . ومن إعجاز الآية القرآنية تعدد المنافع منها بالنسبة للمسلمين وغيرهم ، وإفادتها الإصلاح والرشاد ، وآية البحث لطف وتنبية وإنذار ومنع من طلب الثناء بغير استحقاق . ولا تمنع آية البحث من الفرح والغبطة ، ولكنها تبعث الناس ليكون الفرح في مرضاة الله .

مفهوم الآية

من إعجاز القرآن تنميته للملكة الأخلاق الحميدة ، فهذه الأخلاق كنز متوارث عند الناس من أيام أبينا آدم عليه السلام ، ولكنها من الكلي المشكك بخصوص الأفراد والطوائف والمجتمعات والأزمنة ، وحال السراء والضراء ، فقد تتسع أحياناً وقد تضيق ، ولكنها لا تندثر أو تزول إذ يتعاهدها الله عز وجل بوجوه كثيرة منها بعثة الأنبياء ، وإنزال الكتب السماوية ، وسيادة سلطان العدل والإنصاف ، وقيام المؤمنين وغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال تعالى ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

وإدراك الناس للحسن الذاتي للأخلاق الحميدة ، وقبح الأخلاق المذمومة .

ومن معاني آية البحث دعوتها للأخلاق الحسنة ، وجعل الذي يريد الفرح والبهجة بما يفعل إختيار التقوى ، وعدم إتباع الهوى والجحود بالنبوة.

ومن يريد الحمد والثناء فلا بد أن يكون في طاعة الله ، وأداء الفرائض والوفاء بالعهود والتصديق بالنبوة والمعجزات في والتنزه عن التعدي والظلم ، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(١).

وهل يمكن تقدير الآية بما يتضمن الثناء على الذين يحبون أن يحمدا بما يفعلون من الخير والعمل الصالح ، أم أن الآية تنهى عن حب الحمد في الحق ، مثلما هي تنهى عن حب الحمد على الباطل . المختار هو الأول ، وهل حب الحمد على فعل الخير مباح أو مستحب أو واجب أم هو جامع لها ، والجواب تارة يكون مباحاً وأخرى يكون مستحباً أو واجباً ، مع لحاظ حرمة الرياء والتزلف للغير .

وهل يختص حب الثناء على فعل الخير ، إذا كان بقصد القربة وإرادة وجه الله في الفعل ، والتوبة إليه .

وإذا لم يكن بقصد القربة فلا يلزم حب الحمد عليه ، الجواب لا يشترط في هذا الحب قصد القربة ، إنما هو كيفية نفسانية ، نعم ذات فعل الخير منه ما يشترط فيه قصد القربة كأداء الفرائض العبادية .

ومن مفاهيم آية البحث دعوة المسلمين لإستقامة الظن بما يجعلهم في حيلة وحذر من الذين كفروا والمنافقين ، قال تعالى ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُمُ النَّارُ﴾^(٢).

(١) سورة .

(٢) سورة هود ١١٣.

وفي الآية نهي عن الإطمتنان للمنافقين إذ يخذلون النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في ساعة الشدة وعند الحاجة لهم ، وهو الذي تجلّى في معركة الخندق إذ كانوا يعتذرون من المرابطة خلف الخندق بحجج واهية منها أن بيوتهم مكشوفة ، ويخشون عليها وعلى عوائلهم ، وفي التنزيل ﴿يَقُولُونَ إِن بَيُوتُنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾^(١).

ترى لماذا لم يرد لفظ ﴿عَوْرَةٌ﴾ في القرآن إلا في الآية أعلاه ، ولمرتين ، المختار بيان معجزة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي ليس من خوف أو خشية على بيوته وبيوت المسلمين من الذين كفروا إلا بخصوص إدعاء لا أصل له ، في أشد أحوال المسلمين بهجوم عشرة آلاف من المشركين على المدينة ومحاصرتها وإرادة اقتحامها وقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد استمر الحصار نحو عشرين يوماً .

وقد جاءت بعض الليالي والساعات أثناء الحصار وليس مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا نحو ثلاثمائة من أصحابه .
وليكون تقدير الآية : إن بيوتنا عورة وما بيوت المسلمين بعورة ، ومن معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يأذن للمنافقين وغيرهم من الصحابة ممن يستأذنه بالمغادرة إلى أهله مع قلة الذين معه وكثرة خيل ورجال العدو ، وإحتمال مداهمتهم له في كل ساعة .

ليكون انصراف المنافقين من غير حاجة لمغادرة الخندق ومفارقة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو في أشد الأحوال من مصاديق آية البحث ، وشمول المنافقين بالآية وأنهم يفرحون بالإعتذار

للإنصراف من غير حاجة له ، ويجبون أن يحمّدوا بالدفاع ونصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أيام الحصار في الخندق ، وإنما كانوا في الحقيقة يريدون الفرار خشية وقوع هجوم المشركين .

ومن الآيات أن هذا الهجوم قد وقع ولكن على نحو السالبة الجزئية ، إذ اقتحم جماعة من فرسان وشجعان العرب الخندق بخيلهم ، فلاقوا الخزي وهل يصدق على عمرو بن ود العامري أنه طرف من المشركين حينما قتله الإمام علي عليه السلام يوم الخندق ، وأن قتله من مصاديق قوله تعالى ﴿لَيُطْعَمَ جَنَّتَانِ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَبَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(١) ، أم أن المراد من الطرف الجماعة من الكفار أو خصوص معركة أحد وأن قتل عمرو بن ود العامري نزل فيه قوله تعالى ﴿وَكَلَّى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْغُلَامَ﴾^(٢) ، الجواب يشمل موضوع الآيتين هذا القتل لبيان منفعته للإسلام والمسلمين إلى يوم القيامة.

وهل هذا القتل من مصاديق قوله تعالى ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ^(٣) ، أم أن الآية أعلاه خاصة بنصر الروم على كسرى وجنوده .

المختار هو الأول ، ففرح المؤمنين والمؤمنات في كل زمان بهذا القتل متصل ومتجدد ، وقد يرد اشكال بأن الآية ذكرت النصر وليس قضية في واقعة ، والجواب لقد كان هذا القتل نصراً ومقدمة

(١) سورة آل عمران ١٢٧.

(٢) سورة الاحزاب ٢٥.

(٣) سورة الروم ٤-٥.

لنصر وعن عبد الله بن مسعود (أنه كان يقرأ هذا الحرف ﴿وَكَلَّى﴾^(١) الله الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ^(٢)، بعلي بن أبي طالب^(٣)).

ولن عمرو بن ود العامري من فرسان العرب ، وألح وأكثر من التحدي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بالمبارزة لبيان قانون وهو أن الذي يلح بالعداوة للنبوة والتزليل يلحقه الخزي العاجل ، لذا نزلت آية البحث للتحذير والإنذار من الإقامة على معاداة النبوة ولو بالإنكار .

لقد استمر حصار الخندق لأكثر من عشرين ليلة ، وكان هناك رمي بالسهم والحجارة.

ولم يكن قادة جيش المشركين في جمود ، إنما كانوا يسعون لطريق وثغرة للهجوم والقتال.

فاجتمع رؤساء قريش وعدد من قادة القبائل الذين معهم ومنهم (رؤساء غطفان: عيينة بن حصن، والحارث بن عوف، ومسعود بن رخیل - بالخاء المعجمة والتصغير - وأسلم الثلاثة بعد ذلك.

ومن بني أسد رؤوسهم، وتركوا الرجال خلوفاً فجعلوا يطوفون بالخندق يطلبون مضيقاً^(٣)).

وصاروا يطوفون حول الخندق وينظرون هل من مكان ضيق يمكن إختراقه من قبل خيلهم حتى وجدوا مكاناً مناسباً للعبور ، فأمرؤا عدداً من الفرسان بالعبور، فصاروا يضربون الخيل ، ويكرهونها على الإقتحام ، وكأنها لا تريد العبور ولكنهم لا يدركون لغة الإنذار التي تظهر على الإنسان والحيوان والجمال ، قال تعالى

(١) سورة الاحزاب ٢٥.

(٢) الدر المنثور ٨/١٤٧.

(٣) سبل الهدى والرشاد ٤/٣٧٧.

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(١).

فعبر الخندق كل من :

الأول : عمرو بن ود العامري .

الثاني : عكرمة بن أبي جهل .

الثالث : نوفل بن عبد الله .

الرابع : ضرار بن الخطاب .

الخامس : هبيرة بن أبي وهب .

ثم التفتوا إلى أبي سفيان وقالوا له (ألا تعبر : قد عبرتم ، فإن احتجتم لنا عبرنا)^(٢).

ويبين جواب أبي سفيان هذا علة وسبب عدم عبور الكثير من أفراد جيش المشركين ، وهو من أسرار بعث الخوف والرعب في قلوبهم ، سواء الذين بدأوا وأرادوا أبا سفيان معهم ، أو أبو سفيان وأصحابه الذين لم يعبروا الخندق .

الآية لطف

من أسماء الله عز وجل ﴿اللطيف﴾ فهو الذي يحسن اليهم في الظاهر وما هو غير ظاهر للحواس ، إذ يشمل لطفه الخلائق كلها ، وخص الإنسان باللطف من قبل أن يخلق بأن هيئ له رزقه في الدنيا ، وجعله ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٣) .

وجعل العبادة والصلاة اليومية وسائر الفرائض عزاً وفخراً له بين الخلائق وطريقاً للثبات الدائم في الجنة ، ويدل قوله تعالى ﴿وَأَسْرُوا

(١) سورة فصلت ٥٣.

(٢) مغازي الواقدي ١/١٨٤.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

قَوْلُكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ^(١).

ومن معاني اقتران اسم الخبير باللطيف أن الله المنافع التي تأتي للذي ينال اللطف وغيره.

فيأتي اللطف من الله للفرد فتتفع منه الجماعة ، ويتغشى اللطف الجماعة فينتفع منه الفرد .

ومن الإعجاز العقلي للآية القرآنية أنها لطف بالناس إلى يوم القيامة .

إن علم الله عز وجل بما يقوله الناس وما يخفون في نفوسهم رحمة بهم ، فجاءت آية البحث للإخبار عن كيفية نفسانية قيحة لا بد من تركها وهي الفرح بالجحود بالنبوة ، وإنكار المعجزات الظاهرة والجلية .

وأختتمت الآية بالتخويف والوعيد ، وهذا الوعيد من اللطف الإلهي ، وبركة نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن معاني اقتران اسم الخبير باللطيف قانون الإنذار والوعيد الوارد في آية البحث لمنفعة الناس جميعاً.

إفادات الآية

لقد تفضل الله عز وجل وأنزل القرآن بكلماته وحروفه ، وأخبر بأنه كلامه أنزله على الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم بواسطة الروح الأمين لييان سلامة القرآن من التحريف إلى يوم القيامة ، فكما يحفظ الله السموات والأرض كل لحظة ، وتسير الشمس والقمر بانتظام.

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ* وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾^(١) فكذا فان الله عز وجل يحفظ كلامه من التحريف والتغيير والتبديل ، وهذا الحفظ مطلوب بذاته ، وهو طريق لهداية الناس إلى سبل الإيمان ، ولبقاء الصلة اليومية المتصلة بين الله وبين الناس بالكتاب المنزل ، لذا جعل الله عز وجل تلاوة القرآن في الصلاة اليومية واجباً عينياً على كل مسلم ومسلمة . ولا يختص حفظ الله عز وجل للقرآن بكلماته ورسمه إنما يشمل تفسيره وتأويله ، فيفصح الله عز وجل التفسير الذي هو خلاف النص والاجتهاد الذي لا أصل له ، كما يحفظ الله القرآن بآياته التي تتضمن الثناء على الذين آمنوا ، والذم للذين كفروا وللمنافقين ، ومنه آية البحث التي ابتدأت بالخطاب التشريفي إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بخصوص ظنه ومعرفته بالناس ، بما يجعله يقوم بالتبليغ بأفضل كيفية .

وهل لآية البحث موضوعية وأثر في السنة النبوية والخطب التي يلقيها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على المنبر ، المختار نعم ، فهذه الخطب فرع المضامين القدسية لآيات القرآن .

وقد يبطش السلطان والحاكم بالمناوئين له ، ويقوم برميهم بالسجون ، وسوق التهم لهم ، وإحضار الشهود الذين يشهدون على إضرارهم بالأمن العام ، أو بالتعدي على شخصه والتأمر ، ولكن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن عنده سجن ، ولا يحتاج إليه .

إنما تنزل الآية القرآنية فتمنع من إستدامة الإعوجاج ، وتصلح الأحوال ، ومن يتخلف في مواقع الشرك والكفر تلاحقه الآية حتى

إذا مات بأجله جاءت ذرية له ليس بينها وبين التنزيل ومعجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم برزخ .

فمثلاً درة بنت أبي لهب بن عبد المطلب ، كانت من السابقين في الهجرة من مكة إلى المدينة رجاء سلامة دينها مع أنها نشأت في بيئة شديدة العداوة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وأمها أروى بنت حرب (أم جميل) ولم يمنعها من الإيمان والهجرة ذم القرآن لأبيها وأمها ، واختصاص سورة من القرآن بهذا الذم ، قال تعالى ﴿تَبْتَ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبْ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ (١) .

وقد قام أخوها عتبة وعتيبة ابنا أبي لهب بطلاق بنتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عداوة له وللتنزيل ليكون أذاهم وقرب الفرج والظفر من معاني قوله تعالى ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَتَشْفَىٰ﴾ (٢) .

وكانت درة قد تزوجت قبل الهجرة (تزوجها الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف بن قصي فولدت له الوليد وأبا الحسن وأسلم ثم قتل يوم بدر كافراً فخلف عليها دحية بن خليفة الكلبي) (٣) .
(وعن عمار بن ياسر قالوا: قدمت درة بنت أبي لهب المدينة مهاجرة فنزلت في دار رافع بن الملعلى فقال لها نسوة من بني زريق: أنت ابنة أبي لهب الذي يقول الله له (تبت يدا أبي لهب) (٤)، فما تغني عنك هجرتك.

(١) سورة المسد ١-٥ .

(٢) سورة طه ١ .

(٣) الإصابة في معرفة الصحابة ٤٨٣/٣ .

(٤) سورة المسد ١ .

فأتت درة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فذكرت ذلك له فقال: اجلسي ثم صلى بالناس الظهر. وجلس على المنبر ساعة ثم قال: أيها الناس ما لي أودى في أهلي.

فو الله إن شفاعتي لتنال قرابتي حتى إن صداءً وحكماً وسلهاً لتنالها يوم القيامة^(١).

وأخرج بن منده من طريق يزيد بن عبد الملك النوفلي وهو واه عن سعيد المقبري عن أبي هريرة أن سبيعة بنت أبي لهب جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: إن الناس يصيحون بي ويقولون: إني ابنة حطب النار.

فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو مغضب شديد الغضب فقال: ما بال أقوام يؤذونني في نسبي وذوي رحمي. ألا ومن آذى نسبي وذوي رحمي فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله^(٢).

ومن إفاضات آية البحث بعث السكينة في نفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين ، فقد بينت الآية فعلاً سيئاً مركباً من الذين كفروا والمنافقين وهو على شعبتين :

الأولى : الفرح بجلبهم الأذى للإسلام والتنزيل .

الثانية : حب الحمد والثناء على أفعال لم يؤدوها .

وتبين الآية حب الله عز وجل للمسلمين بالتخفيف عنهم من شرور الذين كفروا ، وقطع الطريق على المنافقين في إيذائهم لهم .

(١) صُداء : حيّ من اليمن ، وكذا حكم : أبو حي من اليمن ، لبيان إنتفاع أجداد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بواسطة أمهاته من شفاعته .

(٢) الإصابة في معرفة الصحابة ٤٨٣/٣ .

الآية بشارية

لقد ابتدأت آية البحث بالخطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ ثم أعادت ذات الكلمة مرة ثانية فيما يتعلق بسوء عاقبة الذين كفروا والمنافقين .

وهل الإخبار عن نزول العذاب الأليم بالذين كفروا بشارية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم المختار لا ، لقوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١) نعم تكون الآية بشارية لبعثها الناس على التوبة والصلاح .

ومن البشارات في الآية أنها باب لتفقه الناس في الدين ، ومعرفة الأذى الذي لاقاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته وأصحابه ، وكيف أن الله عز وجل صرفه بآية واحدة من القرآن لإصلاح ظن المسلمين ، فمهما حاول الكفار والمنافقون إخفاء نواياهم السيئة ، فقد أظهرها وكشفها الله عز وجل ، ولن يضرُوا المسلمين حتى في ظنونهم .

لقد كان المسلمون قلة بين مجتمع الكفار ، وحتى حينما هاجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة فان قريشاً كانت تقوم بتجهيز الجيوش لمحاربتة .

فأراد الله عز وجل التخفيف عنه وعن المهاجرين والأنصار بالإخبار عن قانون وهو عدم نجاة الذين كفروا والمنافقين من العذاب الأخرى .

مما يدل في مفهومه على نجاة المؤمنين من هذا العذاب للتضاد بينهم وبين الذين كفروا .

فالمؤمنون يفرحون بما يفعلون من أداء الفرائض ، قال تعالى ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾^(١).
 فمن إعجاز القرآن أن يتلو آية الإنسان الإنذار والوعيد ، فيؤمن بها ، ويتصور شدة العذاب وتطمئن نفسه إلى نجاته من هذا العذاب خاصة وأن آية البحث تذكر خصالاً للذين يستمعونه ، وهذه الخصال ممتعة عن المؤمنين ، ومنافيه للخلق الحميد الذين يتصفون به ، لذا قال تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٢).

الآية رحمة

لقد أكرم الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بلخطاب والنهي عن الظن بنجاة وسلامة الذين كفروا والمنافقين ، وهل يدل قوله تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ على أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم كان يظن هذه السلامة فنهاه الله عز وجل عن هذا الظن ، المختار لا.
 وهل هذا الخطاب رحمة ، الجواب نعم من جهات :

الأولى : إنه رحمة بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ووسيلة على تفضيله على الأنبياء السابقين .

الثانية : في هذا الخطاب رحمة بأهل البيت والصحابة ، وفيها تعيين لنوع الصلة مع عامة الناس .

الثالثة : قانون تسليح المسلمين بآية البحث في الإحتجاج والجدال بما يمنع من المراءاة والكذب على المسلمين .

الرابعة : منع الناس من العادات المذمومة والتي تتعارض مع آداب التنزيل ، فما ذكرته آية البحث من باب المثال الذي تنفر منه النفوس ، فأراد الله عز وجل إزاحته ومحوه ، وإزالة آثاره .

(١) سورة مريم ٩٧.

(٢) سورة ن ٤.

ومن معاني الرحمة التي جاء بها القرآن المساواة بين الناس ، ومنع الظلم ، والعقوبة .

ومن الإعجاز أن عقوبة القصاص في القتل العمد ليست قطعية إنما يجوز الإنتقال فيها إلى الدية ، أو العفو برضا ولي المجني عليه ، قال تعالى ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾^(١) ، ل تمنع هذه العقوبة والتخويف بها من شيوع القتل ، وتكون من مصاديق رد الله عز وجل على الملائكة ، حينما احتجوا على جعل الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢) ، بأنه يفسد في الأرض ويقتل بغير حق .

وهل من معاني الرحمة في آية البحث أنها تمنع من القتل ، الجواب نعم لأن ما فيها من الوعيد زاجر للكفار عن التماادي في الكفر ، ودعوة للمسلمين للصبر ورجاء الثواب من عند الله عز وجل في الدنيا والآخرة ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٣) .

الآية إنذار

لقد جعل الله عز وجل القرآن كتاب البشارة والإنذار ، وقد تجمع الآية الواحدة الأمرين ، ويكون هذا الجمع على صيغ متعددة منها :

الأولى : جمع الآية القرآنية الواحدة للبشارة والإنذار ، منها ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾^(٤) .

(١) سورة البقرة ٢٣٧ .

(٢) سورة البقرة ٣٠ .

(٣) سورة آل عمران ٢٠٠ .

(٤) سورة يونس ١٠٨ .

ومن إعجاز هذه الآية مجيؤها بالنداء العام للناس وأجيالهم المتعاقبة الى يوم القيامة.

الثانية : مجئ الآية بالبشارة ، وتارة تأتي البشارة بخصوص الدنيا وتارة بخصوص الآخرة وهو الأكثر ، وتارة للفرد الجامع لهما ، كما في قوله تعالى ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَكَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنَعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾^(١).

الثالثة : تضمن الآية للإنذار لتدل في مفهومها على البشارة للذي يكون بمأمن من فعل السيئات.

وجاءت آية البحث بالبشارة والإنذار ، البشارة للنبي والمؤمنين بالنجاة من الظن الذي لا أصل له مثل احتمال نجاة الذين تذكرهم آية البحث بصيغة الذم والتوبيخ والتبكي مع إقامتهم على قبيح الفعل الذي تذكره من الفرح باخفاء بشارات النبوة والصدود عن المعجزات وإرادة مدحهم على هذا الفعل.

تري كيف يكون ويترتب هذا الظن ، الجواب تظن طائفة من المسلمين أن الفرح بانكار النبوة وإخفاء البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا يترتب عليه عقوبة أخروية شديدة لسعة رحمة الله عز وجل .

فنزلت آية البحث لتخبر عن شدة العذاب على هذا الفرح ، وان كان كيفية نفسانية لأنه فرع المعصية والإستكبار على الحق والتنزيل .
ومن معاني الإنذار في آية البحث خطاب الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيها بما يفضح الكفار والمنافقين ويكشف عيوبهم ، وتحذر الآية المسلمين منهم .

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت آية البحث بحرف النهي (لا) ويتعلق بالظن ، وفيه نكتة وهي منع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين من الظن الذي لا أصل له والطمأنينة والركون إلى الذين يفرحون بكتمان حقائق التنزيل والبشارات ، وعدم اتخاذهم أولياء وبطانة ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُومًا عَنَّمْ قَدِ بَدَتْ الْبُغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾^{(١)(٢)}.

ثم ذكرت الآية الذين تحذر من الظن بحسن نيتهم وفعلهم بخصلتين :

الأولى : قانون قبح الفرح والبهجة والرضا باخفاء كنوز وميراث النبوة .

الثانية : طلب الثناء على فعل حسن لم يأتوا به ، فمنهم من يدعي العلم ويضل الناس باخفاء حقائق التنزيل ، ومنهم المنافقون الذين لا يخرجون في السرايا ويريدون أن يثنى عليهم بادعاء خروجهم أو بذريعة الإنتفاع منهم وهم في المدينة لتمنع الآية من إثارتهم الفتنة ، أو حدوث الإفتتان بسبيهم.

وهل من معاني قوله تعالى ﴿يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾^(٣) ، سعيهم لنيل نصيب من الغنائم بغير حق ، الجواب نعم .
ويحتمل استحقاق العذاب بلحاظ الخصلتين أعلاه وجوهاً :

(١) سورة آل عمران ١١٨.

(٢) انظر الجزء الخامس والسبعين من هذا السفر الذي جاء بتفسير هذه الآية الكريمة.

(٣) سورة آل عمران ١٨٨.

الأول : لابد من الجمع بين الخصلتين أعلاه لتتجز استحقاق العذاب الأليم .

الثاني : تكفي خصلة واحدة لتحقيق العذاب .

الثالث : قلة العذاب والتخفيف منه لمن يتصف بخصلة واحدة منها .

الرابع : تفيد الآية إرادة قوم على نحو التعيين وأنهم قد جمعوا بين الخصلتين .

والمختار هو الأول ، لأصالة الرحمة من عند الله للناس جميعاً .
ويدل عليه الضمير (هم) في فلا تحسبنهم إذ يفيد في ظاهره إرادة قوم جمعوا بين الخصلتين .

ثم أعادت الآية قوله تعالى ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ وقيل أنه تأكيد والفاء زائدة وهذا التأكيد معروف في لغة العرب ، ولكن معنى ودلالة اللفظ القرآني أعم من التوكيد.

ولم يرد لفظ ﴿تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ في القرآن إلا في آية البحث ، ووردت الآية خطاباً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويلحق به المسلمون ، وهل يلحق بهم الناس ، الجواب نعم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن يعمر (فلا يحسبنهم) يعني أنفسهم^(١) .
ولكن توجه لغة الخطاب إلى الذين يفرحون بما يفعلوا لا يستقيم لغة ، والنسبة إلى يحيى بن يعمر وهو من علماء اللغة يحتاج إلى تحقيق .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد أنه قرأ (فلا يحسبنهم) على الجماع بكسر السين ورفع الباء^(٢) .

ولكن يلزم الفاعل .

وقال ابن عطية المحاربي : ولم تقع (يحسبن) على شيء ، وقد تجيء هذه الأفعال لغواً لا في حكم الجمل المفيدة نحو قول الشاعر : (الطويل)

(١) الدر المنثور ١٥/٣ .

(٢) الدر المنثور ١٥/٣ .

وما خلت أبقي بيننا من مودة ... عراض المذاكي المسنقات القلائصا^(١).
وليس في القرآن من حرف أو كلمة إلا ولها معنى ودلالة ،
وموضع في الإعراب.

وكما تكرر لفظ (تحسين) في آية البحث فقد تكرر فيها لفظ
العذاب بقوله تعالى ﴿فَلَا تَحْسَبْتَهُمْ بِمَقَارَظَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢) ،
وتحتمل الصلة بين لفظي (العذاب) وجوهاً :

الأول : التساوي ، والمراد معنى واحد وهو عذاب النار .

الثاني : نسبة العموم والخصوص المطلق ، وهي على شعبتين :

الأولى : العذاب الأليم أعم .

الثانية : العذاب الذي ورد مطلقاً هو الأعم .

الثالث : نسبة العموم والخصوص من وجه ، وأن هناك مادة
للإلتقاء وأخرى للإفتراق بينهما .

الرابع : التباين وأن كل عذاب منهما يختلف عن الآخر سواء في
موضوعه أو أوانه.

والمختار هو الشعبة الأولى من الوجه الثاني .

من غايات الآية

في الآية مسائل :

الأولى : بيان عظيم منزلة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم
عند الله ، إذ تطلع الملائكة على قوله تعالى ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ وما فيه
من الإكرام للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بتوجيه ظنه بما
يوافق الإرادة الإلهية ، ومنه نزول العذاب الأليم بالذين يخفون
البشارات بنبوته ، ويفرحون بهذا الإخفاء .

(١) المحرر الوجيز ٥٨/٢.

(٢) سورة آل عمران ١٨٨.

الثانية : دعوة الناس للتدبر بقوله تعالى ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ وما فيه من اللطف الإلهي بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثالثة : نفاذ آيات القرآن إلى الظن والحالة النفسية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بما يفيد صلاح النفوس .

الرابعة : بعث الذين ورثوا البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى إعلانها ودعوة الذين رأوا معجزات النبوة تجري على يديه بيانها ، وإظهار التصديق بها ، والفرح بها ، وبإظهارها ، وفيه ذم للذين يفرحون باخفائها ، وحجة عليهم وشاهد على الإثم في هذا الفرع .

الخامسة : دلالة الآية على عدم ترتب الأثر والضرر على الفرع بكتمان بشارات النبوة .

السادسة : بيان قانون وهو قبح الفرع باتيان الإثم والمعصية .

السابعة : نصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بذكر قبائح أعدائه .

الثامنة : دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة إلى تلاوة آية البحث فهذه التلاوة بذاتها ذم للذين كفروا والمنافقين ، وزجر عن الفرع باتيان ما يخالف الشريعة .

التاسعة : قانون بعث الفرع في نفوس الذين كفروا والمنافقين لسوء ما يفعلون .

العاشرة : إقامة الحجة في الدنيا والآخرة على الذين نزلت الآية بذمهم ، فقد لا يظن بعضهم أن فرحهم بما أتوا من إخفاء البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا يستوجب العذاب الأليم في

الآخرة ، كما في الذين ﴿قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١) .

الحادية عشرة : إختتام الآية بالوعيد للذين كفروا ، والتذكير بعالم الجزاء في الآخرة .

الثانية عشرة : قانون حضّ المسلمين على الثبات في منازل الإيمان ، والبشارة لهم بالنجاة من العذاب يوم القيامة ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾^(٢) .

والضمير الهاء في (عنها) من الآية أعلاه يعود إلى النار .

الثالثة عشرة : إنذار الذين يظهرون التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم كذباً ولكنهم حين يجتمعون يظهرون الفرح لأنه صدق بما يقولون .

الرابعة عشرة : بيان قانون وهو علم الله عز وجل بما تخفي الصدور والنوايا ، وفي التنزيل ﴿يَعْلَمُ خَائِثَةَ الْأَغْنَىٰ وَمَاتُ خَفِي الصُّدُورِ﴾^(٣) .

الخامسة عشرة : تأكيد قانون وهو أن دار الآخرة دار حساب وجزاء ، ينكشف الناس في المحشر وليس معهم إلا عملهم في الدنيا فليس في الآخرة من عمل .

السادسة عشرة : الدعوة إلى الله عز وجل ، والترغيب بالإيمان .

السابعة عشرة : تأكيد قانون وهو أن النبي محمداً منذر ، قال تعالى ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾^(١) .

(١) سورة البقرة ٨٠ .

(٢) سورة الأنبياء ١٠١ .

(٣) سورة غافر ١٩ .

الثامنة عشرة : قانون تعيين قواعد المدح والثناء والتي تقوم بالإيمان والعمل الصالح وليس بالرغبة وحدها .

التاسعة عشرة : تبث الآية على الجمع بين العمل الصالح وبين إرادة المدح والثناء ، وتحذر المسلمين والناس من المدح بغير استحقاق ، وفي التنزيل ﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ اِلٰى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٢).

أسباب النزول

وفيه وجوه وأقوال :

الأول : (عن أبي سعيد الخدري: "أن رجلاً من المنافقين في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كانوا إذا خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الغزو، وتخلّفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اعتذروا إليه، وحلفوا، وأحبوا أن يحمّدوا بما لم يفعلوا، فنزلت هذه الآية: " لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمّدوا بما لم يفعلوا)"^(٣).

الثاني : (عن رافع بن خديج^(٤) : أنه كان هو وزيد بن ثابت عند مروان وهو يومئذ على المدينة فقال مروان لرافع : في أي شيء أنزلت هذه الآية : { لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا }.

(١) سورة الرعد ٧.

(٢) سورة التوبة ١٠٥.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٣/٣٠٥.

(٤) رافع بن خديج بن رافع الأنصاري النجاري الخزرجي ، رده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر لصغره (وأجازه يوم أحد فشهد أحداً والختنق وأكثر المشاهد وأصابه يوم أحد سهم فقال له رسول الله صلى

فقال رافع : أنزلت في أناس من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سفر تخلفوا عنهم^(١).

الثالث : (عَنْ عِكْرَمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ : لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا يُعْنِي : فَتَحَاصُّ وَأَشْيَعُ وَأَشْبَاهُهُمَا مِنَ الْأَحْبَارِ)^(٢).

الرابع : (مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ قَالَ : "كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجَالٌ عِبَادٌ فَقَهَاءٌ ، فَأَدْخَلَتْهُمْ الْمُلُوكُ ، فَرَخَّصُوا لَهُمْ وَأَعْطَوْهُمْ ، فَخَرَجُوا وَهُمْ فَرِحُونَ بِمَا أَخَذَتِ الْمُلُوكُ مِنْ قَوْلِهِمْ ، وَمَا أُعْطُوا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا"^(٣) وهو مصاديق الآية ، إذ يدل نظم الآية على إرادة الأمر الحضوري للوقائع التي تشير إليها الآية ، وإفادة الإنتفاع الأمثل من مضامين الآية القرآنية في الوقائع اللاحقة .

الخامس : عن الحسن البصري (دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدعاهم إلى الإسلام فصبروا على دينهم فخرجوا إلى الناس فقالوا لهم ما صنعت مع محمد فقالوا آمنا به ووافقناه فقال الله لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا يقول فرحوا بما في أيديهم حين لم يوافقوا محمداً ويحبون أن يحمداً بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب أي بمنجاة)^(٤).

الله عليه وآله وسلم : " أنا أشهد لك يوم القيامة) الإستيعاب ١/١٤٣ .

شهد معركة صفين مع الإمام علي عليه السلام . الإستيعاب ١/١٤٣ .
ومات سنة أربع وسبعين للهجرة ، إذ انتفضت عليه جراحته التي أصيب في معركة أحد ، وهو ابن ست وثمانين سنة .

(١) أنظر الكشف والبيان للثعلبي ٣/٣١٢ .

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٣/٣٠٣ .

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٣/٣٠٤ .

(٤) تفسير ابن أبي زمنين ١/١٠٩ .

السادس : عن ابن عباس (لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً ، لنُعَذِّبَن أَجْمَعُونَ . فقال ابن عباس: وما لكم وهذه .

إنما نزلت هذه في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُشِّسَ مَا يَشْتَرُونَ} وتلا ابن عباس {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا} ^(١) الآية.

وقال ابن عباس: سألهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن شيء، فكتموه وأخبروه بغيره، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم ما سألهم عنه ^(٢).

السابع : (قال قتادة ومقاتل: أتت يهود خيبر نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: نحن نعرفك ونصدقك وإنا على رأيكم ونحن لكم ردة، وليس ذلك في قلوبهم فلما خرجوا قال لهم المسلمون: ما صنعتم.

قالوا: عرفناه وصدقناه فقال لهم المسلمون: أحستتم هكذا فافعلوا فحمدوهم ودعوا لهم فأنزل الله تعالى هذه الآية ^(٣) .

الثامن : (عن أبي عبيدة ^(٤)) قال جاء رجل إلى عبد الله ^(٥) فقال إن كعبا الخبري قرئك السلام ويخبرك ان هذه الآية ليست فيكم لا تحسبن

(١) سورة آل عمران ١٨٨.

(٢) تفسير ابن كثير ١٨١/٢.

(٣) تفسير البغوي ١٥١/٢.

(٤) المراد أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود وقيل اسمه وكنيته واحدة .

(٥) المراد عبد الله بن مسعود .

الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا الآية قال عبد الله نزلت هذه الآية وكعب كان يهوديا^(١).

التاسع : كان جماعة من المنافقين يقولون للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لو خرجت إلى الدفاع خرجنا معك ، فإذا خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم أوجدوا المعاذير للتخلف عنه ، ويفرحون بهذا التخلف والإحتيال .

وهل منه إنخزال ونكوص رأس النفاق عبد الله بن أبي بن أبي سلول ومعه ثلاثمائة من أهل الريب والنفاق من وسط الطريق إلى معركة أحد .

الجواب نعم فهؤلاء فرحوا بعودتهم ، وكان عبد الله بن أبي يحرصهم على الرجوع إلى المدينة بقوله :
(والله ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا)^(٢).

ولم يبق مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ سوى سبعمائة من المهاجرين والأنصار.

ونسب إلى الزهري (أنهم بقوا في أربعمائة مقاتل)^(٣).
والصحيح هو الأول .

والمختار أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يخرج إلى غزو سواء لقصد بلدة أو مدينة ، ولم يبدأ قتالاً ، وقد صدرت أجزاء من هذا التفسير خاصة بقانون لم يغز النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحداً في آية علمية وكشف للحقائق بالدليل والبرهان .

العاشر : أخرج عن محمد بن ثابت (أن ثابت بن قيس قال : يا رسول الله لقد خشيت أن أكون قد هلكت قال : لم . . . ؟

(١) تفسير الثوري ٨٣/١.

(٢) الدر المنثور ٢/٤٨٠.

(٣) ابن كثير / السيرة النبوية ٢٥/٣ .

قال : نهانا الله أن نحب أن نحمد بما لم نفعل ، وأجدني أحب الحمد . ونهانا عن الخيلاء ، وأجدني أحب الجمال .
ونهانا أن نرفع صوتنا فوق صوتك ، وأنا رجل جهير الصوت .
فقال : يا ثابت ألا ترضى أن تعيش حميداً ، وتقتل شهيداً ،
وتدخل الجنة .

فعاش حميداً ، وقتل شهيداً ، يوم مسيلمة الكذاب^(١) .
الحادي عشر : (عن ابن زيد في الآية قال : هؤلاء المنافقون
يقولون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لو قد خرجت لخرجنا معك
، فإذا خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم تخلفوا وكذبوا ،
ويفرحون بذلك ، ويرون أنها حيلة احتالوا بها)^(٢) .

الثاني عشر : عن (عكرمة عن ابن عباس في الآية قال : يعني
فنحاص ، وأشيع ، وأشباههما من الأخبار الذين يفرحون بما
يصيرون من الدنيا على ما زينوا للناس من الضلالة } ويجبون أن
يحمدوا بما لم يفعلوا { أن يقول لهم الناس علماء وليسوا بأهل علم
، لم يحملوهم على هدى ولا خير ، ويجبون أن يقول لهم الناس قد
فعلوا)^(٣) .

الثالث عشر : عن (ابن عباس : سألهم النبي صلى الله عليه وآله
وسلم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره ، فخرجوا وقد أروه أن
قد أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أتوا
من كتمان ما سألهم عنه)^(٤) .

الرابع عشر : (عن السدي في الآية قال : كتموا اسم محمد
وفرحوا بذلك حين اجتمعوا عليه ، وكانوا يزكون أنفسهم فيقولون :

(١) الدر المنثور ١٥/٣ .

(٢) الدر المنثور ١٣/٣ .

(٣) الدر المنثور ١٣/٣ .

(٤) الدر المنثور ١٣/٣ .

نحن أهل الصيام ، وأهل الصلاة ، وأهل الزكاة ، ونحن على دين إبراهيم . فأنزل الله فيهم { لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا { من كتمان محمد { ويحبون أن يحمّدوا بما لم يفعلوا { أحبوا أن تحمّدهم العرب بما يزكون به أنفسهم وليسوا كذلك }^(١).

الخامس عشر : (عن محمد بن كعب القرظي قال : كان في بني إسرائيل رجال عباد فقهاء ، فأدخلتهم الملوك فرخصوا لهم وأعطوهم ، فخرجوا وهم فرحون بما أخذت الملوك من قولهم وما أعطوا . فأنزل الله { لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا }^(٢))^(٣).

وهو بعيد لنزول الآية بصيغة المضارع ﴿يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا﴾^(٤) وليس في المدينة ملوك يدخل عليهم اليهود وغيرهم ، ومن الإعجاز في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم تفضل الله عز وجل بتهيئة مقدمات نبوته وهجرته ، بأنه ليس من ملك في مكة أو المدينة ، واحتمال أخذ ملوك الروم وفارس لقولهم ثم تفاخرهم بهذا الأخذ ضعيف.

ولا يلحق الحكم والإدارة فيها ملكاً من ملوك الأرض كهرقل وكسرى والمقوقس والنجاشي ، أو بعض الأمراء والملوك في الجزيرة العربية منهم:

الأول : المنذر بن ساوى أمير البحرين أي الإحساء والقطيف .

الثاني : هوذة الحنفية أمير اليمامة .

الثالث : الحارث الغساني أمير الغساسنة .

(١) الدر المنثور ١٤/٣.

(٢) سورة آل عمران ١٨٨.

(٣) الدر المنثور ١٥/٣.

(٤) سورة آل عمران ١٨٨.

الرابع : ملوك عمان ، وأنداك هما حقر وقيل جيفر ، و(عبد) ابنا الجلندي من الأزد .

(والجلندي لقب لكل من ملك منهم عُمان) ^(١).

لتمر الأيام سريعاً ، ويوجه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد صلح الحديبية رسائل إلى ملوك زمانه يدعوهم إلى الإسلام .

السادس عشر : (وقال ابن عباس أيضاً : إن الآية نزلت في قوم سألهم النبي عليه السلام عن شيء فكتموه الحق وقالوا له غير ذلك ، ففرحوا بما فعلوا وأحبوا أن يحمدوا بما أجابوا ، وظنوا أن ذلك قد قنع به واعتقدت صحته) ^(٢).

التفسير

إبتدأت آية البحث بالنهي بقوله تعالى ﴿لَا تُحْسِنْ﴾ ومعناه لا تظن ، وتعد أولئك يسلمون من العذاب الأليم يوم القيامة .
ترى ما هي النسبة بين الذين ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الذين تذكركم الآية السابقة والذين يفرحون بما أتوا ، المختار هو نسبة العموم والخصوص المطلق ، ونسبة التباين ، لأن الذين يفرحون بما أتوا أعم من أن ينتسبوا إلى طائفة أو مذهب مخصوص .

فجاءت آية البحث مطلقة في تحذيرها ، كما أنها ذكرت الذين يريدون الثناء عليهم في أمور لم يفعلوها ، وهذه الخصلة موجودة في كل زمان ، وإن كانت من الكلبي المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة قوة وضعفاً ، ولكن تعلقها بأمر النبوة يجعلها ذات ضرر فادح فنزلت آية البحث للبيان والإنذار.

(١) المختصر في أخبار البشر ١ / ٦٥ .

(٢) المحرر الوجيز ٥٧ / ٢ .

وقد يزيد منها وجود المرائين والمتزلفين إلى ذي الشأن والسلطان وينسبون له أو لأبائه وأسلافه ما لم يكن عندهم من الخصال الحميدة.

فأخبرت آية البحث بأن هذه الزيادة لا موضوعية لها يوم القيامة ، إنما المدار على العمل ، قال تعالى ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَشَهِدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١).

وهل من معاني الآية أعلاه الختم على أفواه أولئك المتزلفين والمنافقين وتحسين الحاشية للفعل القبيح بخصوص الذي يقف للحساب ، الجواب نعم.

فقد يحصل التلاوم بينهم ، ويذمهم ذو الشأن لأنهم عكسوا له صورة غير الواقع ، ولم يقوموا بكشف الحقائق ، فيردون عليه أنهم كانوا يرجون نواله ويخشون بطشه ، وهو صورة من مصاديق البراءة يوم القيامة في قوله تعالى ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ وقال الذين اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا كَرَّةً فَتَبَرَّأْنَا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ^(٢) وقوله تعالى ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾^(٣).

ليكون من معاني الآية التحذير من الرياء الضار ، ولزوم إجتنابه ، والحيلة والحذر من تلقيه .

(١) سورة يس ٦٥.

(٢) سورة البقرة ١٦٦-١٦٧.

(٣) سورة القصص ٦٣.

وأثنى رجل منهم على الإمام علي عليه السلام فرد عليه (أنا دون

ما تقول وفوق ما تظن في نفسك) ^(١).

وقال الزمخشري وغيره (ويجوز أن يكون شاملاً لكل من يأتي بحسنة فيفرح بها فرح إعجاب . ويجب أن يحمده الناس ويشنوا عليه بالديانة والزهد وبما ليس فيه) ^{(٢)(٣)}.

ولكن الآية وردت بصيغة الذم المتعدد بلحاظ حرف العطف بين الأفعال المذمومة ، وإرادة تلقي الثناء من الغير بدون استحقاق ، مثل الذي لا يفي بالعهد ويريد أن يقال له أنه حافظ للعهد والميثاق سواء مع الله عز وجل أو مع الناس .

وكذا بالنسبة للذي يخفي ويكتم الحق ، ويريد أن يقال له إنه أمين وأظهر الحق ، وفضح الباطل ، أو الذي يمتنع عن الصدق ويريد أن يوصف بالصادق ، لأن إرادة الكذب هذه تجلب الضرر في الشأتين على صاحبها وعلى غيره ، لذا فإن آية البحث رحمة عامة بالناس .

قوله تعالى ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾

الحمد لله الذي خاطب النبي محمداً في آية البحث بقوله تعالى ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ وفيه هدى وتعليم ، قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ ^(٤) ، ليكون من تعليم الله عز وجل للمسلمين كشف خفايا نفوس الكفار والمنافقين ، وهذا الكشف على وجوه :

(١) البحار ٣٢٧/٤١.

(٢) الكشف ٣٦٠/١.

(٣) أنظر تفسير البحر المحيط ٣٦٠/١.

(٤) سورة البقرة ٢٨٢.

الأول : إنه سلاح بيد النبي وأصحابه لأخذ الحيطة والحذر من الذين يخفون كفرهم .

الثاني : قانون دعوة الناس لإصلاح السرائر .

الثالث : تأكيد نزول القرآن من عند الله ، إذ يدرك كل إنسان وإلى يومنا هذا أنه لا يعلم ما تخفي النفوس إلا الله عز وجل .

الرابع : التوبيخ والإنذار للذين يفرحون بانكارهم للنبوة ، وتجهيزهم الجيوش لمحاربة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن .

وتحتمل الآية وجهين :

الأول : يفرحون بما أتوا أي بما فعلوا من إخفاء الميثاق وعدم بيانه وإظهاره للناس سواء المكتوب منه أو المروي والمتوارث .

ليبان أن كتمان البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أمر وجودي ، وفعل ، فيفرح الذي يخفيها لهذا الإخفاء والكتمان ، فنزلت الآية لفضحه ، وقطع فرحه ، وإصابته بالحزن ، إذ أن العقل يدرك قبح إخفاء الحقائق .

الثاني : يفرحون بما أوتوا^(١) ، من أسرار التنزيل والنعمة .

والصحيح هو الأول ، وهو المرسوم في المصاحف وتدل عليه أسباب النزول .

ثم أن القرآن نزل بصدق وتأكيد نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليبان قانون من وجوه :

الأول : قانون عدم الإنتفاع من كتمان الحق والتنزيل .

الثاني : قانون ترتب الضرر والإثم على كتمان الحق .

(١) كتبت في عدد من كتب التفسير بهذا الرسم وهو خطأ من النساخ .

الثالث : نزول القرآن ومجيئ المعجزات الحسية على يد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بحيث يستغني الناس عن بيان الذين يكتمون هذا البيان.

الرابع : توبة طائفة من أهل الكتاب وغيرهم بالكشف عن الميثاق وبيان البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهل لآية البحث موضوعية بهذه التوبة ، الجواب نعم ، وهو من مصاديق تضمن آيات الإنذار والوعيد الرحمة والفضل من الله عز وجل .
في الآية مسائل :

الأولى : ينفرد الله عز وجل وحده بالعلم بما أتى ويؤتي الناس ، وفرحهم وحزنهم .

الثانية : تارة يكون الفرح ظاهراً على الجوارح ، وأخرى هو كيفية نفسانية لا يعلم بها إلا الله عز وجل ، والمقصود من قوله ﴿فَرَحُونُ﴾ الوجهان معاً .

الثالثة : يشمل الفرح القضية الشخصية ، والمنفرد ، ويشمل الجماعة بما أتوا من إخفاء الحق ، وكتمان التنزيل والفرائض التي جاء بها الأنبياء والرسل السابقون ، والإتفاق على هذا الكتمان بلحاظ أن كلاً من هذا الكتمان والإتفاق عليه أمر وجودي .

الرابعة : صدور الفعل الذي يدل على الفرح والبطر ، وفي التنزيل ﴿إِنْ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُوبِ مَا أَنْفَافَةً لَّنُدْوَ بِالْعَصَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنْ أَلَّاهُ لَا يَحِبُّ الْفَرَحِينَ ﴾^(١) وقيل نزلت الآية في المنافقين إذ فرحوا بقعودهم عن الجهاد^(٢) .

(١) سورة القصص ٧٦ .

(٢) تفسير ابن عبد السلام ٣٣٩/١ .

وهو أحد مصاديق الآية الكريمة بل تشمل الآية المنافقين الذين يخرجون إلى سوح الدفاع ، ثم يقفون في الساقة ومؤخرة الجيش ثم يدعون القتال والمبارزة ، ويطالبون نصيهم من الغنائم والمكاسب ، ولا يرضون بما يعطون ، ويتطلعون إلى مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين لهم.

ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعلم بالوحي والواقع أنهم لم يشتركوا في الدفاع ، ومع هذا لم يوجه لهم اللوم والذم ، ولم يطردهم عندما يطلبون سهامهم من الغنائم ، ولم يفضحهم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١).

وهل الأشعار التي كان المشركون يلقونها في شتم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفي التحريض على قتاله من الذي يفرح به المشركون مما ذكر في آية البحث.

الجواب نعم ، فهم يتفاخرون بهذه القصائد ، ويتخذون منها مادة لحشد الأعوان والأنصار لقتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فاخبرت آية البحث بأن عاقبة هذه الأشعار والفرح بها عذاب اليم في الآخرة.

لقد ابتدأت الآية السابقة بحرف الإستئناف الواو، قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُونُ فَنَاءً وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَسَّ مَا يَشْتَرُونَ﴾^(٢).

كما ابتدأت به الآية التالية ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣).

(١) سورة ن ٤.

(٢) سورة آل عمران ١٨٧.

(٣) سورة آل عمران ١٨٩.

وجاءت آية البحث من غير ان تبدأ بالحرف الواو سواء كان معناه العطف أو الإستئناف أو هما معاً ، ومع هذا فان نظم الآيات يدل على العز والمنزلة الرفيعة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن الله عز وجل أكرمه ببيان خفايا نفوس أعدائه ، وكذا الذين يظهرون المودة له كذباً وزوراً ، وفيه تقوية لقلبه ومواساة له ، وتنقية لمجتمع الصحابة ، ومنع من الفتنة والإفتتان بينهم.

وهل آية البحث من مقدمات دخول النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة معارك الإسلام عن جبهة متماسكة ، الجواب نعم. لقد ابتدأت آية البحث بالحرف (لا) وهي أداء نهى وجزم .

وهل يمثل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنون لمضامين الآية القرآنية من حين نزولها ، الجواب نعم ، لبيان قانون وهو إستجابة الرسول لأمر الله فورية ، إذ يكون تقدير الآية على وجوه :

الأول : ولا تحسبن يا رسول الله .

الثاني : يا نبي الله لا تحسبن .

الثالث : ولا تحسبن يا محمد .

الرابع : يا أيها الذين آمنوا لا تحسبوا .

وتتعلق الإستجابة الفورية لآية البحث بوجوه :

الأول : الكيفية النفسانية ، بعصمة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين من الظن بأن الذين يفرحون بالمعصية ويريدون الشاء على ما لم يفعلوا من نصرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ينجون من العذاب الأليم .

الثاني : قانون الإقرار بأن الله عز وجل يعلم ما في الصدور ، والسعي لحسن الظن ، وقانون تعاهد سلامة العقيدة.

الثالث : قانون الخشية من الله بالغيب .

الرابع : قانون الحيلة والإحتراز من العذاب الأليم في الآخرة وأسبابه.

لقد أقام الله عز وجل الحجة على الناس وهم في عالم الذر ، وقبل أن يهبط آدم إلى الأرض ﴿فَبِالْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١) قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾^(٢).

فان قلت لم تتضمن آية العهد الميثاق أعلاه أو شرط الربوبية لله عز وجل ، والجواب في الآية مسائل :

الأولى : إرادة الربوبية المطلقة لله عز وجل .

الثانية : بيان قانون وهو أن الإقرار بربوبية الله عز وجل برزخ دون إتخاذ الشريك .

الثالثة : الآية حرز من عبادة الأوثان ، وحتى لو شذَّ إنسان ومال إلى تقديس الأوثان ، فان الميثاق يلاحقه بالفطرة والسجايا.

وتنتهى الآية في مفهومها عن تزكية النفس بغير حق ، قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾^(٣).

ولم يرد لفظ ﴿يَزْكُونُ﴾ إلا في الآية أعلاه لبيان قبح رجاء المدح والثناء بغير حق .

(١) سورة البقرة ٣٠ .

(٢) سورة الأعراف ١٧٢ .

(٣) سورة النساء ٤٩ .

ومن الإعجاز في الآية مجيؤها بالاسم الموصول (ما) في (يفرحون بما) ويقع على المفرد والمثنى والجمع ، والمراد هو الجمع وتعدد النعم التي جاءتهم بفضل من عند الله عز وجل ، منها الكتب السماوية السابقة ، وفصل الله عز وجل في إيمانهم بالأنبياء السابقين ، والنجاة من القوم الظالمين ، كما في نجاة بني إسرائيل من فرعون ، ونعمة الأمن والنعم الشخصية .

وهل امتناع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن محاربة أهل الكتاب من النعم التي يفرحون بها ، الجواب نعم ، وإن كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا يبدأ قتالاً حتى مع المشركين ، ولا يغزو بلدة أو قرية ، ولكن كانت المعارك تقع في الواقع بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبين غزاة المدينة من قريش وحلفائها .

وكان يهود المدينة في مأمن ، وحرز حتى أن بعض أصحاب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الطريق إلى معركة أحد سأله أن يستدعي حلفاءهم من اليهود لنصرتهم .

(وَعَنِ الزَّهْرِيِّ : أَنَّ الْأَنْصَارَ يَوْمَ أُحُدٍ ، قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نَسْتَعِينُ بِحُلَفَائِنَا مِنْ يَهُودَ ؟ فَقَالَ لَا حَاجَةَ لَنَا فِيهِمْ) ^(١) .

وتبين الآية قانوناً وهو شمول العذاب الأليم في الآخرة لأقوام وجماعات يفرحون بانكار حقائق التنزيل واستحقاقهم العذاب لذات الإنكار ولما فيه من إيذاء للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين ، ومنع الناس من دخول الإسلام ، كما أن كفار قريش يفرحون بهذا الفرح لما فيه من مقاصد خبيثة وأضرار على المسلمين والدعوة إلى الله .

ولا يختص موضوع الآية وما فيها من الإنذار بالذين يخفون البشارات برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إنما يشمل الذي يكتُمون معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من وجوه :

الأول : الذي رأى معجزة حسية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأدرك أنها معجزة ولكنه تعمد إخفاءها ، حسداً أو خشية من كفار قريش ، أو جحوداً .

الثاني : الذي أدرك أن القرآن كلام نازل من عند الله ، وأنه فوق كلام البشر ، وليس هو بالشعر ، ولا يختص هذا الإدراك باساطين البلاغة ، بل هو حجة على الذين يبين لهم هذا القانون وان لم يكونوا من أهل البلاغة أو ليسوا من أهل العربية والفصل بين أسرار بلاغة القرآن الإعجازية وأقوال البشر .

وهذا العموم في لزوم التصديق بالمعجزات بالشواهد وسؤال أهل الخبرة من مصاديق قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كُفَّةً لِلنَّاسِ ﴾^(١).

الثالث : الذي بلغته معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والشواهد التي تدل على صدق نبوته .

وقد نزل ذات اللفظ (لا تحسبن) خطاباً ومواساة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ودعوة له والمسلمين بالصبر على أذى الكفار ، إذ قال تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّهُمْ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾^(٢).



(١) سورة سبأ ٢٨ .

(٢) سورة آل عمران ١٦٩ .

قانون توثيق القرآن للهجرة

لقد كان إيمان طائفة من أهل البيت وقريش وأهل مكة بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل الهجرة معجزة له ثم كانت هجرة ثلاثة وثمانين رجلاً وتسع عشرة امرأة من الصحابة إلى الحبشة معجزة أخرى أغاظت قريشاً ، فأظهروا المكر والعداوة.

وكان توالي نزول آيات القرآن ومضامينها من الوعيد والتخويف للذين كفروا وذهما لعبادة الأوثان معجزة أخرى للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لسعوا في قتله ، وفي التنزيل ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(١).

فجاءت هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة معجزة أخرى من جهات :

الأولى : النجاة من القتل ليلة الهجرة .

الثانية : وقوع هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأمر من الله عز وجل ، إذ نزل جبرئيل بالأمر وليس ثمة فترة بين النزول وتنجز الهجرة في ذات الليلة وهو من أسباب كتمان أمر الهجرة ، وفيه حجة على الذين كفروا إذ أرادوا قتله في تلك الليلة ، فلا يقول بعضهم مادفع محمداً للهجرة كان بيننا معزراً مكرماً ، ولا يستطيعون مؤاخذته بأنه ترك بلد إبراهيم الخليل ، وجوار البيت الحرام ، وذهب إلى يثرب .

و(عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة أما والله اني لأخرج ولاني لأعلم أنك أحب البلاد إلى

الله وأكرمها على الله ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت^(١).

و(عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمكة ، ثم أمر بالهجرة فأنزل الله تعالى ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾^(٢) (٣).

الثالثة : توثيق القرآن لطريق الهجرة وملاحقة قريش للنبي لإرادة قتله ، قال تعالى ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّٰهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثٰنِيْ اٰثْنَيْنِ إِذْ هَمَّا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللّٰهُ مَعَنَا فَاَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِيْنَةً عَلَيْهِ وَأَيْدِيَهُمْ جُنُودٌ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلٰى وَكَلِمَةُ اللّٰهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّٰهُ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ﴾^(٤) ، وقد وردت آيات عديدة في هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وما فيها من الأجر والثواب ، وفي السنة القولية والفعلية شواهد إعجازية في المقام.

لقد تضمنت آية البحث تشريعاً بخصوص عالم الآخرة ، وهو بيان وجه من وجوه الظلم التي تستحق العذاب الأليم ، وهو الفرح بكتمان البشارات والوديعه العقائدية ، وإرادة تلقي الحمد على أمور حسنة لم يتم فعلها ، وهذا الظلم من الكلبي المشكك في ضرره على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين وعامة الناس ، قال تعالى ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(٥).

(١) الدر المنثور ١/ ٢٣٨ .

(٢) سورة الإسراء ٨٠ .

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣١١ .

(٤) سورة التوبة ٤٠ .

(٥) سورة الشعراء ٢٢٧ .

قانون عذاب الكافر في الدنيا

قد وردت آيات بخصوص عذاب الدنيا للذين تمادوا في الغي وإشاعة الفساد ، كما في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^(١) وقوله تعالى ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ﴾^(٢).

والمختار جمع آية البحث بين العذاب الديني والعذاب الأخروي ، وإن لم أجد هذا القول عند علماء التفسير ، ومن الآيات التي تجمع بينهما قوله تعالى ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٣).

والمراد من العذاب الأدنى البلاء في الدنيا ، وعن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الآية أعلاه ، قال (هي المصائب والاسقام والانصباب عذاب للمسرف في الدنيا دون عذاب الآخرة قلت : يا رسول الله فما هي لنا . قال : زكاة وطهور)^(٤).

وهل قوله تعالى ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ في الآية أعلاه يشمل الذين ذكرتهم آية البحث ، الجواب نعم ، فيأتيهم العذاب في الدنيا عسى أن يتوبوا ويعلنوا البشارات بالرسالة الخاتمة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ويمتنعوا عن النفاق والتخلف عن الواجبات ، وهو من أسرار تكرار ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾.

(١) سورة الأعراف ١٦٥.

(٢) سورة هود ٦٧.

(٣) سورة السجدة ٢١.

(٤) الدر المنثور ١١٦/٨.

وتقدير الآية : لا تحسبن الذين يفرحون بما لم يفعلوا بمفازة من العذاب الأدنى ، ولهم العذاب الأليم العذاب الأكبر في الآخرة.

ومن عذاب الدنيا التي تشير إليه آية البحث بقوله تعالى ﴿بِمَنَازَةٍ مِنْ الْعَذَابِ﴾^(١) الخزي كما في قوله تعالى ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٢) وقد يقال وردت الآية أعلاه بخصوص الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فساداً.

والجواب تتعدد أسباب وضروب الخزي في الدنيا للكافرين والجاحدين. وهل هذه الصفات والتسميات لمسمى واحد من العذاب الأخرى للكافرين والظالمين ، أي أن عذاباً واحداً يصدق عليه أنه عذاب أليم ، وعذاب مهين ، وعذاب غليظ ونحوه .

المختار لا ، فان كل صفة للعذاب تبين معنى ونوعاً من العذاب غير الآخر ، كما في قوله تعالى ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾^(٣) ومنها ما يكون شاملاً للجميع ، كالعذاب الأليم ، فكل عذاب في الآخرة هو أليم في ذاته ووقعه على الكافر .

لذا أختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لبيان شدة عذابهم وعدم نجاتهم لا من عذاب الدنيا ، ولا من عذاب الآخرة . ومن اللطف والرحمة الإلهية بالناس جميعاً أن جعل العذاب الدنيوي والفتنة أماراً وتذكيراً بالعذاب الأخرى ، ودعوة عملية للإحترار والنجاة منه بالتوبة والإنابة.



(١) سورة آل عمران ١٨٨.

(٢) سورة المائدة ٣٣.

(٣) سورة الدخان ٤٨.

علم المناسبة

لم يرد لفظ (أتوا) في القرآن إلا في آية البحث ، مع كثرة ورود مادة (أتى) ومشتقاتها في القرآن ، وفيه شاهد على موضوعية هذه الآية ، ولزوم التدبر في مضامينها القدسية .

وورد لفظ ﴿أُوتُوا﴾ في القرآن اثنتين وثلاثين مرة وأكثرها في الذين ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ ثم الذين أوتوا العلم ، منها قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن آتَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾^(١) ، ومنها قوله تعالى ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٢) ولم يرد لفظ ﴿الْخِزْيَ﴾ في القرآن إلا في الآية أعلاه .

ليان أن الإيمان والعمل الصالح هو الذي يحق للإنسان أن يفرح به ، وليس المكر والحيلة .

لتكون الآية أعلاه وقاية من النفاق والفرح بغير الحق ، ومن هذه الآية ما يتعلق موضوعها بعالم الآخرة ، ومادة الإحتجاج يومئذ ، قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكُمْ فِيهِ لَعَلٌ لِّمَن لَّا يَعْلَمُونَ﴾^(٣) .

لتذكير الذين يحبون الشاء عليهم من غير أن يفعلوا ما يستحق هذا الشاء بوجوب الإيمان ، ولتخاذ نهج الأنبياء في الصلاح والتقوى

(١) سورة القصص ٨٠.

(٢) سورة النحل ٢٧.

(٣) سورة الروم ٥٦.

، قال تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾^(١).

ترى ما هي النسبة بين الذين أوتوا العلم وبين الذين أوتوا الكتاب ، الجواب هو العموم والخصوص المطلق ، فالذين أوتوا العلم أعم وأكثر ، ويتعاهدون الإيمان .

وجاءت آية بالجمع بين العلم والإيمان ، قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُولُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكُمْ كُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢).

من منافع هذا الجمع الأمن وحضور العلم في الآخرة ، وصيرورتهم محتجون على الذين كفروا ، وفيه دعوة للإيمان والصلاح لكل من :

الأول : الذين أوتوا العلم .

الثاني : الذين أوتوا الكتاب .

الثالث : الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ، كما في قوله تعالى ﴿أَلَمْ

تَرَى إِلَى الَّذِينَ أُولُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾^(٣).

وهل الرغبة والسعي لنيل الثناء على ما لم يتم من فعل الصالحات من الضلالة التي تذكرها الآية أعلاه ، الجواب نعم .

الرابع : الذين أوتوا النعم في المال والبدن والولد والجاه .



(١) سورة الأنعام ٩٠.

(٢) سورة الروم ٥٦.

(٣) سورة النساء ٤٤.

من وجوه تقدير الآية

لقد تكرر لفظ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ وقيل هذا التكرار للتوكيد ، وهو معروف في لغة العرب ، وهذا صحيح ، ولكن معناه في القرآن أعم من المفهوم اللغوي ، وهناك حذف ، وتقدير الآية ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ على وجوه :

الأول : لا تحسبن الله غافلاً عن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يمددوا بما لم يفعلوا ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، فهذا المعنى من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾^(١).

الثاني : لا تحسبن الله لا يفضح الذين يفرحون بما أتوا من الباطل .

الثالث : لا تحسبن الناس لا يعلمون بسوء فعل الذين يفرحون بما أتوا من القبيح وإنكار التنزيل .

الرابع : لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا يضرونكم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمُ الْآذَى﴾^(٢).

الخامس : يا أيها الذين آمنوا لا تحسبوا الذين يفرحون بإيذائكم على هدى ، إنما هم في ضلال .

السادس : لا تحسبن النعم تستديم على الذين يفرحوا بما أتوا من الإصرار على إخفاء البشارات النبوية ، وهو من مصاديق قوله تعالى

(١) سورة إبراهيم ٤٢.

(٢) سورة آل عمران ١١١.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا أُوْهُمْ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾^(١).

السابع : لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا متحدين أو على وئام بل هم مختلفون فيما بينهم ، قال تعالى ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾^(٢).

الثامن : لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا لا يعلمون بضلاتهم ، لذا فان العذاب ينزل بهم بعد إقامة الحجة عليهم .

التاسع : لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا يكون لهم عز في الدنيا أو الآخرة ، قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

العاشر : لا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا أنهم يحسنون صنعا .
الحادي عشر : لا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا أن الله لا يخبرك والمؤمنين بسوء سريرتهم .

الثاني عشر : لا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمداوا بما لم يفعلوا والمهاجرين والأنصار لا تعلمون بقبائح فعلهم .

الثالث عشر : لا يحسبن الناس أن الله لا يعلم ما في القلوب ويثيب على النوايا الحسنة ، ويؤاخذ على المقاصد الخبيثة .

الرابع عشر : لا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا أنهم يستمرون بأفعالهم ، فالكفر في الجزيرة وغيرها لا يستديم ، قال تعالى ﴿بَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾^(٤) ولم يرد لفظ ﴿زَاهِقٌ﴾ في القرآن إلا في الآية أعلاه.

(١) سورة النور ٥٧.

(٢) سورة الحشر ١٤.

(٣) سورة المنافقون ٨ .

(٤) سورة الأنبياء ١٨.

الخامس عشر : لا يحسن الذين يفرحون بما أتوا أن فرحهم لا ينقطع .

السادس عشر : لا تحسن أن التوبة لا تدرك الذين يفرحون بما أتوا .

السابع عشر : لا تحسن أن الله لا يظهر البشارات بنبوتك التي يخفيها الذين يفرحون بما أتوا .

السابع عشر : لا تحسن أن الذين يحبون أن يمدوا بما لم يفعلوا يمنعون إنتشار وسعة الإسلام .

الثامن عشر : لا تحسن الذين يفرحون بما أتوا خلاف الوظيفة الشرعية أن الناس يتبعونهم ، لبيان النفع العظيم للمعجزة النبوية ، فهي تحارب أعداء التوحيد والتنزيل ، وتمنع الناس من الإنصياع لهم .

قانون من الفطرة الإعراض عن الكفار

من معاني الآية التالية في نظم القرآن ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١) أن الأرض دار العبادة والذكر لله عز وجل ، ولا يلقي فيها الكفار إلا الخزي وعزوف الناس عنهم ، وإن أظهروا الخشية والتقية من ذوي الجاه والسلطان منهم ، وتعجل هذه التقية بزوال سلطانهم ، ليكون من معاني ﴿إِلَّا أَنْ تَقُومَ مِنْهُمْ تَقَاةٌ﴾^(٢) حجة على الكافرين ، وإنذاراً بنزوله بهم ، وهو من مصاديق آية البحث ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾^(٣) فان لم يأتهم اليوم محل بساحتهم غداً .

(١) سورة آل عمران ١٨٩ .

(٢) سورة آل عمران ٢٨ .

(٣) سورة آل عمران ١٨٨ .

فان قلت قد استمعت أكثر قبائل العرب في موسم الحج إلى قريش في إفترائها على النبي محمد ونعتها له بأنه ساحر ومجنون ، والجواب من جهات:

الأولى : لقد كانت وفود تلك القبائل تعرض عن دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم للإسلام والإيواء وحمايته من أذى وبطش قريش قبل أن يهاجر ، ولكن هذا الإعراض لم يكن على نحو السالبة الكلية فقد كانت تلك الوفود تستمع للآيات ويتدبرون في معانيها ودلالاتها .

الثانية : رصد ومتابعة وفود القبائل لمعجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الحسية .

الثالثة : لم يكن إعراض القبائل عن دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن عدم التصديق برسائله ، لإنجذاب عامة الناس للمعجزة طوعاً وقهراً ، ولكن لتهديد قريش للقبائل ، وإكثارهم من التحذير من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقد شارك في هذا التحذير أيام الموسم عمه أبو لهب .

وهل يتبادر إلى الإذهان إذا كان عمه صنو أيه يجاهر بانكار نبوته فمن باب الأولوية إمتناع الناس عن التصديق بنبوته ، الجواب لا ، لأن الآية القرآنية سلاح ينفذ إلى شغاف القلوب ، والمعجزات النبوية تخالط العقل ، وتكون مصاحبة له ، وتدعوه للإيمان .

(وذكروا أنه كان إذا قدم على النبي (صلى الله عليه وآله) وفد ليعلموا علمه انطلقوا^(١) بأبي لهب إليهم وقالوا له: أخبر عن ابن أخيك، فكان يطعن بالنبي صلى الله عليه وآله ، وقال الباطل، وقال: إنا لم نزل نعالجه من الجنون، فيرجع القوم ولا يلقونه.

(١) تتعلق واو الجماعة بكفار قريش .

وعن طارق المحاربي: رأيت النبي صلى الله عليه وآله في سوقية ذي المجاز عليه حلة حمراء وهو يقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا " وأبولهب يتبعه ويرميه بالحجارة وقد أدمى كعبه وعرقوبيه ، وهو يقول: يا أيها الناس لا تطيعوه فإنه كذاب^(١).

الرابعة : لقد أنعم الله عز وجل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن جعل دار ومحل بعثته مكة المكرمة بجوار البيت الحرام ، فتفد الوفود كل موسم لأداء مناسك الحج ، ويأتي الأفراد والجماعات لأداء العمرة طيلة أيام السنة .

ومن بديع صنع الله عز وجل أن موسم الحج في أشهر حرم لا يجوز فيها القتال والغزو والثأر والسبي ، قال تعالى ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَغْلِبُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾^(٢).

الخامسة : لم تكن دعوة النبي القبائل للإسلام محصورة بسنة وموسم حج واحد ، بل هي تتكرر كل عام خاصة بعد السنة السابعة للهجرة.

وفي السنة العاشرة التقى بوفد الخزرج من أهل يثرب (المدينة) وعددهم ستة فاستمعوا له ، وجمعوا بين دعوته وبين البشارات بخاتم النبيين التي كان يتداولها يهود المدينة ، ثم تدبروا في معجزاته وصفاته ، ووجدوها موافقة لما ذكروا لتحرز مقدمات الهجرة .



(١) البحار ٢٠٢/١٨.

(٢) سورة التوبة ٣٦.

بحث كلامي (لا تحسبن)

يحتمل الظن بنجاة الذين يضمرون العداوة للنبوة باخفاء حقائق التنزيل جهات :

الأولى : كان هذا الظن موجوداً عند النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم واحتاج نزول الآية لإزالته .

الثانية : لم يكن هذا الظن موجوداً عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأراد الله عز وجل منعه من الدبيب إلى نفسه .

الثالثة : نزول الآية خطاباً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمراد الأمة .

والمختار وجود هذا الظن عند طائفة من المؤمنين فجاء التحذير العام فلفظ الخطاب (لا تحسبن) موجه إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو عام له وللأمة وعامة الناس في حكمه ودلالته ، ومنه مثلاً ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾^(١).

فمن كان يظن أن أولئك الذين يفرحون بانكار المعجزات واخفاء البشارات ينجون من العذاب الأليم فإن هذه الآية تنفي هذه النجاة ، وهي تمنع من حصول هذا الظن عند طوائف أخرى من المسلمين وغيرهم .

ومن إعجاز آية البحث المنع من الخلاف في مسألة كلامية وهي حدّ العذاب يوم القيامة ، وهل يشمل الفئات التي ذكرتها آية البحث ، وحال الكيفية النفسانية أم لا يشملها وينحصر العذاب

بالشرك وبالهجوم المسلح على النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمدينة ، الجواب هو الأول .

وفيه تخفيف عن المسلمين ومنع من اشتغال العلماء والمحدثين وعامة الناس بمسائل كلامية زائدة ، ومنها مثلاً فتنة خلق القرآن التي ابتدأت في أيام المأمون العباسي سنة ٢١٨ هجرية وما صاحبها من المحن ، وقيام بعض خلفاء العباسيين بامتحان القضاة والفقهاء وغيرهم بها واستحواذها على جانب من المناظرات وزجها بغير حق في المعتقدات.

وغيرها من الفتن وظهور القدرية والجبرية والمشبهة الذين شبهوا الله عز وجل بخلقه ، ويطلق عليهم اسم المجسمة لقولهم بأن الله جسم وأنه موجود في جهة ، وتمنع آية البحث من فتنة كلامية بين المسلمين في ذات موضوعها.

إذ أنها تنفي الظن بنجاة الذين يفرحون بانكار النبوة مما يدل بالأولوية القطعية على امتناع إعلان طائفة من المسلمين مثل هذا الظن ، ويأتي توالي تلاوتهم لآية البحث كل يوم برزخاً ومانعاً من هذا الظن وإعلانه مجتمعين ومتفرقين بخصوص طائفة من الذين يشملهم العذاب الأليم في الآخرة من مصاديق قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(١).

فتنزل الآية القرآنية ليتلوها النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون ، وتكون تزكية وتنقية لهم ، وهي حكمة قاطعة للخصومة والإجتهد خلاف النص حتى فيما يتعلق بمواطن وأحوال الآخرة ، ولا يختص هذا القطع بموضوعه إنما يشمل منافعه وغاياته

الحميدة إذ أنه يبعث الفزع في قلوب الذين يؤذون رسول الله ،
ويدعوهم كفاراً ومنافقين الى التوبة والإنابة .

وهل تمنع هذه الآية من الإجتهد خلاف النص ، وأنها من
مقدمات ومصاديق قوله تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا
الرُّغْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوًى
الظَّالِمِينَ﴾^(١).

الجواب نعم ، فلا يجد الكافر بالتوحيد والرسالة ذريعة
واعتذاراً بخلاف يقع بين علماء المسلمين في شموله بالعذاب أو لا
عندما يفرح بكتمان الحقائق وإنكاره المعجزات النبوية لإنتفاء هذا
الخلاف .

لتدل الآية على قانون مستحدث من وجوه :

الأول : قانون إنقاذ الآية القرآنية العلماء من الخلاف والخصومة .

الثاني : قانون منع الآية القرآنية المسلمين من الإنشغال عن
العبادة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

و(عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه
 وآله وسلم: إن هذا القرآن مأدبة الله تعالى فتعلموا من مأدبته ما
استطعتم، إن هذا القرآن هو جبل الله وهو النور المبين والشفاء
النافع ، وعصمة من تمسك به ، ونجاة من تبعه، لا يعوج فيقوم ولا
يزيغ ، فيستعجب ولا تقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد، فاقرأوه
فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنة، أما أني لا
أقول (ألم) حرف ولكن ألف ولام وميم ثلاثون حسنة)^(٢).

ليبان قانون وهو كثرة منافع التلاوة ومنها :

(١) سورة آل عمران ١٥١.

(٢) الثعلبي / الكشف والبيان ٢١٥/٣ .

الأول : قانون وحدة المسلمين .

الثاني : قانون منع الاختلاف بين المسلمين.

الثالث : قانون كثرة تلاوة الكلمة والآية القرآنية صلاح للمجتمعات.

الرابع : قانون التلاوة واقية من الفتن.

فان قلت تقدم الكلام في هذا المبحث عن حصول بعض الفتن ، ومن الفتن ردة بعض القبائل بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

والجواب لقد بقى أكثر المسلمين بعيدين عن هذه الفتن ، وهي تطراً وتظهر وسرعان ما تزول ، إذ تحاصرها آيات القرآن.

فنزلت آية المبحث لتخبر عن شدة العذاب على هذا الفرع بالباطل وإنكار النبوة ، وما فيه من الإضرار بالسلم المجتمعي لأنه فرع فعل المعصية والإستكبار على الحق والتنزيل ، وهل يقف هذا الفرع عند الكيفية النفسانية ، الجواب لا ، إنما يظهر على ألسنتهم ، فجاءت آية المبحث بترتب العقاب الأليم عليه.

علم المناسبة

ورد لفظ (يفرحون) مرتين في القرآن ، إحداهما في آية المبحث والأخرى في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَكَأُشْرِكُ بِهِ إِلَهِهٖ أَدْعُو إِلَهِهٖ مَآبٍ﴾^(١).

وفيه ثناء على اليهود والنصارى الذين يصدقون بنزول القرآن من عند الله ويقرون بموافقة صفات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لما ورد في التوراة والإنجيل من البشارة برسالته ، وصفاته .

وقد جاءت آيات عديدة بهذا المعنى منها ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا تَلَا عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُتَوَفَّوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾^(١).

ولم يرد لفظ (أجرهم مرتين) إلا في الآية أعلاه ، ولم يرد في القرآن ذات اللفظ بصيغة الخطاب (أجركم مرتين) نعم نزل القرآن بالبشارة بالحسنة بعشر أضعافها ، قال تعالى ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٢).

وفي الإنفاق في سبيل الله ورد قوله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣) ، وآيات أخرى في مضاعفة الأجر والثواب.

والمراد من الذين (يفرحون بما أنزل اليك) في الآية أعلاه وجوه :

الأول : أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

الثاني : الذين أسلموا من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه ، (وَمَنْ آمَنَ مِنَ النَّصَارَى وَهُمْ ثَمَانُونَ رَجُلًا : أَرْبَعُونَ بَنِجْرَانَ ، وَثَمَانِيَةَ بَالِيَمِينَ ، وَاثْنَانِ وَثَلَاثُونَ بِالْحَبِشَةِ)^(٤).

الثالث : مؤمنوا أهل الكتاب .

(١) سورة القصص ٥٢-٥٤.

(٢) سورة الأنعام ١٦٠.

(٣) سورة البقرة ٢٦١.

(٤) تفسير أبي السعود ٨/٤.

الرابع : اليهود والنصارى إذ فرحوا بنزول القرآن على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لما فيه من تصديق التوراة والإنجيل (وعن مجاهد ، والحسن البصري ، وقتادة : أن المراد بأهل الكتاب جميعهم يفرحون بما أنزل من القرآن ، إذ فيه تصديق كتبهم ، وثناء على أنبيائهم وأجبارهم ورهبانهم الذين هم على دين موسى وعيسى عليهما السلام)^(١).

والمختار هو عامة أهل الكتاب إلا من جحد وأنكر إذ كان أهل الكتاب يتطلعون إلى رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما أنه جاء بما فيه تصديق الذين عندهم من التوراة والإنجيل . ومن إعجاز القرآن منعه توالي التحريف في الكتب السماوية السابقة ، ففيه أحكام الشريعة ، وقصص الأنبياء ، ومبدأ خلق الناس ، والمعاد ، والبعث على فعل الصالحات ، قال تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢).

ويبين فرح أهل الكتاب قانوناً وهو لا بد من وجود أمة تشاطر المسلمين الفرحة بنزول القرآن ، ثم ينفرد المسلمون بالعمل بأحكامه فالنسبة بين الفرحة وبين العمل بخصوص ذات موضوع الفرحة عموم وخصوص مطلق ، فمن خصائص التنزيل أنه منهاج عمل سماوي يترتب عليه الجزاء يوم القيامة .

لذا أختتمت آية البحث بالوعيد ، للذين كذبوا بالتنزيل ويفرحون بهذا التكذيب ، ولو كان خفياً وبلغه الإشارة ، ومن خصائص هذا الوعيد وجوه :

الأول : نزول الوعيد من عند الله عز وجل .

(١) تفسير البحر المحيط ١٢٤/٧.

(٢) سورة النحل ٨٩.

الثاني : النص والبيان في نوع موضوع الوعيد وهو العذاب الأليم.

الثالث : مجئ آيات القرآن والسنة النبوية ببيان ضروب من شدة هذا العذاب .

ومنه ما يتعلق بموضوع الآية ، كما ورد (عن عدي بن حاتم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يؤتى يوم القيامة بناس بين الناس إلى الجنة ، حتى إذا دنوا منها استنشقوا رائحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها .

فيقولون : يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أرينا من الثواب وما أعددت فيها لأولائك كان أهون .

قال : ذاك أردت بكم كنتم إذا خلوتم بارزتموني بالعظيم ، وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين ولم تجلوني ، وتركتم للناس ولم تتركوا إلي ، فاليوم أذيقكم العذاب الأليم مع ما حرمتكم من الثواب)^(١).

قوله تعالى ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾

من إعجاز آية البحث ذكرها صفة وكيفية نفسانية لا تختص بطائفة أو قوم دون غيرهم ، ولا بفعل مخصوص تلتقي عنده فئة من الناس ، إذ تفيد الآية التعدد من جهات :

الأولى : صيغة الجمع التي وردت فيها ﴿يُحِبُّونَ﴾ .

الثانية : تعدد الجماعات والطوائف التي تحب أن تحمد بما لم تفعل ، فتشمل فريقاً من الكافرين والمنافقين .

الثالثة : التعدد في ذات الفعل الذي يحبون ان يحمدوا عليه من وجوه :

الأول : طائفة تحب الثناء عليها بأنهم حفظة الشريعة وليسوا كذلك .

الثاني : طائفة تحب أن تحمد بصد الناس عن التصديق بنبو محمد صلى الله عليه وآله وسلم .
فان قلت هذا الصد فعل ، وانما ذكرت الآية عدم قيامهم بالفعل الذي يستحق الحمد .

والجواب المراد ما لم يفعلوا من إظهار البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفي التنزيل ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾^(١) أي أمرناهم بالعدل والإحسان ولكنهم ظلموا ونشروا المعاصي .

فهؤلاء الذين ذكرتهم آية البحث أمروا أن يفعلوا الخير ويعملوا الصالحات ، ولكنهم امتنعوا عنها ، ومع هذا أرادوا من الناس أن يشنوا عليهم ويمدحهم ، فجاءت آية البحث من سخط الله عز وجل عليهم للقبح المركب لفعلهم ، فاختمت الآية بما يفيد تلقيهم البلاء في الدنيا ، والعذاب الأليم في الآخرة .

ترى ماذا لو اكتفوا بفعل ما لم يؤمروا به ولم يفرحوا به ، فهل يأتيهم ذات العذاب .

الجواب نعم ، ليكون حبههم لإرتكابهم الباطل حجة عليهم ، وسبباً في زيادة عذابهم من غير أن يتعارض مع دعوة الآية في مفهومها لهم بالتوبة والإنابة .

إذ تأتي الآية على الطائفة والجماعة المارقة والكافرة والمناققة ، فتكشف عيوبها وضلالتها ، وتشتتها ، وتدعوها للتوبة والإنابة ، فيستجيب أكثر أفرادها .

وهل يدل قوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا^(١) على إنحصار مجئ هذه الأفواج بحال النصر العام للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتحقيق صلح الحديبية أو فتح مكة.

الجواب إثبات شئ لشيئ لا يدل على نفيه عن غيره ، وتحقيق هذا الإنحصار ولغة الشرط في الآية أو أن دخول بعض الأفواج في الإسلام سبقت فتح مكة أو حتى صلح الحديبية بينه تأريخ النبوة ووقائع الأحداث .

والفوج لغة ، الجماعة من الناس^(٢) والجمع أفواج .
وظاهر الآية الكريمة والوقائع أن الأفواج ووفود القبائل توالى بعد صلح الحديبية ثم ازدادت أعدادهم وإسلام من خلفهم بعد فتح مكة حتى سميت السنة التاسعة للهجرة عام الوفود .

كما أن سورة النصر آخر سورة أنزلت من القرآن للإخبار عن هذه الوفود ، وفيها نعي لنفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهل تختص مضامين السورة ومجئ الوفود بأيام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أم أنها تشمل ما بعده .

الجواب هو الثاني ، لأصالة الإطلاق ، فان قلت قد تضمنت السورة قوله تعالى ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾^(٣) بصيغة الخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

والجواب المراد الحاق الأمة أيضاً بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) سورة النصر ١-٢ .

(٢) الصحاح في اللغة ٥٤/٢ .

(٣) سورة النصر ٣ .

والأفواج والشعوب التي دخلت الإسلام بعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أكثر من الذين دخلوا في أيام النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لتكون السورة دعوة للمسلمين والمسلمات جميعاً للشكر لله عز وجل والإنقطاع للتسبيح والإستغفار ، وبيان قانون وهو أن الذين ذكرتهم آية البحث بالذم لم يضرُوا الإسلام .

وهل هذا التسبيح سلاح لمواجهة الذين يحاربون النبوة والقرآن بالإستهزاء والإفتراء والفرح بهذا الإستهزاء ، الجواب نعم لتأكيد قانون (لم يغز النبي (ص) أحداً).

وبيان قانون أن الله عز وجل يكفي النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم شر وكيد أعدائه بنزول الآية القرآنية ، كما في آية البحث. ولآية البحث ومثيلاتها موضوعية في منع تحشيد قريش أكثر القبائل على النبي ، وفي تحييد كثير من أهل الكتاب الذين في المدينة أو في نجران أو في الشام .

وقد صدرت والحمد لله أجزاء من هذا السفر خاصة بقانون (لم يغز النبي (ص) أحداً) وهي :

- الأول : الجزء الرابع والستون بعد المائة .
- الثاني : الجزء الخامس والستون بعد المائة .
- الثالث : الجزء السادس والستون بعد المائة .
- الرابع : الجزء الثامن والستون بعد المائة .
- الخامس : الجزء التاسع والستون بعد المائة .
- السادس : الجزء السبعون بعد المائة .
- السابع : الجزء الواحد والسبعون بعد المائة .
- الثامن : الجزء الثاني والسبعون بعد المائة .
- التاسع : الجزء الرابع والسبعون بعد المائة .
- العاشر : الجزء السادس والسبعون بعد المائة .
- الحادي عشر : الجزء السابع والسبعون بعد المائة .

الثاني عشر: الجزء الثامن والسبعون بعد المائة .

الثالث عشر: الجزء الثمانون بعد المائة .

الرابع عشر: الجزء الواحد والثمانون بعد المائة .

الخامس عشر: الجزء الثاني والثمانون بعد المائة .

السادس عشر: الجزء الثالث والثمانون بعد المائة .

السابع عشر: الجزء السابع والثمانون بعد المائة .

الثامن عشر: الجزء الثالث والتسعون بعد المائة .

التاسع عشر: الجزء الرابع والتسعون بعد المائة .

العشرون: الجزء السادس والتسعون بعد المائة .

الواحد والعشرون: الجزء الرابع بعد المائتين .

الثاني والعشرون: الجزء الثاني عشر بعد المائتين .

الثالث والعشرون: الجزء السادس عشر بعد المائتين .

الرابع والعشرون: الجزء الواحد والعشرون بعد المائتين .

وتتضمن آية البحث في مفهومها نهى المؤمنين عن موالاة الذين تدمهم الآية ، وهو من إعجاز القرآن بفائدة لغة الذم لطائفة أو قوم وتحذير النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه والناس جميعاً منهم ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوعًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(١).

فالذين يستهزئون بالنبوة والتنزيل يفرحون بمجدالهم بالباطل ، فنزلت آية البحث بمنع المؤمنين من إتخاذهم أولياء ووليعة وخاصة ،

كما أنها تحذر من إخبارهم عن الجهة التي تتوجه لها سرايا الدفاع ، وإطلاعهم على أسرار المسلمين .

لقد جعل الله عز وجل نفس الإنسان مجبولة على الرغبة في تلقي المدح ، وهل هو من مصاديق نفخ الله من روحه في آدم ، إذ قال تعالى ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾^(١) الجواب لا ، إنما هو من خلافة الإنسان في الأرض وقوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢) ولأن الدنيا دار امتحان وإختبار .

ولأن الله عز وجل جعل الناس بالفطرة يميلون إلى فعل الخير وعمل الصالحات ، ورغبتهم بحب الحمد للذات ، ليكون مقدمة ونتيجة أيضاً للمواظبة على الإحسان للذات والغير ، والمبادرة إلى الإيمان ، والتسابق في الخيرات ، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ * أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾^(٣).

وجاء القرآن بالفصل والتمييز بين رجاء الحمد على الإيمان وفعل الخير وبين الرجاء المذموم بطلب الثناء من الناس على ارتكاب المعصية وفعل السيئة .

وفي الآية نهي عن الرياء المركب ، وهذا إصطلاح مستحدث هنا أي يرائي الناس بما لم يفعل ، ويجب أن يحمده على هذا المראה .
لقد نزل القرآن لبناء صرح الأخلاق الحميدة إلى يوم القيامة .

(١) سورة السجدة ٩ .

(٢) سورة البقرة ٣٠ .

(٣) سورة المؤمنون ٦٠-٦١ .

وعن الإمام علي عليه السلام قال (قال رسول الله : عليكم بحسن الخلق فإن حسن الخلق في الجنة لا محالة ، وإياكم وسوء الخلق فإن سوء الخلق في النار لا محالة) ^(١).

وهل من معاني الحديث أعلاه أنه تفسير لآية البحث ، الجواب نعم ، إذ يحذر النبي صلى الله عليه وآله وسلم من العذاب الأليم يوم القيامة ، والذي يترتب على سوء الخلق ، ومنه إنكار حقائق التنزيل .

وصحيح أن الآية نزلت بخصوص الذين يحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا إلا أنها تدل في مفهومها على وجوب إتيان الواجب الشرعي ، والعمل الصالح وإجتنب السيئات ، سواء تعقبه مدح من الناس أو لا ، خاصة وأن هناك صالحات لا يعلم بها إلا الله عز وجل .

لقد جعل الله عز وجل القرآن مدرسة المواعظ والتأديب والإصلاح لأمر الدين والدنيا ، ومنها قانون بعث آية البحث الناس على طلب الحمد والثناء على ما يقولون ويفعلون من الصدق والحق وسنن الإيمان .

و(عن أبي الدرداء قال : سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله قال : يا عيسى ابن مريم إنني باعث بعدك أمة إن أصابهم ما يحبون حمدوا وشكروا ، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ، ولا حلم ولا علم . قال : يا رب كيف يكون هذا لهم ، ولا حلم ولا علم؟ قال : أعطاهم من حلمي وعلمي) ^(٢).



(١) الكشف والبيان للثعلبي ٣٣٢/١٣ .

(٢) الدر المنثور ٢٣٦/٨ .

جراحات النبي (ص) في معركة أحد

المراد من الإبتلاء بالأنفس أعم من القتل ، فيشمل أيضاً :
الجراحات في معارك الدفاع عن بيضة الإسلام ، وكانت
جراحات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في معركة أحد كثيرة
ومتعددة وكانت حجارة المشركين تصل إليه ، أي من باب الأولوية
أن سهامهم ونبالهم تصل إليه ، وإذا كان الغالب في تلقي السهام
الموت خاصة القرية مع قلة الصحابة الذين حول النبي ساعتئذ لييان
قانون نجاة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في معركة أحد
معجزة له .

(ورمى عبد الله بن قمية الحارثي رسول الله صلى الله عليه وسلم
بمحجر فكسر أنفه ورباعيته وشجّه في وجهه فأثقله ، وتفرّق عنه
أصحابه ، فأقبل عبد الله بن قمية يريد قتل رسول الله فذب عنه
مصعب بن عمير وهو صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم
يوم بدر)^(١).

والمختار أن جراحات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لم
تأت من جهة عبد الله بن قمية وحده بل تعدد المشركون الذين
أرادوا قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والذين اعتدوا عليه ،
منهم :

الأول : عتبة بن أبي وقاص ، إذ رمى النبي صلى الله عليه وآله وسلم
وسلم فكسر رباعيته اليمنى السفلى من أسنانه الأمامية ، وجرح
شفته السفلى^(٢).

الثاني : عبد الله بن شهاب الزهري ، شج النبي صلى الله عليه وآله وسلم
وآله وسلم في جبهته .

(١) الثعلبي / الكشف والبيان ١٣٣/٢

(٢) ابن كثير ٤٥/٢.

الثالث : عبد الله بن قمئة جرح وجنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته .

الرابع : وقوع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في حفرة من الحفر التي حفرها أبو عامر كمكيدة ليقع فيها الصحابة ، فأخذ الإمام علي عليه السلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بيده^(١).

(وذكر قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما وقع لشقه أغمي عليه ، فمر به سالم مولى أبي حذيفة فأجلسه ومسح الدم عن وجهه ، فأفاق وهو يقول: كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى الله ، فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾^(٢) الآية)^(٣).

الخامس : كسر الخوذة التي على رأس النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فبدل أن تكون واقية لرأس النبي من السيوف والحجارة تهشمت على رأسه الشريف .

السادس : استمرار سيلان نزيف الدم من وجه ورأس النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وكانت فاطمة عليها السلام تغسل الدم والإمام علي عليه السلام يسكب عليها الماء ، فلما رأت أن النزف يزداد ولا ينقطع أخذت قطعة حصير فأحرقتها ، ولما صارت رماداً ألصقته بالجرح فانقطع النزف^(٤).

(وعن سهل بن سعد : أن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم جرح يوم أحد ، وكسرت رباعيته^(٥) ، وهشمت البيضة على رأسه ، وانصرف المشركون ، فخرج النساء إلى الصحابة ، فكانت فاطمة

(١) ابن كثير ٤٦/٣ .

(٢) سورة آل عمران ١٢٨ .

(٣) ابن كثير / السيرة النبوية ٤٦/٣ .

(٤) انظر زاد المعاد ٤٥/٤ .

(٥) الرباعية : السن التي تلي الشية .

فيمن خرج، فلما لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتنقته، وجعلت تغسل جراحته وعلي يسكب الماء بالمجن فتزايد الدم، فلما رأت ذلك أخذت شيئاً من حصير، فأحرقتة بالنار حتى صار رماداً، فأخذت ذلك الرماد وكمدته حتى لصق بالجرح، فاستمسك الدم^(١).

السابع : تقدم أبي بن خلف نحو النبي صلى الله عليه وآله وسلم لإرادة قتله إذ كان يهدد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالقتل وهو في مكة حتى إذا دنا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ضربه بحربة أخذها من أحد الصحابة فخدشه وكان فيها هلاك أبي كما سيأتي بيانه.

لقد كان المسلمون بحاجة إلى الصبر والتقوى يومئذ الصبر في ميدان المعركة وملاقاة الغزاة المشركين ، والصبر في عدم الانتقام والبطش بعد كثرة قتل الصحابة وكان أكثرهم من الأنصار. وهل يصح تقدير الآية : يا أيها النبي إن تصبر وتتقي فان ذلك من عزم الأمور ، الجواب نعم.

ونزل القرآن بالأمر إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالصبر ، قال تعالى ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾^(٢).

وتتضمن الآية قبل السابقة ﴿لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٣)،

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ٢١٠/٤ .

(٢) سورة يونس ١٠٩.

(٣) سورة آل عمران ١٨٦.

دعوة المسلمين للصبر على الجراحات التي أصابت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن معاني الصبر في المقام أن هذه الجراحات على حجة الذين كفروا ، وفيها دعوة لأفراد القبائل بالإمتناع عن نصره وتأييد قريش في قتالها لرسول الله وغزوها المتكرر للمدينة.

الثامن : إرادة أبي بن خلف قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم
إذ كان يتوعده بالقتل وهو في مكة وفي معركة أحد دنا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد.

قوله تعالى ﴿فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَقَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾

(وفي حرف عبد الله بن مسعود { لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا بِمَقَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ })^(١).
أي لم يكرر (تحسبنهم) في قراءته.

وعلى فرض صحة سند الحديث وجهة الصدور فإن المدار على ما مرسوم في المصاحف .

لم يرد لفظ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ في القرآن إلا في آية البحث ، وجاء على نحو التريديد والتكرار ولقد تكرر العامل وهو (تحسبن) فهل المعمول واحد وهم الذين يحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا ، المختار لا ، إذ أنه أعم وهو من أسرار التريديد والتكرار في الآية ، وأن موضوعه لا ينحصر بالتأكيد وحده.

لم ينفرد القرآن بذكر ما ينتظر الكفار من العذاب الأليم يوم القيامة ، فقد جاءت به التوراة والإنجيل ، وحذر وأنذر منه الأنبياء السابقون ، وهذا الإنذار رسالة السماء إلى الأرض ، وحجة لله عز

وجل على الناس في الدنيا والآخرة ، قال تعالى ﴿وَمَا نُزِّلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾^(١).

ولا يختص إنذار الأنبياء بخصوص عالم الآخرة وعذاب الكفار فيه ، إنما يشمل أمور الدنيا ، والإنذار من ذات الكفر وفعل العاصي ، وما يترتب عليها من الضرر الخاص والعام ، وهو من إعجاز خاتمة آية البحث بجمعها بين أمرين في موضوع متحد ، وهما :

الأول : حرمان الكفار من النجاة من العذاب ، لقوله تعالى ﴿فَلَا

تَحْسَبْنَهُمْ بِمَقَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾^(٢).

الثاني : العذاب الأليم في الآخرة .

وظاهر علماء التفسير اتحاد العذاب في الآية وتقديرها : لا تحسبنهم بمقازة من العذاب بل لهم عذاب أليم . والمختار تعدد عذاب الكافرين ليشمل :

الأول : الأذى والضرر في الدنيا .

الثاني : العذاب الإبتدائي في القبر ، وعالم البرزخ ، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من مات مريضاً مات شهيداً ووقي فتاني القبر ، وغدي ، وريح عليه برزق من الجنة^(٣) . والمراد من فتاني القبر : منكر ونكير .

ومعنى غدي وريح عليه أي أن رزقه يأتيه بكرة وعشياً .

الثالث : العذاب الشديد في الآخرة ، وبه اختتمت آية البحث

بقوله تعالى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٤).

(١) سورة الأنعام ٤٧.

(٢) سورة آل عمران ١٨٨.

(٣) مسند أبي يعلى الموصلي ٤٠٠/١٢ .

(٤) سورة آل عمران ١٨٨.

إذ أن الواو في الآية أعلاه تفيد العطف والمغايرة والتعدد.
 قد تبدو كلمة ﴿مَنَازَةً﴾ قريبة إلى الوجود الذهني ، ويظن القارئ للقرآن أنها لفظ متكرر في القرآن خصوصاً وأنها وردت في نقي نجاة الكافرين والمنافقين من العذاب بصيغة النفي.
 فقد ترد في موضع آخر من القرآن بلغة الإنذار والوعيد ، وقد ترد بصيغة الإيجاب والأمن ، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات في مفازة من العذاب ، لتكون بشارة ووعداً كريماً ، ولكن هذه الكلمة لم ترد في القرآن إلا في آية البحث .
 لبيان شدة العذاب على المعصية التي ذكرتها آية البحث ، وهي متعددة من وجهين :

الأول : الفرح باخفاء حقائق التنزيل .

الثاني : رجاء تلقي الثناء والحمد على عمل صالح لم يفعلوه مثل الإيمان والدفاع عن بيضة الإسلام ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد ورد في ذم المنافقين قوله تعالى ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(١).

وبلحاظ آية البحث فإن المنافقين يفرحون بالبخل والشح ، والإمتناع عن الإنفاق في سبيل الله ، يحبون أن يحمدا على فعلهم المنكر ، وعلى نهيمهم عن المعروف ، وفي التنزيل ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^{(٢)(٣)(١)}.

(١) سورة التوبة ٦٧.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) أنظر الجزء السادس والثمانين بعد المائة من هذا السفر المبارك الذي اختص بالصلة بين هذه الآية والآية ١٨٠ من سورة آل عمران .

وهل نصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في معركة بدر يؤذي الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا ، الجواب نعم ، وهو من مصاديق أنهم ليسوا ﴿بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ إذ أن هذا العذاب أعم من أن يختص بعالم الآخرة ، بل يشمل الحياة الدنيا ، وتقدير الآية : ولا تحسبنهم بمفازة من العذاب يوم التنزيل .

ليبان تعدد مفاهيم قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرٍّ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ...﴾ (٢) منها نزول العذاب بالكافرين والمنافقين الذين يفرحون بكتمان ميراث وبشارات النبوة ، والذين نافقوا وان لم يحاربوا النبي في معركة بدر ، ولم ينصروا قريشاً يومئذ ، ولكن نصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهزيمة المشركين صارت تؤذيهم ، وفيها بيان عملي بأن كتمانهم هذا لن يضر النبوة والتنزيل ، وأن الناس سيدخلون الإسلام من دون أن يلتفتوا إلى عداوتهم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (٣).

ومن وجوه تفسير القرآن بالقرآن الإنذار للذين كفروا والمنافقين بعد فرحهم بما في أيديهم من النعم ، ومقابلتهم النبوة والقرآن بالإنكار ، قال تعالى ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (٤).

(١) أنظر الجزء السابع والثمانين بعد المائة من هذا السفر المبارك الذي اختص بتفسير هذه الآية .

(٢) سورة آل عمران ١٢٣ .

(٣) سورة النصر ١-٣ .

(٤) سورة الأنعام ٤٤ .

لقد كان وجود النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة بركة متجددة لأهلها ، وهي تتضاعف على نحو دائم ، ويدل عليه الوجدان والوقائع ولغة الأرقام .

فقد انشئت المساجد في المدينة ، وأقيمت الصلاة ، ووردت الغنائم والهدايا إلى المدينة ، وصار أهلها تجاراً وكسبة بعد أن كان الغالب على مهنتهم وكسبهم الفلاحة وريعها المحدود .

لذا فان قوله تعالى ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ في الآية أعلاه من التفسير أعم لقوله تعالى ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بِمَقَارَزةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ .

أي العذاب الدنيوي ، ويكون مقدمة للعذاب الأليم في الآخرة ، مما يدل على أن ذكرهم هذه الآية بالذم والتوبيخ إنذار ورحمة ، ومن الرحمة في المقام اشعارهم بلزوم التدارك والإستغفار .

تكرار ﴿تَحْسَبَنَّ﴾

لقد جمعت آية البحث بين أمرين من عالم الفعل ليس لهما أصل وهما :

الأول : الفرح بفعل خلاف الواجب .

الثاني : حب الإنسان لتلقي الثناء على فعل لم يأت به ، مع إدراكه بأنه فعل صالح مرغوب بالفطرة .

وتكرر قوله تعالى ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ مرتين في الآية لأمرين :

الأول : قانون الزجر عن التدليس والنفاق وإخفاء الحق .

الثاني : قانون فضح المنافقين وزجرهم عن قول خلاف الحق .

الثالث : قانون منع الإشاعات والإرجاف في المدينة .

الرابع : قانون تأكيد نفي الظن بنجاة الذين ظلموا من العذاب الأليم يوم القيامة .

الخامس : دعوة الناس للوفاء بالعهد والميثاق .

السادس : التذكير بالميثاق ، فمن خصائص الإعادة التوكيد والتنبيه ، قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

السابع : طرد الغفلة عن الناس .
ومن أسرار أخذ الله الميثاق من الناس على نحو متكرر ومتنوع حضور الميثاق في العبادات والمعاملات لقانون الميثاق أمر وجودي يومي عام .

الثامن : تكرار آيات الميثاق في الصلاة اليومية جماعة وفردى ، وهو من الإعجاز في وجوبها على كل مسلم ومسلمة ، ولا يختص هذا التكرار بالمسلمين لأن أهل الكتاب والكفار يسمعون تلاوة المسلمين وعمومات قانون الاستماع للقرآن موعظة.

التاسع : من معاني التكرار في الآية تعدد الموضوع الذي يترشح عنه هذا الظن ، ومع أن عدد آيات القرآن (٦٢٣٦) فإن تكرار اللفظ أو الجملة فيه قليل ، ولا بد من إحصاء التكرار في القرآن ليتجلى الإعجاز فيه ، وفي دلالاته ولغة الإنذار أو البشارة فيه .

بحث بلاغي

ورد لفظ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ مكرراً في آية البحث ، والثاني منهما ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ مع إرادة ذات القوم الذين تتضمن الآية ذمهم ويسمى التكرار اللفظي بتكرار ذات اللفظ الأول ، ويدل بذات الاسم أو إذا كان التكرار بمرادفه ، ولكنه في علوم القرآن لا يدخل معه ، فكل لفظ وإن كان مرادفاً للأول فإن له معنى آخر بلحاظ ذات اللفظ وموقعه في الآية.

والتكرار معروف في لغة العرب ، والتخاطب بينهم ويسمى أيضاً التكرير (وكرره تَكْرِيراً وتكراراً وتكررةً، كتحلّة، وكركره أعاده مرةً بعد أخرى)^(١).

ويراد منه البيان والتأكيد والإفهام ، ويأتي التكرار تارةً لكلمة وأخرى للجملة ، ومن تكرار الجملة ﴿كَأَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ * ثُمَّ كَأَسَوْفَ تَعْلَمُونَ^(٢).

و(عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ رَدَّهَا ثَلَاثًا وَإِذَا أَتَى قَوْمًا فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ ثَلَاثًا)^(٣).

والمختار أن التكرار في القرآن أعم من معناه البلاغي ، واستعمال العرب له بلغة الخطاب ، فاذا تكرر اللفظ في الآية القرآنية فانه يحمل معنى آخر ، أو أن الجملة فيها حذف يلزم التقدير كما تقدم بيانه^(٤).

ويدعو تكرار اللفظ القرآني في الآية الواحدة العلماء إلى الغوص في كنوز القرآن والسنة النبوية والصلة بين آيات القرآن وعلم المناسبة الذي استحدثناه في هذا السفر المبارك في الربط بين معاني اللفظ الواحد في آيات القرآن ، وحتى إذا لم يتكرر اللفظ القرآني فان المنفرد منه له دلالات عديدة.

وصحيح أن الخطاب في آية البحث يتوجه إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن تقدير الآية على وجوه أخرى أيضاً منها:
الأول : يا أيها الذين آمنوا لا تحسبوا .

(١) القاموس المحيط ٤٩٩/١ .

(٢) سورة التكاثر ٣-٤ .

(٣) مسند أحمد ٢٦/٢٩١ .

(٤) انظر باب وجوه تقدير الآية ص ٢١٨ .

الثاني : يا أهل الكتاب لا تحسبوا .

الثالث : يا أيها الذين كفروا لا تحسبوا .

الرابع : يا أيها الناس لا تحسبوا .

وهل يصح تقدير الآية الآية : يا أيها الملائكة لا تحسبوا.. في الرد عليهم عندما احتجوا على جعل الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١)، الجواب نعم.

وهل يصح تقدير الآية : يا معشر الجن لا تحسبوا ، المختار نعم ، قال تعالى ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ حَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾^(٢).

قانون المنافع اليومية للميثاق

ومن الإعجاز أن منافع التذكير بالميثاق تتعلق بأمور :

الأول : تفضل الله عز وجل بأخذ الميثاق من الناس عامة ومن أهل الكتاب خاصة ، وعلى الأنبياء على نحو خصوص الخصوص .

الثاني : سمو الميثاق وحسنه الذاتي .

الثالث : العز والرفعة بالميثاق وتعاهده ، وقال تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ

وَكَرَسُؤُهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) ومن الإيمان التسليم بالميثاق والعمل بمضامينه .

الرابع : وجوه الإتحاد بين المسلمين وأهل الكتاب في العهد والميثاق وبواسطته ، قال تعالى في خطاب إلى النبي محمد صلى الله

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة الأنعام ١٣٠.

(٣) سورة المنافقون ٨ .

عليه وآله وسلم ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(١).

الخامس : الميثاق طريق الهداية إلى الإيمان والرشاد والإسلام .

السادس : الميثاق برهان وحجة في الدنيا والآخرة .

السابع : الأجر والثواب على العمل بالميثاق ، ومن إعجاز القرآن بقاء العمل بأحكامه وسلامته من التحريف إلى يوم القيامة ، لتبقى آيات الميثاق دعوة للناس للعمل بسنته ، وهو سبيل لأخذ الحائطة من الشيطان .

الثامن : الميثاق واقية من اتباع الهوى والضلالة .

التاسع : من مصاديق قوله تعالى ﴿لَيَبْلُغَنَّ لِلنَّاسِ﴾^(٢) في الآية السابقة أن هذا البيان لو تم فرمما كان زاجراً لقريش وحلفائها عن محاربة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وعن غزوهم المدينة .

قوله تعالى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

لقد أخبرت آية البحث عن العذاب الذي ينتظر الكفار ، وفيه دعوة للكفار للتوبة والإنابة ، فمن خصائص الإنسان حرصه على دفع الأذى عن نفسه سواء الأذى الكثير أو القليل ، وأخبرت آية البحث عن شدة العذاب الذي سوف يلقاه الكفار في الآخرة بسبب سوء فعلهم .

ترى ما هي النسبة بين العذاب الأليم الذي أختتمت به آية البحث وبين دخول النار ، قد يتبادر إلى الذهن أن النسبة هي التساوي بينهما ، والمختار أنها العموم والخصوص المطلق .

(١) سورة آل عمران ٦٤ .

(٢) سورة آل عمران ١٨٧ .

فان العذاب الأليم أعم وأكبر ويبدأ من عالم البرزخ ، وهل هذا العذاب من الكلبي المتواطئ أو المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة قوة وضعفاً.

الجواب هو الثاني بحسب الشرك والظلم والمعصية وأوان العذاب بالنسبة لذات الكافر .

و(عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن أدنى أهل النار عذاباً يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار ، يغلي دماغه من حرارة نعليه) (١).

وقد ورد وصف العذاب في الآخرة بأوصاف منها :

الأول : العذاب المهين ، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (٢) .

الثاني : العذاب المقيم .

الثالث : العذاب الشديد ، قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٣) .

الرابع : العذاب الغليظ ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ (٤) .

الخامس : عذاب السعير .

السادس : عذاب الجحيم .

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ١٩٠.

(٢) سورة النساء ١٤.

(٣) سورة يونس ٦٩-٧٠.

(٤) سورة الملك ٥.

السابع : العذاب الأليم .

وهل هذه الأسماء لمسمى واحد ، وصنف واحد من العذاب ،
الجواب لا ، إنما كل فرد منها صنف خاص من العذاب .

ونزلت آية البحث لإنذار الناس من العذاب الأخروي ،
والتعاون للمنع من أسباب هذه العذاب .

وليس من حصر لضروب وصيغ العذاب الذي يلقاه الكفار ،
والمناقفون يوم القيامة ، وقد نزل القرآن بذكر شطر منها ، وجاءت
السنة النبوية بالبيان والتفصيل ، ومنه حديث الإسراء ، ورؤية النبي
لأهل النار .

والمختار والمشهور شهرة عظيمة أن الجنة والنار مخلوقتان ، وهما
موجودتان الآن .

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال (إن رسول الله صلى الله
عليه وآله حيث أسري به لم يمر بخلق من خلق الله إلا رأى منه ما
يحب من البشر والطف والسرور به ، حتى مر بخلق من خلق الله
فلم يلتفت إليه ولم يقل له شيئاً فوجده قاطباً عابساً .

فقال : يا جبرئيل ما مررت بخلق من خلق الله إلا رأيت البشر
واللطف والسرور منه إلا هذا ، فمن هذا .

قال : هذا مالك خازن النار ، هكذا خلقه ربه .

قال : فإني أحب أن تطلب إليه أن يريني النار ، فقال له جبرئيل
عليه السلام : إن هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وقد
سألني أن أطلب إليك أن تريه النار .

قال : فأخرج له عنقا منها فرأها فلما أبصرها لم يكن ضاحكاً
حتى قبضه الله عز وجل^(١) .

ومن أحوال المنافقين يوم القيامة ما ورد في قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقَسٍ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بُابٌ بِاطْنِهِ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتننهم أنفسكم وتربصنهم وارتبتم وغررتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغرركم بالله الغرور * فالיום لا يُوَفِّدُ مِنْكُمْ فِدْيَةً وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أُوَكِّلَ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ^(١).

ليبيان قانون وهو عدم إحصار العذاب الأليم الذي تذكره آية البحث بخصوص عالم الجزاء ودخولهم النار .
وبينما ذكرت الآيات أعلاه المنافقين والمنافقات فان آية أخرى جاءت بخصوص المنافقين بقوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ خَيْرًا ^(٢).

ولم يرد لفظ ﴿الدَّرَكِ﴾ في القرآن إلا في الآية أعلاه ، ونستحدث مسألة وهي هل يختص العذاب في الإقامة بالدرك الأسفل من النار بالرجال من أهل النفاق دون النساء ، أم ورد ذكر المنافقين في الآية لتغليب المذكر ، وأن المنافقين والمنافقات في الدرك الأسفل من النار .
المختار هو الأول ، وأن اللبث في الدرك الأسفل من النار خاص بالرجال من أهل النفاق من النساء رافة من الله عز وجل بالنساء ، خاصة وقد جعل شهادة الاثنتين منهن عن شهادة رجل واحد ، إلا أن يرد دليل من الكتاب والسنة على خلافه .

(١) سورة الحديد ١٣-١٥.

(٢) سورة النساء ١٤٥.

قانون إتخاذ النعمة مع عمومها وتجديدها

من معجزات نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم مجئ النعمة الخاصة لتشمل العام ، وكذا بالعكس مجئ النعمة العامة لتغشى الفرد الواحد من غير أن يكون هناك دور بينهما ، وليس من حصر لكل فرد منهما.

وفي معركة أحد قام المشركون بغزو المدينة ، إذ تفاجئ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بثلاثة آلاف مقاتل من المشركين على بعد (٥) كم من المسجد الحرام ومسافة أقل بينهم وبين أطراف المدينة ، إذ كان المسجد في وسطها ، فاستشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه في الخروج إليهم ، أو في البقاء في المدينة لعمومات قوله تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^(١).

وهل تتضمن الآية دعوة للذي يهتم بالإرهاب أن يستشير الحكماء والعلماء وأهل الحل والعقد. الجواب نعم ، ليمنعوه من هذا الفعل ، ويبينوا له قبحه الذاتي ، وضرره الخاص والعام.

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار النعم ، فما أن يولد الإنسان حتى تتوالى عليه النعم ، ومن فضل الله جعله الإنسان يدرك أموراً :
الأول : قانون الحاجة الشخصية والعامة للنعم الإلهية.

الثاني : قانون لا يقدر على النعم التوالي إلا الله عز وجل ، وفي التنزيل ﴿وَأَنْزَلَ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(٢).
الثالث : قانون حضور النعم عند الحاجة ومن دون حاجة إليها .

(١) سورة آل عمران ١٥٩.

(٢) سورة الحديد ٢٩.

الرابع : قانون استدامة النعمة الإلهية .

الخامس : قانون وجوب الشكر على النعمة .

لقد فاز المسلمون بالقيام بالشكر لله عز وجل ، وهذا الشكر من الميثاق الذي أخذه الله على الأنبياء وأهل الكتاب والناس جميعاً فيشكر الأنبياء وأتباعهم الله عز وجل وبالشكر لله جاءت التوراة والإنجيل والقرآن . ومن خصائص النعمة الإلهية الواحدة أنها انشطارية تتفرع عنها عدة نعم ، من غير أن تمحى أو تضحل النعمة الأصل ، لتكون الحياة زاهية مزينة بالنعمة النازلة ، والشكر الصاعد .

وجاءت آية البحث لي شكر الناس الله عز وجل على ما رزقهم وما آتاهم ، وما جعلهم يؤتوناه من الأفعال .

ومن الشكر لله عز وجل في المقام عدم تعارض الفعل مع الأوامر الإلهية ، ليكون عمل الإنسان مرآة للصالح ، وعوناً للنسوة والتنزيل ، ولكن طائفة من الناس جحدوا بالتنزيل ، وأرادوا من الناس مدحهم والثناء عليهم على هذا الجحد فنزلت آية البحث إنذاراً لهم ، ورحمة بالناس جميعاً فهي نعمة تتفرع عنها النعم إلى يوم القيامة .

وفي الآية تحذير من الإقامة على المعصية وما تدمه آية البحث من طلب المدح على الصدود عن الدعوة النبوية ، وعن النفاق فقد تكون هذه الإقامة برزخاً وحاجباً دون استدامة النعمة .

أقسام الحيض

(مسألة ٦٠٣) يقسم حال المرأة في موضوع الحيض تقسيماً عقلياً استقرائياً الى قسمين:

١- ذات العادة ٢- غير ذات العادة .

والقسم الأول على شعب :

الأولى : ذات العادة الوقتية العددية ، وهي التي ترى الدم في يوم معين من كل شهر ويستمر لمدة تتكرر في كل شهر فيتمائل عندها الوقت والعدد في شهرين أو أكثر ، كما لو كانت ترى الدم في اليوم

الأول من الشهر ويستمر عندها في كل مرة سبعة أيام فيكون أوان الحيض ومدة أيامه ثابتين.

الثانية : ذات العادة الوقتية فقط: وهي التي اعتادت رؤية الحيض في يوم معين من كل شهر ، ولكن مدة الحيض تختلف بين شهر وآخر كما لو كانت ترى الدم في اليوم الخامس من كل شهر مرة ، ويستمر لسته أيام وأخرى سبعة أيام ، أو خمسة أيام، فالتماثل ينحصر عندها في أوان بداية الحيض دون عدد أيامه.

الثالثة : ذات العادة العددية فقط: أي ان التماثل يكون في عدد أيام الحيض دون الوقت، ففي كل شهر أو اقل من شهر تكون مدة حيضها مثلاً خمسة أيام ولكنه مرة يأتيها في اول الشهر ومرة في اليوم الرابع منه او السابع منه وهكذا.

وبالنسبة للأولى أي الوقتية العددية فإنها تحيض برؤيتها للدم بصفات الحيض بما يوجب الإطمئنان العرفي، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم للتي تعرف أيامها: "أدي الصلاة أيام اقراءك".

وكذا بالنسبة للثانية وهي الوقتية فقط فإنها تترك العبادة بمجرد رؤية الدم في العادة ولو لم يكن الدم جامعاً للصفات وتترتب عليها جميع أحكام الحائض، نعم لو علمت بعد ذلك عدم كونه حيضاً كما لو انقطع قبل تمام ثلاثة ايام فإنها تقضي ما تركته من العبادات لقاعدة الإشتغال وعدم ثبوت الحيض الذي لا يكون أقل من ثلاثة ايام.

(مسألة ٦١١) صاحبة العادة الوقتية العددية والعادة الوقتية تترك العبادة حالما ترى دم الحيض، وكذا لو تقدم او تأخر يوماً أو يومين أو أكثر مع صدق تقدم العادة أو تأخرها وترتب أحكام الحيض وتترك الحائض عليه وان كان فاقداً لصفات الحيض، نعم لو علمت بعد ذلك انه ليس بحيض كما لو انقطع قبل تمام ثلاثة أيام فعليها قضاء ما فات من صلاتها وعبادتها لقاعدة الاشتغال ووجود

المقتضي^(١).

وللاستبراء من الحيض أحكام وقواعد .

وكذا بالنسبة للإستظهار .

ومما يحرم على الحائض :

العبادات المشروطة بالطهارة كالصلاة والصوم والطواف والإعتكاف فريضة او تطوعاً وعليه النصوص والإجماع^(٢).

(مسألة ٦٤٣) يحرم على الحائض تمكين الزوج من الوطء حتى تطهر سواء ثبتت الحيضية بالعلم أو بقاعدة الامكان ونحوها من الطرق المتبعة لمعرفة الحيض ، قال تعالى ﴿فَاغْتَسَلُوا بِنِجَائِكُمْ﴾^(٣) ، والمحيض اسم موضع الحيض وسيلان دمه وفيه شاهد على إباحة ما بعده.

وفي الآية أعلاه ورد عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال (جامعوهن في البيوت ، واصنعوا كل شيء إلا النكاح)^(٤).

لقد جعل الله عز وجل أحكام الطهارة ومقدمات الصلاة وسائر العبادات حصانة من الإرهاب ، ودعوة للإنشغال بطاعة الله عز وجل عن إيذاء الغير ، ولا تنحصر هذه الطاعة بأداء الفرائض بل تشمل مقدماتها ، وإدراك المسلم والمسلمة أن الدنيا دار طاعة الله وعبادته ، والتتزه عن مفاهيم الضلالة وعن الإرهاب والعنف .

(١) انظر رسالتنا العملية (الحجة) ج ١/١٠٩.

(٢) انظر رسالتنا العملية (الحجة) ج ١/١٠٩.

(٣) سورة البقرة ٢٢٢.

(٤) الدر المنثور ٢/٢٠ .

لماذا الميثاق خاص

جاءت الآية السابقة بالإخبار عن ميثاق وعهد ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُونُوهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتُرُونَ﴾^(١).

ووردت الآية بصيغة الجملة الخبرية لبيان قانون من الإرادة التكوينية ، وهو وجود ميثاق وعهد أخذه الله عز وجل على أهل الكتاب لابد أن يتقيدوا به ، ويحتمل هذا الميثاق وجوهاً :

الأول : إنه الميثاق الذي أخذه الله عز وجل على الناس في عالم الذر ، قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾^(٢) وقد تقدمت بعض القوانين الخاصة بهذا الميثاق في الجزء السابق^(٣).

الثاني : ميثاق خاص بين الله عز وجل وأهل الكتاب .

الثالث : بعثة كل رسول إلى أهل الكتاب هي ميثاق .

الرابع : أخذ كل رسول الى أهل الكتاب الميثاق على أنصاره وأتباعه.

فان قيل لماذا يؤخذ من المؤمنين الميثاق بينما الكفار في حلّ منه إذ انهم يمحذون بالنبوة والتنزيل ، والجواب من جهات :

الأولى : الميثاق نعمة ورحمة وفضل من الله سبحانه.

(١) سورة آل عمران ١٨٧.

(٢) سورة الأعراف ١٧٢.

(٣) انظر الجزء الرابع والعشرين بعد المائتين ص ٢٣٨ .

الثانية : في الميثاق تشریف وإكرام ، فحينما قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾^(١) فانه عهد وباب للرزق الكريم والثواب العظيم .

الثالثة : تكليف الكفار بالفروع مثلما هم مكلفون بالأصول ، بمعنى إن لم يؤخذ عليهم الميثاق فمضامينه واجبة عليهم ، لوحدة الموضوع في تنقيح المناط ليكون الفارق هو إكرام أهل الكتاب ، وإقامة الحجة على الذين كفروا .

الرابعة : إعانة أهل الكتاب على العمل بالميثاق ومنه البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن وجوه هذه الإعانة :

الأول : ذات أخذ الكتاب ، لأنه مدد وعون .

الثاني : الميثاق فرع حب الله عز وجل .

الثالث : إعانة أهل الكتاب للعمل بالميثاق ، وتقريبه منهم ، ومنع الحواجز والعوائق ، وآية البحث من هذا المنع ، وهو من وجوه تفضيل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومن مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢) .

الرابع : بشارات الأنبياء والرسل ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والترغيب بالتصديق بنبوته ، وورد على لسان عيسى عليه السلام في التنزيل ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ

(١) سورة آل عمران ١٨٧ .

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧ .

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ^(١)، وقد تقدم قولنا : يمكن تسمية الحياة الدنيا دار الميثاق^(٢).

فلم يهبط آدم إلا وقد أخذ الله عز وجل عليه وعلى ذريته الميثاق ، وهل الميثاق من الأسماء في قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣).
الجواب نعم ، وليس من إنسان إلا وقد أخذ الله عز وجل عليه الميثاق.

ترى ما هي النسبة بين الخلافة في الأرض والميثاق ، الجواب هو العموم والخصوص المطلق ، فالميثاق جزء من الخلافة .

لذا حينما تساءل الملائكة عن جعل الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٤)، جاء الرد من عند الله عز وجل ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٥)، للإخبار بأن الميثاق قانون سماوي ونظام يحكم أهل الدنيا بما يمنع من غلبة الشرك ومن شيوع الفساد ، وسفك الدماء .

ومن الميثاق الإلهي إصلاح الإنسان ليميز به بين الحق والباطل ، ويدرك معجزة النبي فيصدق برسالته ويعمل بالميثاق الذي جاء به ، وهل القرآن ميثاق بين الله والناس .

(١) سورة الصف ٦.

(٢) انظر الجزء السابع عشر بعد المائتين ص ٣٢ .

(٣) سورة البقرة ٣١.

(٤) سورة البقرة ٣٠.

(٥) سورة البقرة ٣٠.

الجواب نعم ، فلا بد من قبوله ، وهو الكتاب النازل من عند الله ، وفي يحيى ورد قوله تعالى ﴿يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَأَنبِئْهُمْ الْحُكْمَ صَيًّا﴾^(١).

وعن الإمام علي عليه السلام : العاقل من رفض الباطل (٢)، لبيان عدم إنحصار وظيفة العقل بالتمييز بين الحق والباطل ، إنما تشمل إتيان الحق ، وتهيئة مقدماته ، وإجتنب الباطل والإنزجار عنه .

فميثاق أهل الكتاب خاص بهم لأن المشركين أعرضوا عنه ، وامتنعوا عن قبوله وعن تصديق الأنبياء الذين جاءوا به ، والإمتناع بالإختيار لا ينافي الإختيار. لقد كان ميثاق أهل الكتاب أمانة عقائدية تتجلى بالإيمان بالله عز وجل وعدم الشرك به.

هل يعلم الملائكة بميثاق الذر

تتعدد المواثيق التي أخذها الله عز وجل على الناس ، وهي وسيلة للهداية ، وواقية من إرتكاب السيئات ومن هذه المواثيق :

الأول : ميثاق عالم الذر ، ويحتمل أوان قول الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا

مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٣)، وجوهاً :

الأول : قبل أخذ الله ميثاق بني آدم في عالم الذر .

الثاني : بعد أخذ الله الميثاق على بني آدم .

الثالث : لا يعلم الملائكة بميثاق عالم الذر .

(١) سورة مريم ١٢.

(٢) البحار ١/ ١٥٩.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

الرابع : يعلم الملائكة بميثاق عالم الذر ، ولكنهم لا يعلمون
بنتجه وأثره في تثبيت دعائم التوحيد في الأرض .

والمختار هو الأول أعلاه ، وهو من مصاديق رد الله عز وجل
على الملائكة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١) ، لتدرك الملائكة
موضوعية ميثاق عالم الذر والمواثيق الأخرى في صلاح أهل
الأرض .

وقد تقدم أن نزول الملائكة لنصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله
وسلم في معارك الدفاع الأولى عن الإسلام من علم الله الذي لم
تكن الملائكة تعلمه عند خلق آدم ، وهو من أسباب انحسار الفساد
وسفك الدماء في الأرض .

وهل أخذ الله الميثاق من بني آدم قبل تعليم آدم الأسماء أم بعده
، المختار هو الأول ، لذا فإن الميثاق من مصاديق قوله تعالى ﴿يَا آدَمُ
أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي
أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^(٢) .

ولم يرد لفظ أسمائهم في القرآن إلا في الآية أعلاه ، وورد فيها
مرتين لبيان معجزة لآدم وهي أنه لم يتخلف أو يتلكأ في تعليم
الملائكة الأسماء فحالما أمره الله عز وجل بتعليم الملائكة بادر إليه .

وهل هو حجة على الإنسان عندما ينسى التكليف لأن آدم لم
ينس الأسماء التي علمه الله عز وجل مع كثرتها .

(١) سورة البقرة ٣٠ .

(٢) سورة البقرة ٣٣ .

الجواب نعم ، ولكن رفع القلم عن المكلف عند نسيانه لطف ورحمة وتخفيف من عند الله ، كما أن آدم نفسه نسي ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾^(١).

لقد كان ميثاق عالم الذر عهداً بين الله والناس ، وعهداً بين الملائكة والناس وليكون من معاني قوله تعالى ﴿إِنِّي أَغْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢)، تنبيه الناس على لزوم عدم الجحود بميثاق عالم الذر ، وأنه من الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، ويأتي التخفيف عن الناس بيان أهل الكتاب للميثاق.

وفيد الألف واللام في (الناس) الجنس فيشمل أهل الجزيرة .
ومن الشواهد على ميثاق أهل الكتاب ووجوب بيانه لجوء أهل مكة والمدينة إلى يهود المدينة ونصارى الشام وسؤالهم عن صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفق ما مذكور في كتبهم .
ومن إعجاز النبوة عدم الوقوف عند هذا الإخبار وبيان أهل الكتاب إذ رزق الله عز وجل النبي محمداً المعجزات العقلية والحسية التي تؤكد صدق نبوته ، وهو مما علمه الله عز وجل آدم وأخبر به الملائكة ليجتهد الملائكة في التسبيح والثناء على الله ، ويستعدوا للنزول إلى الأرض بالوحي إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبنصرته على كفار قريش.

ومن معاني قوله تعالى ﴿لَتَبَيَّنَنَّ لِلنَّاسِ﴾^(٣)، بيان ميثاق عالم الذر وفق ما يرد على لسان الأنبياء والرسل ، فمن لطف الله عز وجل أنه لم يكتف بأخذ الميثاق على الناس بل بعث الأنبياء ، وأنزل الكتب

(١) سورة طه ١١٥.

(٢) سورة البقرة ٣٣.

(٣) سورة آل عمران ١٨٧.

السمائية في التوحيد ووجوب طاعة الله وأتباع الرسل ، قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لَتَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ۖ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

الميثاق في القرآن

وقد ورد لفظ الميثاق في آيات منها :

الأولى : قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾^(٢).

وهل من معاني ﴿وقولوا للناس حسنا﴾ الإخبار عن البشارات بخاتم النبيين ، وصفات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الجواب نعم.

الثانية : قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾^(٣).

(١) سورة البقرة ١٤٣.

(٢) سورة البقرة ٨٣.

(٣) سورة آل عمران ٨١.

الثالثة : قوله تعالى ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قَلَّمَآ جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾^(١).

الرابعة : قوله تعالى ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾^(٢).

الخامسة : أخبر القرآن عن أخذ الله الميثاق من الأنبياء ، كما في قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾^(٣).
كما جاءت آيات بعنوان العهد وآية الدر من آيات الميثاق ، وإن لم يذكر فيها لفظ الميثاق أو الدر .

السادسة : الإشارة إلى الملازمة والتداخل الموضوعي بين العهد والميثاق منه قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾^(٤) وقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾^(٥).

(١) سورة المائدة ٧٠.

(٢) سورة المائدة ١٤.

(٣) سورة الأحزاب ٧.

(٤) سورة الرعد ٣٠.

(٥) سورة الرعد ٢٥.

السابعة : منه بعنوان (الوعد) و(الأمانة) قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(١).

الثامنة : الميثاق بعنوان الوصية المتعددة ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢)، لبيان أن المسلمين تلقوا الميثاق ليتقيدوا به ، ومن إعجاز الكلمة القرآنية ورود لفظ (وصاكم) في القرآن ، وفيه وجوه :

الأول : ورد لفظ (وصاكم) أربع مرات في القرآن.

الثاني : لم يرد لفظ (وصاكم) في القرآن إلا في سورة الأنعام .

الثالث : ورد لفظ (وصاكم) في ثلاث آيات متجاورات هي الآية ١٥١-١٥٢-١٥٣ ، والرابعة في الآية ١٤٤.

الرابع : لم يرد لفظ (وصاكم) إلا بالتوحيد والأمر والعهد من عند الله عز وجل ، وهو من لطفه تعالى بأن تأتي الأوامر منه سبحانه بصيغة الوصية تارة ، والأمر تارة ، والميثاق تارة أخرى لينزجر أهل المعاصي والذين يحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا من الخير ، ويدل هذا الحب بالدلالة الإلزامية على معرفتهم وتمييزهم بين الخير والشر ، والحق والباطل وان كتمان البشارات والمعجزات النبوية من الباطل.

وجاء في العهد القديم (٩: ٨ و كلم الله نوحاً و بنيه معه قائلا

(١) سورة النساء ٥٨.

(٢) سورة الأنعام ١٥١.

٩: ٩ وها أنا مقيم ميثاقي معكم و مع نسلكم من بعدكم
 ٩: ١٠ و مع كل ذوات الانفس الحية التي معكم الطيور و البهائم
 و كل وحوش الارض التي معكم من جميع الخارجين من الفلك
 حتى كل حيوان الارض
 ٩: ١١ اقيم ميثاقي معكم فلا ينقرض كل ذي جسد ايضا بمياه
 الطوفان و لا يكون ايضا طوفان ليخرب الارض
 ٩: ١٢ و قال الله هذه علامة الميثاق الذي انا واضعه بيني و بينكم
 و بين كل ذوات الانفس الحية التي معكم الى اجيال الدهر
 ٩: ١٣ وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني و
 بين الارض^(١).

وفي سفر العدد (٢٥: ١٢) لذلك قل هانذا اعطيه ميثاقي ميثاق
 السلام^(٢).

ترى ما هي الصلة بين خلافة الإنسان في الأرض وبين الميثاق ،
 الجواب إنها نسبة العموم والخصوص المطلق ، فالميثاق فرع الخلافة ،
 وهو الذي تتقوم به هذه الخلافة ، وتستديم معه الحياة الإنسانية ،
 ويسود السلم والأمن في الأرض ، لذى ترى الذي يتولى الحكم من
 الناس يحرص على بسط الأمن .

ويدرك قانون الحاجة العامة للأمن ، وأن أيامه في الحكم لا تدوم
 إلا بالأمن العام ، وإن كان بعضهم يجمع بينه وبين أمنه الخاص ،
 ويجعل الخاص هو الأصل ، ولكم لا عبرة بالقليل النادر .

وآية الذر من أهم آيات الميثاق ، وإن لم يرد فيها لفظ الميثاق أو
 العهد ، ولكنه مستقرأ من مضامين الآية القدسية ، وأيهما أكثر آيات
 الميثاق أم آيات الوعد من عند الله عز وجل للذين يفون بالميثاق ،

(١) موسوعة الكتاب المقدس ٥١/١.

(٢) موسوعة الكتاب المقدس ٢٧٩/١.

الجواب هو الثاني ، قال تعالى ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَهْرٍ
*فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾^(١) ، وحتى آيات الميثاق تتضمن
الوعد الكريم من عند الله عز وجل منطوقاً أو مفهوماً ، قال تعالى
﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ لَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾^(٢).

ترى ما هي النسبة بين المتقين والذين يوفون بالميثاق ، المختار هو
العموم والخصوص المطلق ، والمتقون أعم وأكثر .

قانون الإنذار طريق للتوبة

النسبة بين العذاب والبلاء عموم وخصوص مطلق ، فالعذاب
أشد ، وأشدّه وأطولّه عذاب الآخرة للذين كفروا وظلموا ،
وغادروا الدنيا على الإقامة على الكفر ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(٣) ، لبيان
تعذر النداء والعذاب يوم القيامة ، وعلى تقدير وجودهما فإنها لا
تجزى ولا تنفع ، قال تعالى ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا مَأْوَاهُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاهُمْ وَبَشِ الْمَصِيرِ﴾^(٤).

وعن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : يجاء
بالكافر يوم القيامة فيقال له : رأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً
أكنت مفتدياً به ، فيقول : نعم . فيقال : لقد سئلت ما هو أيسر من
ذلك ، فذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾^(٥) ^(١).

(١) سورة القمر ٥٤-٥٥.

(٢) سورة الرعد ٢٠.

(٣) سورة البقرة ١٦١.

(٤) سورة الحديد ١٥.

(٥) سورة البقرة ١٦١.

ويمكن تسمية الحياة الدنيا دار التوبة ، وليس من باب أوسع من باب التوبة الذي فتحه الله عز وجل للناس .

ويدعو القرآن إلى التوبة والإنابة ، وهو أمر ظاهر وجلي ، وهل يمكن القول بقانون وهو كل آية قرآنية تدعو إلى التوبة سواء في منطوقها أو مفهومها ، المختار نعم .

وهل تتضمن آية البحث الدعوة إلى التوبة في منطوقها أو مفهومها ، الجواب هما معاً .

ففي آية البحث دعوة للتوبة بالخطاب من الله عز وجل إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم دعوة للتصديق بنبوته وإتباعه فيما جاء به من عند الله عز وجل وهو من التوبة العملية كما تبين الآية الفعل القبيح الذي يقود إلى الخلود في الجحيم ، وهو حُضْ على الصلاح والتوبة ، وزجر عن فعل السيئات وبلحاظ الآية أعلاه فإن آية البحث تقول للناس : لا تموتوا على الفرح بالمعصية إنما هي لذة طارئة ، وعرض سريع الزوال يترتب عليه الضرر في الناشئين ، ولا تتطلعوا للشاء عليكم في الباطل وفي محاربة النبوة والتنزيل .

لقد جعل الله عز وجل آية البحث عضداً ومدداً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين ، وعلاجاً ينفذ إلى قلوب الناس للهداية والتوبة .

و(عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهب راحلته ، فطلبها حتى إذا اشتد عليه العطش والحر قال : ارجع إلى

مكانى الذي كنت فيه فأنام حتى أموت ، فرجع ، فنام نومة ، ثم رفع رأسه ، فإذا راحلته عنده عليه زاده وطعامه وشرابه ، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده^(١).

وتبين آية البحث قانوناً وهو تقسيم الفرح إلى قسمين :

الأول : الفرح المحمود ، وهو الفرح بفضل الله ، وباتيان الفرائض والواجبات والفرح بالنعم الإلهية والشكر عليه.

وكان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف في وجهه رجاء أن يكون مقدمة لنزول الغيث والمطر.

الثاني : الفرح المذموم ، ومنه ما ورد في آية البحث والفرح باخفاء الحق ، ومنه الفرح بطراً وغروراً ومنه فرح قارون ، قال تعالى ﴿إِنْ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾^(٢).

وإذ قام قوم قارون بنهيه فان آية البحث تنهى الكفار والمنافقين عن الفرح المذموم ومنه الفرح بالنازلة والمصيبة ، والبلاء الذي ينزل بالمسلمين وعامة الناس ، لذا فان آية البحث تزجر عن الفرح المذموم وترغب بالفرح المحمود وما فيه الأجر والثواب.

(١) الدر المنثور ٦٨/٩ .

(٢) سورة القصص ٧٦ .

قانون عام الوفود من الميثاق

وقد ورد لفظ ﴿تَعَالَوْا﴾ مرتين في القرآن ، والمرة الثانية بخصوص المباهلة مع وفد نجران ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(١).

ليكون من الميثاق المجئى الى الرسول والإستماع ، وتلقي الأحكام الشرعية منه ، فيشمل قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾^(٢)، مجئى الناس للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مثلما أنه يذهب إليهم ، وقد كان يذهب إلى منازل القبائل في منى أيام موسم الحج قبل الهجرة إلى الإسلام ، وبعد الهجرة صار النبي صلى الله عليه وآله وسلم يذهب إلى الناس وهم يأتون إليه ، حتى جاء العام التاسع للهجرة الذي سمي عام الوفود ، لكثرة وفود القبائل التي وفدت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ ضربت إليه العرب أباط الإبل من كل حذب ومكان واسلمت ثقيف.

وأعلنت هذه الوفود استعدادها للخروج مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم للجهاد والقتال ولكنه لم يخرج بهم إنما قام بتعليمهم الصلاة ، وأحكام الحلال والحرام ، وردهم إلى مدنها وقراهم .

ونزل القرآن بامهال مشركي العرب أربعة أشهر مما يدل على أن آية السيف بخصوص أيام النبوة على نحو الحصر كي تكون مقدمة لإمتناع الناس عن الردة ، ولتغلب المسلمين عليها أن حدثت ، قال تعالى ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

(١) سورة آل عمران ٦١.

(٢) سورة سبأ ٢٨.

* فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿١﴾.

وهل آية البحث من الخزي الذي تذكره الآية أعلاه ، الجواب نعم ، لذا وردت بصيغة الجملة الاسمية.

وقدوم هذه الوفود من مصاديق قوله تعالى في آية المباهلة أعلاه ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ وهو من الميثاق وتجده لبيان مسألة وهي أن النبي محمداً أكثر الأنبياء الذين أخذوا العهود والمواثيق على الناس .

وكان استقبال هذه الوفود في المسجد النبوي وعلى نحو مكشوف للجميع ليكون مناسبة للإنتفاع العام من الميثاق ، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقوم باستضافة الوفود ، وقد يقوم عدد من الصحابة باستضافتهم تكليفاً من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو تطوعاً إذ كان يجتهد وبالوحي في تعليمهم القرآن وأحكام الدين ، ويحضّ الصحابة على إعانتهم في تعلم أحكام الشريعة السمحاء ، ومكارم الأخلاق والصبر والحلم .

ومن هذه الوفود :

الأول : وفد عبد قيس .

الثاني : وفد بني أسد في أول السنة التاسعة للهجرة وكان عددهم عشرة رجال منهم حضرمي بن عامر وهو رئيسهم^(٢) ، وفيهم نزل ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾^(٣).

الثالث : وفد بني سعد بن بكر .

الرابع : وفد نجران .

(١) سورة التوبة ١-٢.

(٢) ابن كثير / السيرة النبوية ١٧٠/٤ .

(٣) سورة الحجرات ١٧.

الخامس : وفد الأشعريين .

السادس : وفد بني تميم .

السابع : وفد بني أسد .

الثامن : وفد بني عبس وهم تسعة نفر فقال لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أنا عاشركم .

التاسع : وفد كنانة .

العاشر : وفد تجيب وهم ثلاثة عشر رجلاً ، (عن أبي الخويرث قال قدم وفد تجيب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سنة تسع وفيهم .

غلام فقال يا رسول الله اقض حاجتي .

قال وما حاجتك قال تسأل الله أن يغفر لي ويرحمني ويجعل غنائي في قلبي .

فقال اللهم أغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه فرجعوا ثم وافوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الموسم بمنى سنة عشر .

فسألهم عن الغلام فقالوا ما رأينا مثله أقنع منه بما رزقه الله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إني لأرجو أن يموت جميعاً^(١) .

أي لم تشتهه وتشغله الأهواء وزينة الدنيا .

الحادي عشر : وفد بني حنيفة .

الثاني عشر : وفد اليمن .

الثالث عشر : وفد بني فزارة .

الرابع عشر : وفد بني عامر :

الخامس عشر : وفد معان .

(١) السيوطي / الخصائص الكبرى ٤٥/٢ .

وقيل الوفود الخمسة الأخيرة وفدت في السنة العاشرة للهجرة ، ومنهم من أوصل عدد الوفود الى سبعين وفداً ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١).

وقد تقدم ذكر قدوم وفد ثقيف وكثير من الوفود جاءت إلى المدينة بعد أن بلغها إسلام ثقيف ، وسيأتي مزيد بيان . لقد كان عام الوفود شاهداً على حال السلم التي جاهد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من أجل بسطها في ربوع الأرض ، وإرادة سلامتها من الإرهاب وسفك الدماء.

وقدوم الوفود هذا من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنِّي أَغْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢) ، في الرد من الله عز وجل على الملائكة حينما احتجوا على جعل الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٣) ، فان كثرة الوفود عنوان إتساع الأخوة الإيمانية ونفاذها إلى القبائل والقرى والمدن.

وتجلت بصلاة الجماعة في أنحاء الجزيرة وهي بذاتها ميثاق ومناسبة ليشكر المسلم ربه ، ويتلقى الحمد على حسن سمته وطاعته لله عز وجل ، وفيها نجاة من العذاب الأليم الذي حذرت منه آية البحث في خاتمتها .

(١) سورة الأعراف ١٢٨.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

آيات في الثناء على أهل الكتاب

الأول : الآيات التي تثبت نبوة موسى وعيسى عليهما السلام وتلقيهما الوحي من عند الله ، قال تعالى ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾^(١).

الثاني : الآيات التي تؤكد نزول التوراة والإنجيل من عند الله ، قال تعالى ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾^(٢) ، والنسبة بين الوحي وبين التوراة والإنجيل عموم وخصوص مطلق.

الثالث : الآيات التي تتضمن ثناء الله عز وجل على أهل الكتاب في آيات متعددة منها :

الأولى : قوله تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٣).

الثانية : قوله تعالى ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٤).

(١) سورة الشورى ١٣.

(٢) سورة آل عمران ٣.

(٣) سورة آل عمران ١٩٩.

(٤) سورة المائدة ٨٢.

الثالثة : قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِدَوْنِ
الْأَحْزَابِ مِنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ
مَآبٌ﴾^(١).

الرابعة : قوله تعالى ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ
آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾^(٢).

الخامسة : قوله تعالى ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ
الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا
تَكُونُ مِنَ الْمُنْتَرِينَ﴾^(٣).

السادسة : قوله تعالى ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ
سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ
يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾^(٤).

السابعة : قوله تعالى ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ
تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ
الشَّاهِدِينَ﴾^(٥).

(١) سورة الرعد ٣٦.

(٢) سورة آل عمران ١١٣.

(٣) سورة الأنعام ١١٤.

(٤) سورة الإسراء ١٠٧-١٠٩.

(٥) سورة المائدة ٨٣.

الثامنة : قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١﴾.

التاسعة : قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٢﴾.

العاشرة : قوله تعالى ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٣﴾.

الحادية عشرة : قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٤﴾.

الثانية عشرة : قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَلْوَنُهُ حَقَّ تَلَاوُتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿٥﴾.

(١) سورة القصص ٥١-٥٤.

(٢) سورة البقرة ٦٢.

(٣) سورة العنكبوت ٤٦.

(٤) سورة العنكبوت ٤٧.

(٥) سورة البقرة ١٢١.

الثالثة عشرة : قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(١).

الرابعة عشرة : قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا نَبِيَّ إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

الخامسة عشرة : قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾^(٣).

السادسة عشرة : قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾^(٤).

السابعة عشرة : قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾^(٥).

(١) سورة آل عمران ٦٤.

(٢) سورة الجاثية ١٦.

(٣) سورة المائدة ٧٧.

(٤) سورة النساء ١٣١.

(٥) سورة النساء ٤٧.

ومن إعجاز القرآن مجئ لفظ ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ في مقام المدح والثناء في آيات متعددة.

وفيه دلالة على حسن المعاملة مع أهل الكتاب وان لزم الأمر الجدل فلا بد أن يكون بالحجة والبرهان المقرون باللفظ.

قانون مغيبات القرآن العالمية أيام النزول

لقد أخبرت آية البحث عن فرح الذي كفروا وهل منه فرحهم بنصر كسرى على الروم عندما كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في مكة الأقرب نعم على فرض إرادة المعنى الأعم للآية .

لقد جاء القرآن بعلوم من الغيب ، وإشعار عن أحوال الأمم ، فلم تكن علوم الغيب القرآنية خاصة بيوم القيامة ، بل تشمل ما سيكون عليه حال المسلمين ، والأمم الأخرى ، ومنه قوله تعالى ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ* فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ* فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

إذ تبين هذه الآيات الصلة العقائدية بين اتباع الرسل وأهل التوحيد ، وقرب النصارى من المسلمين ، ومجئ أخبار نصر المشركين على أهل الكتاب بفرح مشركي قريش ، وبالحن على المسلمين ، فأخبر القرآن بأن هذه الحزن لا يدوم ولا يستمر ففي ذات الموضوع والسبب ستبدل النتيجة وقوله تعالى ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ﴾^(٢) ، أي هُزمت من قبل جيوش كسرى ملك فارس .

(١) سورة الروم ٢-٤.

(٢) سورة الروم ٢.

ومن الآيات أن الآية لم تذكر من طرفي القتال إلا الروم لأنهم أهل كتاب ، وقيل (سميت الروم باسم جدهم وهو روم ابن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم)^(١).

والمراد من ﴿أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ بلاد الشام.

والمراد : أدنى الشام إلى أرض العرب والعجم ، وجرت المعركة في أذرعات وبصرى من بلاد الشام ، وهي من منطقة حوران جنوب دمشق ، وأذرعات هي التي تسمى في هذا الزمان مدينة درعا ، وتسمى في التوراة (إذرعي) ، وكانت مدينة بصرى أكبر مدن حوران ، وقد وصل إليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة النبوية في تجارة خديجة مع عمه أبي طالب .

وفي بصرى كانت بشارة بحيرا بنبوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما بشره راهب نسطوري ، وفي بصرى مسجد يسمى (مبرك الناقة) وقد أقيم في الموضع الذي بركت فيه ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

ولبصرى تأريخ في دولة الرومان كما ذكرها الشعراء العرب بقصائد كثيرة ، وكان أهل حوران يجتمعون عنده.

وفتحت بصرى صلحاً ، وجاء صاحب أذرعات فطلب الصلح على مثل صلح أهل بصرى ، وقال اليعقوبي (ولجند دمشق من الكور: الغوطة وأهلها غسان وبطون من قيس، وبها قوم من ربيعة. وحوران ومدينتها بصرى، وأهلها قوم من قيس من بني مرة خلا السويداء، فإن بها قوماً من كلب.

والبنية ومدينتها أذرعات، وأهلها قوم من يمن ومن قيس.

(١) ابن الجزي / التسهيل لعلوم التنزيل ٣٤١/٢.

والظاهر : ومدينتها عمان. والغور: ومدينتها ريجا، وهاتان المدينتان أرض البلقاء، وأهلها قوم من قيس، وبها جماعة من قريش.

وجبال : ومدينتها عرندل، وأهلها قوم من غسان، ومن بلقين وغيرهم.

ومآب وزغر : وأهلها أخلاط من الناس، وبها القرية المعروفة بمؤتة التي قتل فيها جعفر بن أبي طالب، وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة.

والشراة : ومدينتها أذرح، وأهلها موالى بني هاشم، وبها الحميمة منازل علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب وولده. والجولان : ومدينتها بانياس، وأهلها قوم من قيس، أكثرهم بنو مرة، وبها نفر من أهل اليمن. وجبل سنير: وأهلها بنو ضبة وبها قوم من كلب. وبعلبك : وأهلها قوم من الفرس، وفي أطرافها قوم من اليمن. وجبل الجليل: وأهلها قوم من عاملة. ولبنان صيدا: وبها قوم من قريش ومن اليمن^(١).

خشية قريش من إعانة الروم للنبي (ص)

لقد استبشر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بنصر الروم لأنهم أهل كتاب على عبدة النار ، بالإضافة إلى أن هزيمة كسرى منع لإعاناته لقريش في حربها على النبوة والإسلام . لذا فان فرح قريش بنصر كسرى لم يكن لذات النصر وحده ، بل كانوا يرجون المدد والتعاضيد منه لبيان الصبغة العالمية لرسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من قبل الهجرة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾^(٢)، فصحيح أن هزيمة

(١) اليعقوبي / البلدان ٣٨/١ .

(٢) سورة سبأ ٢٨.

الروم وقعت والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في مكة قبل الهجرة ، وآيات سورة الروم أعلاه مكية إلا أن حال نصر كسرى استمر حتى بعد الهجرة لذا ذكر بأن نصر الروم كان في ذات يوم معركة بدر وقيل في صلح الحديبية ، فان كان كسرى يخشى على جيوشه إرسالها في الصحراء والجزيرة العربية فانه يستطيع مد قريش بالمال والسلاح والخيول.

وهو الذي كان يرجوه رجالات قريش وهناك مسألتان :

الأولى : هل علم الروم بفرح قريش بنصر كسرى ونزول سورة الروم.

الثانية : هل كانت قريش تخشى إعانة الروم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولو بتصديق نبوته وانطباق صفاته على العلامات التي ذكرها الأنبياء السابقون.

أما المسألة الأولى فالأقرب نعم ، وأما الثانية فالجواب نعم ، وفيه شواهد عديدة.

وحتى في مكة والمدينة كان بعض أهلها يتطلع إلى بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومنهم أبو قيس (بن الأسلت وكان يسأل من اليهود عن دينهم فكان يقاربهم ثم خرج إلى الشام فنزل على آل جفنة فأكرموه ووصلوه.

وسأل الرهبان والأخبار فدعوه إلى دينهم فامتنع فقال له راهب منهم: يا أبا قيس إن كنت تريد دين الحنيفية فهو من حيث خرجت وهو دين إبراهيم.

ثم خرج إلى مكة معتمراً فبلغ زيد عمرو بن نفيل فكلمه فكان يقول: ليس أحد على دين إبراهيم إلا أنا وزيد بن عمرو.

وكان يذكر صفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنه يهاجر إلى يثرب وشهد وقعة بعاث وكانت قبل الهجرة بخمس سنين.

فلما قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة جاء إليه، فقال: إلام تدعو، فذكر له شرائع الإسلام فقال: ما أحسن هذا وأجمله فلقية عبد الله بن أبي بن سلول فقال لقد لذت من حزينا كل ملاذ تارة تحالف قريشاً وتارة تتبع محمداً فقال: لا جرم لا تبعته إلا آخر الناس فزعموا أنه لما حضره الموت أرسل إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول له: قل لا إله إلا الله أشفع لك بها، فسمع يقول (ذلك)^(١).

ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل من أهل مكة وكان يطلب الدين، وعن عامر بن ربيعة أنه كان يكره عبادة الأوثان (والحجارة، وأظهر خلاف قومه واعتزل آلهم، وما كان يعبد آبائهم ولا يأكل ذبائحهم. فقال لي: يا عامر، إني خالفت قومي واتبعت ملّة إبراهيم، وما كان يعبد ولده إسماعيل من بعده.

فقال: وكانوا يصلون إلى هذه القبلة، وأنا انتظر نبياً من ولد إسماعيل يُبعث، ولا أراني أدركه، فأنا أؤمن به، وأصدقّه، وأشهد أنه نبي، فإن طالت بك مدة فرايته، فأقرئه مني السلام.

قال عامر: فلما تبأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسلمت وأخبرته بقول زيد وأقرأته منه السلام، فرد عليه رسول الله السلام، وترحم عليه، وقال: قد رأيته في الجنة يسحبُ ذُيولاً^(٢).

وهل رآه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الجنة في اليقظة كما لو كان في حديث الإسراء أم في رؤيا منام، الجواب هو الأول، لبيان موضوعية التوحيد في عالم الحساب، وهذه البشارات وشياعها بين الناس، دعوة للإيمان، ومنع من الجحود بالنبوة

(١) الإصابة في معرفة الصحابة ٣/ ٣٨٨.

(٢) ابن الجوزي / المنتظم ٢٣٧/١.

والفرح بهذا الجحود أو بالتحريض على قتال النبي ، فهي تعزيد وتفسير لآية البحث.

وجاء قوله تعالى ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾^(١) ، لبعث اليأس في نفوس رجال قريش وقطع الأمل من إعانة كسرى لهم لدلالة الآية على أن الروم يستعدون لإعادة القتال والهجوم من جديد الأمر الذي يجعل كسرى في خشية وحيلة ويقوم بجمع الرجال والعدة والسلاح للقتال ، ويخشى من التفريط بها واعطاءها لمشركي قريش ، خاصة وأنه لا يرى تهديداً لملكه من نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وحتى بعد صلح الحديبية حينما بعث النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الرسل والرسائل إلى ملوك زمانه فقد بعث إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام (وَأَسْمُهُ أَبْرَوِيزُ بْنُ هَرْمَزِ بْنِ أَنْوَشِرْوَانَ)^(٢).

وقام كسرى بفعل قبيح بتمزيق كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خلافاً لأعراف الدول والملوك ، ولما بلغ الرسول ما فعله اكتفى بالدعاء (اللهم مزق ملكه) وروي الحديث عن أبي سلمة.

كما ورد عن (يزيد بن أبي حبيب قال : وبعث عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعيد بن سهم إلى كسرى بن هرمز ملك فارس وكتب معه : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأدعوك بدعاء الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين فإن تسلم تسلم وإن أبيت فإن إثم المجوس عليك.

(١) سورة الروم ٣.

(٢) زاد المعاد ١/ ١١٦.

قال : فلما قرأه شقه وقال : يكتب إلي بهذا و هو عدي .
 قال : ثم كتب كسرى إلى باذام و هو نائبه على اليمن : أن ابعث
 إلى هذا الرجل بالحجاز رجلين من عندك جليدين فليأتياني به^(١).
 وهل كان لتردد رجالات قريش كأبي سفيان على كسرى
 والإخبار عن بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأنه يخبر
 عن فتح كنوز فارس وطلبهم لنصرة كسرى لهم من موضوعية في
 تمزيق كسرى لكتاب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبعثه
 لنائبه في اليمن بأن يقبض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
 ، المختار نعم ، كما أنه من الشواهد على حاجة المسلمين للبشارة
 بنصر الروم ، وإصابة قريش بالخيبة ، وهل من حاجتهم أيضاً آية
 البحث ، الجواب نعم.

وهل نصر الروم يومئذ من مصاديق قوله تعالى ﴿فَيَنْتَقِلُوا
 خَائِبِينَ﴾^(٢) ، أم أن القدر المتيقن هو عودة جيوش المشركين من
 معركة أحد من غير أن يحققوا أي غاية من غاياتهم الخبيثة ، المختار
 هو الأول ، إذ تأتي الخيبة للمشركين من أكثر من جهة .

لماذا تكررة لفظ (عذاب) في الآية

المختار ان قوله تعالى ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي
 العذاب في الدنيا ، وأن قوله تعالى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هو عذاب
 الآخرة.

والعذاب النكال والألم وما يشق على النفس ويؤذي الجسد ،
 وهو في المقام عقوبة ، والمراد العذاب الجسدي المحسوس مع الحزن
 والأسى النفسي .

(١) ابن كثير / السيرة النبوية ٥٠٧/٣.

(٢) سورة آل عمران ١٢٧.

ومن معاني هذا التقسيم أن الخزي من عذاب الدنيا ، ففي الذين يمنعون المساجد ، قال تعالى ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١).

ووردت كلمة عذاب في القرآن ومشتقاتها نحو (٣٧٣) مرة منها مرتان في آية البحث ، واقتترانه بصفات منها العذاب الأليم ، العذاب الشديد ، عذاب الخزي ، العذاب الغليظ ، العذاب المهين . وهناك صفات خاصة بالعذاب الأخروي منها :

الأول : عذاب النار .

الثاني : عذاب الحريق .

الثالث : عذاب مقيم ، قال تعالى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقيمٌ﴾^(٢).

الرابع : عذاب جهنم .

الخامس : عذاب السعير .

السادس : العذاب الأكبر .

السابع : العذاب المهين ، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ

عَذَابًا مُّهِينًا﴾^(٣) إذ تدل كلمة ﴿أَعَدَّ﴾ على إرادة الآخرة وعالم والجزاء .

الثامن : عذاب عظيم .

التاسع : عذاب الخلد .

وتأتي كلمة العذاب بالنازلة العظمى التي تؤدي إلى الهلاك كما في قوم صالح ، وإنذارهم من الإضرار بناقة الله ، إذ ورد على لسان النبي صالح عليه السلام في التنزيل ﴿وَلَا تَسْؤَهَا سَوْءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾^(١).

(١) سورة البقرة ١١٤.

(٢) سورة المائدة ٣٧.

(٣) سورة النساء ١٠٢.

خمس المكاسب تشريع وليس حكماً ولا نياً

هناك تقسيم مستحدث للحكم إلى قسمين :

الأول : الحكم الشرعي الأولي : وهو الحكم الوارد في الكتاب والسنة بالعنوان الأولي ، وهو الأصل والدائم إلى يوم القيامة .

الثاني : الحكم الثانوي ، وهو الذي يطرأ على الحكم الأولي مثل أحكام الضرورة والتي تقدر بقدرها ، كما في حرمة أكل الميتة بالعنوان الأولي فانها جائزة عند الإضطرار ، ولكن هذا الحكم الثانوي لا يعني الابتداع بالشرعية أو الاجتهاد في مقابل النص ، فلا يكون الحكم الثانوي بهذا التقسيم بعرض واحد مع الحكم الأولي ، كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَنَزَلَ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنِ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢).

ولم يكن هذا التقسيم معروفاً إنما صار له نحو مائة وخمسين سنة في الحوزة العلمية.

وقد يصبح الحكم الثانوي واجباً كأكل الميتة لدفع الموت والهلاك.

وكوجوب النكاح إذا توقفت عليه النجاة من الوقوع في المعصية مع أن الأصل استحبابه.

ومن الحكم الثانوي وجوه :

الأول : الإضطرار كما في الانتقال إلى الطهارة الترابية عند فقد

الطهارة المائية ، قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ

(١) سورة هود ٦٤.

(٢) سورة البقرة ١٧٣.

جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيَسْتَمِعَ عَنْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١﴾
الثاني : الإكراه .

الثالث : التقية ، قال تعالى ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ (٢).

الرابع : النذر ، فمثلاً في حج الفريضة الواجب مرة واحدة في العمر ، وقد يجب مرة أخرى على نحو عرضي بالنذر مع الإستطاعة.
الخامس : قاعدة الأهم والمهم عند التزاحم ويزول الحكم الثانوي بزوال موضوعه العرضي الطارئ.

وعن الإمام جعفر الصادق ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ (٣)، قال الباغي : الذي يخرج على الامام، والعادي: الذي يقطع الطريق، لا يحل لهما الميتة ، وقد روي أن العادي اللص، والباغي الذي يبغي الصيد لا يجوز لهما التقصير في السفر ولا أكل الميتة في حال الاضطرار (٤).

ولابد هنا من بيان قانون لم يذكر في المباحث الأصولية وهو ليس كل حكم أولي له حكم ثانوي ، فمن الأحكام ما تكون ثابتة لا تقبل الرخصة والبديل وهي كثيرة مثل إقامة الصلاة وأداء الزكاة ، قال تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (٥)، فالصلاة لا تترك بحال ، نعم قد يقال بأن كيفية أداء الصلاة يدخل عليها الحكم الثانوي كما بالنسبة

(١) سورة المائدة ٦.

(٢) سورة آل عمران ٢٨.

(٣) سورة البقرة ١٧٣.

(٤) البحار ١٣٦/٦٢ .

(٥) سورة البقرة ٤٣.

للمريض الذي يضطر للصلاة عن جلوس وكما في الذي في الوحل والمضطر ، وهو أمر طارئ يزول بزوال اسبابه .

ومنه حرمة الربا في حال الإختيار والإضطرار ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١) ، ومنها قوله تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾^(٢) ، أي بالظلم والقهر والإحتيال والقمار والزنا والبخس ، وهذه الآية محكمة غير منسوخة .

ومنه حرمة الواد وقتل الأولاد خشية الإنفاق بل مطلقاً ، قال تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾^(٣) .
ومنه وجوب التسليم بعقيدة التوحيد وأصول الدين الأخرى ، فهو حكم أولي ثابت .

ويمكن القول أن الحكم الثانوي هو الرخصة والمندوحة من عند الله ، ومنه أحكام الضرورة التي هي مسألة سيالة من الطهارة إلى الديات .

وليس في القرآن أو قول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والائمة تقسيم الحكم إلى حكم أولي وثانوي ، ولا بأس به إن كان هناك أدلة تدل عليه من غير معارض .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه^(٤) .

(١) سورة آل عمران ١٣٠ .

(٢) وقد صدرت أربعة أجزاء من تفسيري للقرآن خاصة بتفسير هذه الآية وهي ٨٩-٩٠-٩١-٩٢ والحمد لله .

(٣) سورة البقرة ١٨٨ .

(٤) سورة النساء ٢٩ .

(٥) البحار ٣٦٠/٦٦ .

والمباح أحد أفراد التكاليف الخمسة .

حديث الرفع من العنوان والحكم الثانوي وهي بلحاظ المحمول وبيقى الحكم الأولي هو الدائم ، أما الحكم الثانوي فهو ما دام متعلقه وسببه الطارئ قائماً .

والحكم الأولي قد يكون حكماً واقعياً أو ظاهرياً ، وكذا بالنسبة للحكم الثانوي الطارئ .

لورود النصوص بخصوصه مثل الإضرار والإكراه والخرج ويشمل حديث الرفع .

وعن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه ^(١) .

ومثل قوله عليه السلام (ليس شيء مما حرم الله إلا وقد أحله لمن اضطر إليه ، وقولهم عليهم السلام : كلما غلب الله عليه فالله أولى بالعدر ، وقوله عليه السلام : رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه ، وما لا يطيقون) ^(٢) .

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رفع عن أمتي تسعة أشياء : الخطأ ، والنسيان ، وما أكرهوا عليه ، وما لا يعلمون ، وما لا يطيقون ، وما اضطروا إليه ، والحسد ، والطيرة ، والتفكر في الوسوسة في الخلوة ما لم ينطقوا بشقة ^(٣) .

(١) الثعلبي / الكشف والبيان ١٥٩/٢

(٢) الوسائل ١١/١١٠ .

(٣) الوسائل ١٥/٣٤٥ .

وهو مستقراً من آيات منها قوله تعالى ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾^(١).

وقوله تعالى ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾^(٢)، وقوله تعالى ﴿إِلَّا مَن أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾^(٣)، وقوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُم فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(٤).

فالحكم الثانوي ليس اجتهاداً من الفقيه ولا هو حكم ولائي إنما هو بنص القرآن والسنة ويرتفع مع زوال أسبابه من الإضطرار والضرورة والإكراه ونحوه ومنه التقية ، وعن محمد بن عمار (أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذكر آلهتهم . بخير ، ثم تركوه فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : شر ما تركت حتى نلت منك وذكر آلهتهم بخير قال : كيف تجد قلبك ، قال : مطمئن بالآيمان . قال : إن عادوا فعد .

فنزلت ﴿إِلَّا مَن أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾^(٥)^(٦).
وعن الإمام جعفر الصادق (إن عمار بن ياسر أكرهه أهل مكة وقلبه مطمئن بالآيمان فأنزل الله عز وجل فيه ﴿إِلَّا مَن أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ

(١) سورة البقرة ٢٨٦.

(٢) سورة آل عمران ٢٨.

(٣) سورة النحل ١٠٦.

(٤) سورة الحج ٧٨.

(٥) سورة النحل ١٠٦.

(٦) الدر المنثور ١٧٣/٦.

مُطْمَئِنِّ بِالْإِيمَانِ^(١)، فقال له النبي صلى الله عليه وآله عندها: يا عمار إن عادوا فعد، فقد أنزل الله عذرك وأمرك أن تعود إن عادوا^(٢).

كما يقسم الحكم تقسيماً مستحدثاً إلى قسمين وهما :

الأول : الحكم الشرعي الفتوائي .

الثاني : الحكم الشرعي الولائي .

والأول هو الحكم الكلي الفرعي المستنبط من الدليل من الكتاب والسنة والإجماع وتنطبق عليه الأحكام التكليفية الخمسة فقد يكون واجباً ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٣)، وقد يكون مستحباً أو مباحاً مكروهاً وهو الذي أمر الشارع بتركه تركاً غير حازم فيثاب الذي يتركه ولا يؤثم الذي يأتيه .

ومنها مكروهات الصلاة ، وهي أمور :

الأول : الإلتفات بالوجه قليلاً

الثاني : العبث باللحية أو بغيرها من أعضاء البدن أو اللباس .

الثالث : القران بين السورتين على الاقوى، أي من غير ان

يفصل بينهما بسكتة ونحوها.

الرابع : عقص الرجل شعره وهو جمعه وجعله في وسط الرأس

وشده أو ليه وادخال اطرافه في اصوله ونحوه من الهيئات المشابهة.

الخامس : كثرة حركة اليد وعدم استقرارها.

السادس : البصاق.

(١) سورة النحل ١٠٦.

(٢) البحار ٩٠/١٩ .

(٣) سورة البقرة ١٨٣.

- السابع : نقض الاصابع أي فرقعتها وتصويتها.
- الثامن : التمطي.
- التاسع : التأؤب الاختياري.
- العاشر : الأنين.
- الحادي عشر : التأوه.
- الثاني عشر : مدافعة البول والغائط.
- الثالث عشر : مدافعة النوم.
- الرابع عشر : الامتخاط.
- الخامس عشر : التصاق القدمين في حال القيام.
- السادس عشر : وضع اليد على الخاصرة.
- السابع عشر : تشبيك الاصابع.
- الثامن عشر : تغميض البصر.
- التاسع عشر : لبس الخف او الجورب الضيق الذي يضغط على القدم والساق.
- العشرون : حديث النفس، وعن الصادق عليه السلام: "ولا يشغل نفسه بأمر الدنيا".
- الحادي والعشرون : قص الظفر والأخذ من الشعر عمداً.
- الثاني والعشرون : النظر الى المصحف وقراءته الا ان يكون عن ضرورة او راجح شرعي فلا كراهة، ويلحق به النظر في الدعاء المكتوب.
- الثالث والعشرون : النظر الى الكتاب ونقش الخاتم.
- الرابع والعشرون : التورك أي وضع اليد على الورك في حال القيام.
- الخامس والعشرون : الانصات في اثناء الصلاة لقائل كما لو كان يستمع لحديث جماعة يملكون عليه.

السادس والعشرون : فعل ما ينافي الخشوع المطلوب في الصلاة^(١).

وعن الصادق عليه السلام : ان الله لا اله الا هو لما حرم علينا الصدقة انزل لنا الخمس، فالصدقة علينا حرام والخمس لنا فريضة والكرامة لنا حلال.
ومن الخمس :

الأول: الغنائم المأخوذة من الكفار من اهل الحرب قهراً بالمقاتلة معهم بشرط ان يكون باذن الإمام، من غير فرق بين ما حواه العسكر وما لم يحوه، المنقول وغيره كالأراضي والأشجار ونحوها، بعد اخراج المؤن التي انفقت على الغنيمة بعد تحصيلها بنقل وخزن وحفظ ونحوها، وبعد اخراج ما عينه الإمام جعلاً من الغنيمة لأغراض النصر او مصلحة من المصالح، وبعد استثناء صفايا الغنيمة كالسلاح الشخصي المتميز والمركب الفاره والجارية الورقة ونحوها فانها للإمام.

(مسألة ١) يشترط في المغنم ان لا يكون غصباً من مسلم او ذمي او معاهد او نحوهم ممن هو محترم المال، والا فيجب رده الى مالكه.

(مسألة ٢) لا يعتبر في وجوب الخمس في الغنائم بلوغ النصاب عشرين ديناراً، فيجب اخراج خمسه قليلاً كان أو كثيراً.

(مسألة ٣) لا يجوز السلب من الغنيمة، لقوله تعالى ﴿وَمَنْ يُغْلُلْ يُاتِ بِمَا غُلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^{(٢)(٣)}.

الثاني: المعادن من الذهب والفضة والرصاص والحديد

(١) رسالتي العملية (الحجة) مسجلة بدار الوثائق والكتب ببغداد برقم ٣٤٥ لسنة ٢٠٠١.

(٢) سورة آل عمران ١٦١.

(٣) أنظر الجزء ١٤٣ من هذا السفر الذي اختص بتفسير الآية أعلاه.

والياقوت والكبريت والقيصر والملح ونحوها، والمدار على صدق كونه معدناً عرفاً، ويشترط ان تبلغ قيمته النصاب وهو عشرون ديناراً ذهباً وإذا شك في الصدق لم يلحق حكمها فلا يجب خمسه من هذه الجهة، بل يدخل في ارباح المكاسب فيجب خمس ما يزيد على مؤونة السنة.

(مسألة ٤) يشترط في وجوب الخمس في المعدن ان تبلغ قيمة المستخرج منه النصاب وهو عشرون ديناراً بعد استثناء مؤونة الإخراج والتصفية ونحوها، فلا يجب اذا كان الباقي اقل من النصاب.

(مسألة ٥) لو كان المعدن في ارض مملوكة فهو للمالكها واذا اخرجته غيره لم يملكه، ويجوز استئجار الغير لإخراج المعدن فيملكه المستأجر دون الأجير.

(مسألة ٦) اذا شك في بلوغ النصاب وعدمه، ينبغي الفحص والاختبار والأصل البراءة.

الثالث: الكنز وهو المال المذخور في الارض او الجبل او الجدار او الشجر والمدار على الصدق العرفي من الذهب كان او الفضة المسكوكين او غير المسكوكين او غيرهما من الجواهر سواء كان في بلاد الإسلام او بلاد الكفر، في الأرض الموات او الأرض الخربة التي لم يكن لها مالك، او ارض مملوكة بالأحياء او بالإبتيع مع العلم بعدم كون الكنز ملكاً للبائع، وسواء كان عليه اثر الإسلام ام لا، فهو في هذه الصور يكون ملكاً لواجده وعليه الخمس، ولو وجده المشتري عرفه للبائع والمالك من قبله وهكذا، فان لم يعرفه فهو للواجد وعليه الخمس.

(مسألة ٧) اذا اشترى دابة ووجد في جوفها شيئاً فحاله حال الكنز الذي يجده في الأرض المشتراة في تعريف البائع وفي اخراج الخمس ان لم يعرفه ولا يعتبر فيه بلوغ النصاب، وكذا لو وجد في جوف

السمة المشتراة مع احتمال كونه لبائعهها، وكذا الحكم في غير الدابة والسمة من الحيوانات ونحوها.

(مسألة ٨) انما يعتبر النصاب في الكنز بعد احتساب مؤونة الإخراج.

الرابع: الغوص وهو اخراج الجواهر من البحر مثل اللؤلؤ والمرجان وغيرها معدنياً كان او نباتياً لا السمك ونحوه من الحيوان فيجب في المستخرج من هذه الجواهر الخمس بشرط ان تبلغ قيمته ديناراً فصاعداً، فلا خمس فيما ينقص عن ذلك ، والدينار مثال ذهب عيار ثمانى عشرة حبة.

(مسألة ٩) اذا غاص من غير قصد الحياة فاتفق عثوره على شيء منها فالأقوى وجوب الخمس فيه.

(مسألة ١٠) الانهار الكبيرة حكمها حكم البحر بالنسبة لما يخرج منها بالغوص اذا فرض تكون الجوهر فيها كالبحر.

(مسألة ١١) اذا غرق شيء في البحر فهو لأهله وهم احق به، ولو اعرض المالك عنه فاخرجه الغواص ملكه حسب الشرائط، لا يلحقه حكم الغوص على الأقوى.

(مسألة ١٢) العنبر اذا اخرج بالغوص جرى عليه حكمه وان اخذ على وجه الماء او الساحل فالأقوى الحاقه بالمعدن.

الخامس: المال الحلال المخلوط بالحرام على وجه لا يتميز مع

الجهل بصاحبه وبمقداره فيحل باخراج خمسه ومصرفه مصرف سائر اقسام الخمس على الأقوى، واما ان علم المقدار ولم يعلم المالك تصدق به عنه، ولو انعكس بان علم المالك وجهل المقدار تراضيا بالصلح ونحوه، وان لم يتم الصلح رجعا الى الحاكم الشرعى، وان علم المالك والمقدار وجب دفعه اليه.

(مسألة ١٣) اذا كان حق الغير في ذمته لا في عين ماله فلا محل للخمس حينئذ، فان علم جنسه ومقداره ولم يعلم صاحبه اصلاً او علمه في

عدد غير محصور فالأولى التخلص من الجميع ولو بارضائهم باي وجه كان وان تعذر يرجع الى الحاكم الشرعي.

(مسألة ١٤) الأمر في اخراج هذا الخمس الى المالك، فيجوز له الإخراج والتعيين، من غير توقف على اذن الحاكم، كما يجوز دفعه من مال آخر وان كان الحق في العين.

(مسألة ١٥) لو تبين المالك بعد اخراج الخمس، فان دفع الخمس الى الحاكم الشرعي فالأقوى عدم الضمان.

(مسألة ١٦) لو علم بعد اخراج الخمس ان الحرام اقل من الخمس او اكثر لا يسترد الزائد عن مقدار الحرام في الصورة الأولى، والأقوى في الثانية اخراج الزائد عن الخمس.

(مسألة ١٧) الظاهر عدم اشتراط التكليف والحرية في الكنز والغوص والمعدن والحلال المختلط بالحرام، فيتعلق بها الخمس ويجب على الولي او السيد اخراجه ايضاً.

السادس: ما يفضل عن مؤونة سنته ومؤونة من تجب نفقته

عليه من ارباح التجارات ومن سائر المكاسب من الصناعات والزراعات والاجارات والوظائف في المؤسسات الحكومية والاهلية والصيد والحرف والصناعات وغيرها من الاعمال ووجوه المهن واسباب الرزق، والاقوى ثبوته في مطلق الفائدة كالهبة والهدية والجائزة والمال الموصى به مع الشرائط، كما لو حل رأس سنته الشرعية وكان زائداً عن المؤونة.

وقد يكون سبب الحكم الثانوي تزامم المصالح ، وقاعدة تقديم الأهم على المهم وقد يكون الحكم الفتوائي حكماً أولياً أو حكماً ثانوياً.

وأما الحكم الشرعي الولائي فهو الذي يصدر من الفقيه والمرجع بكونه ولياً وله الحكم ، وليس بلحاظ مرجعية التقليد لتكون النسبة بين المرجع والولي عموم وخصوص مطلق ، فالمرجع أعم .

ويشترك الأمر الولائي مع الثانوي بأنه طارئ ، ولا بد من بيان الفرد الأعم ، وهو أن مصدر كل منهما الكتاب والسنة.

فلا يعني الحكم الولائي التشريع ، والحكم المجعول من قبل الحاكم تأسيساً وإن كان بخصوص مسألة عرضية طارئة .

وقيل إنما هو افتاء في منطقة الفراغ التشريعي ، والمختار أنه ليس من منطقة فراغ تشريعي ، وهو مصطلح مستحدث ، ومما ينفيه قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

وإذا كان هناك فراغ تشريعي فليؤتى بأمثلة تدل عليه كي نبين استخراجها واستنباطها من الكتاب والسنة وقول المعصوم ، فليس من موضوعات تركها الشارع المقدس ، أو أنها فارغة من الحكم الإلهي ، قال تعالى ﴿وَرَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢).

وبخصوص الخمس وذكر وجوبه من قبل الإمام الكاظم عليه السلام والإمام الجواد ، قال أحد اساتذتنا لا مانع من إظهار وجوبه في أيام الأمام الكاظم واستشهد بالصلاة وهي عمود الدين ، فلم يفرض وجوبها إلا في السنة الثالثة للبعثة ، وكذا بالنسبة للتدرج في حرمة الخمر.

ولكنه قياس مع الفارق ، إذ كان هذا التدرج في أيام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبالوحي ، ولم يغادر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الدنيا إلا وقد بين الأحكام.

وقبل ثلاثين سنة صدر لي جزءان بعنوان تفسير النبي صلى الله عليه وآله وسلم القرآن ، ورقم إيداع الجزء الثاني في دار الكتب

(١) سورة المائدة ٣.

(٢) سورة النحل ٨٩.

والوثائق في بغداد (٢٢٧) ويحتمل تفسير النبي صلى الله عليه وآله وسلم لآيات القرآن وجوهاً :

الأول : إنه عن وحي من عند الله .

الثاني : عن إجهاد وبيان لمعنى الكلمات وفق قواعد اللغة والإعراب .

الثالث : الجامع المشترك بين الوجهين أعلاه .

والصحيح هو الأول أعلاه ، فتفسير النبي صلى الله عليه وآله وسلم للقرآن من مصاديق الوحي .

(عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح)^(١) فقول النبي من الوحي .

وورد عن أنس بن مالك قال (ليس في الخضراوات صدقة)^(٢) والتخصيص ، وبيان الإستثناء من الزكاة والحكومة بخصوص التضييق.

وفي صحيحة ابن أبي عمير ، عن رفاعة النخاس قال : سألت رجلاً أبا عبد الله عليه السلام فقال : إني رجل صائغ أعمل بيدي ، وإنه يجتمع عندي الخمسة والعشرة ، ففيها زكاة ، فقال : إذا اجتمع مائتا درهم فحال عليها الحول فإن عليها الزكاة)^(٣).

والحكم الثانوي أمر عرضي بسبب عارض طارئ على نحو قضية عين ، ومسألة شخصية ، وهل إفطار المريض والمسافر حكم

(١) الدر المنثور ١/٣٤٤ .

(٢) الدر المنثور ٢/١٩١ .

(٣) الوسائل ١٢/٢٢٢ .

أولي لورود النص القرآني بخصوصه ، قال تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾^(١)، أم أنه حكم ثانوي. الجواب هو الثاني ، لبيان قانون وهو لا بد من دليل من القرآن أو السنة بخصوص الحكم الثانوي وعدم معارضته مع الحكم الأولي . والمختار وان لم يذكره أحد هو أن الحكم الثانوي لا يصلح أن يكون قسيماً للحكم الأولي وفق التعريف أعلاه ، إنما هو فرع طارئ على الحكم الأولي ، ولطف وتخفيف ورخصة من عند الله عز وجل في طول أصل الحكم وليس في عرضه.

قانون استدامة الحمد

تعجز الخلائق عن الحمد له والثناء عليه سبحانه ، وقد يفتر ويقصر الناس في هذا الثناء ، ولا يعرفون كيفيته ، ويحدث الاختلاف فيما بينهم فهداهم إلى سبل الثناء عليه ، وجعل المسلمين الأئمة في الحمد من جهات :

الأولى : يتلو كل مسلم ومسلمة سبع عشرة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

الثانية : صيغة القرآنية .

الثالثة : هيئة الصلاة والوقوف بين يدي الله عز وجل ، قال تعالى ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾^(٣).

الرابعة : إتيان الحمد لله رب العالمين طاعة وقربة إلى الله تعالى ، بينما تفرح طائفة من الكفار والمنافقين بالعداوة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن.

(١) سورة البقرة ١٨٤.

(٢) سورة الفاتحة ٢.

(٣) سورة البقرة ٢٣٨.

ليبان أن قيام جميع المسلمين والمسلمات بأداء الصلاة وتلاوة القرآن شاهد على عدم إضرار هؤلاء الكفار والمنافقين بهم وبالنبوة والإسلام .

الخامسة : حال الخشوع والخضوع لله عز وجل عند التلاوة .

السادسة : عدم الوقوف عند النطق بالحمد لله رب العالمين ، إنما يجب

أن يقرأ كل مسلم ومسلمة في كل ركعة سورة الفاتحة وسورة أخرى .

السابعة : الإجهار في التلاوة في أكثر ركعات الصلاة اليومية .

الثامنة : أداء المسلمين الصلاة اليومية جماعة وفراداً .

التاسعة : أثر قول الحمد لله رب العالمين في الصلاة على المسلم قبل

وأثناء وبعد الصلاة ، فلا يضرهم الذين ذكرتهم آية البحث ممن يمتثلون فرحاً وزهواً باخفائهم بشارات الرسالة ، وميراث الأنبياء ، ويجبون أن يشئ عليهم مع قصورهم وإمتناعهم عن طاعة الله ورسوله .

وهل تبعث آية البحث على محاربتهم وقتالهم ، الجواب لا ، إنما

تضمنت منع الظن بنجاتهم من عذاب الآخرة ، أي كلما تبادوا في المعصية فان العذاب في الآخرة لهم بالمرصاد ، وفيه دعوة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بالصبر عليهم ، وعدم إيذائهم خاصة وأن الفرح وحب الحمد والثناء كيفية نفسانية ، وإن كان المختار أنها أعم ، وتترجل في عالم السلوك والإضرار بالمسلمين ، وأيضاً بعامة الناس بصددهم عن الإيمان ، وجعلهم ينصتون لإفتراء قريش ، ويستجيبون لدعوتهم لقتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاصة مع الإغراء وكثرة بذل الأموال من قريش لحشد الجيوش لمحاربتة ، لتكون آية البحث من مصاديق الصدق في قوله تعالى ﴿وَأَنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾^(١) .

وهل يمكن القول بقانون وهو الآية القرآنية من مكر الله ، الجواب نعم ،

وهو لا يتعارض مع قانون الآية القرآنية ، وفيه لطف متجدد من الله عز

وجل ، ومصادق لقانون الآية القرآنية رحمة مستديمة من الله عز وجل .

وهذا التجدد والإستدامة من أسرار حفظ الله عز وجل لآيات القرآن من التحريف والتغيير والنقص أو الزيادة ، ولا يقدر على هذا الحفظ مع تغير الأحوال وتقلبات الزمان ، واختلاف نوع الحكم إلا الله عز وجل ، لذا لا يقدر على هذا الحفظ إلا الله عز وجل ، وجاءت البشارة وبعث السكينة في نفس النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأجيال المسلمين المتعاقبة بقوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزَلُّ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(١).

من النصر ببدر إظهار البشارات بالنبوة

لقد ذكرت الآية قبل السابقة إبتلاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بالأموال والأنفس قال تعالى ﴿لَتَبْلُوَنَ فِيْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيْرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٢).

وهل يبتلى المشركون بذات الأمر بالخسارة والنقص في أموالهم ، ويسقط القتلى منهم ، الجواب نعم ، وهو الذي تدل عليه الوقائع والشواهد التاريخية المتعددة ، وأيهما أكثر خسارة ، الجواب خسارة وإبتلاء المشركين هو الأكثر ، إذ تعطلت تجارتهم مع الشام واليمن ، وسقط العشرات منهم في معارك الإسلام.

ومما يختص به المشركون من الإبتلاء إن دخول كل فرد في الإسلام يكون على وجوه :

الأول : هو نقص في عدد المشركين.

الثاني : إنه باعث للضعف في هماتهم.

الثالث : يكون حجة على المشركين ، قال تعالى ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾^(٣).

(١) سورة الحجر ٩.

(٢) سورة آل عمران ١٨٦.

(٣) سورة الأنعام ١٤٩.

وهل هذه الحجة من الكلي المتواطئ في إسلام الأفراد أم أنها من الكلي المشكك ويكون إسلام الوجيه والرئيس منهم ، والعالم من أهل المعرفة أقوى حجة.

الجواب هو الثاني ، نعم قد ينتفع الإسلام من الفقير والمستضعف أكثر من الوجيه والرئيس ، لذا قال تعالى ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ﴾^(١).

الرابع : دخول كل فرد للإسلام واتباعه للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عز للإسلام ، ومنعة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته وأصحابه.

لذا يمكن القول بقانون وهو من معاني قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(٢) ، فتح باب ترغيب ودخول الناس في الإسلام بهذا النصر ، وهل كل نصر يجعل الناس يميلون للمنتصر ، الجواب لا ، ولكن النصر يوم بدر معجزة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشاهد على صدق نبوته وحجة على الناس .

وهل فيه ترغيب للذين أوتوا الكتاب وغيرهم باظهار البشارات بنبوته كما ورد في الآية السابقة ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَكَلَّا تَكْمُؤُهُ فَبَيَّنَّوهُ وَرَأَىٰ ظُهُورَهُمْ وَاشْرَوْا بِهِ نَمَاتًا قَلِيلًا فَبَسَّ مَا يَشْتَرُونَ﴾^(٣) ، الجواب نعم . ليكون من معاني النصر بيد الذي تذكر الآية أعلاه بعث أهل الكتاب على إظهار وبيان إخبار الكتب السماوية السابقة عن رسالة النبي محمد وعن نصره في معاركه الدفاعية ، ليفرح الذين يظهرون البشارات بهذا الإظهار ، وإعلام الناس بما جاء به الأنبياء السابقون من الإخبار عن رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) سورة الحجرات ١٣.

(٢) سورة آل عمران ١٢٣.

(٣) سورة آل عمران ١٨٧.

ردود كريمة على بعض الأجزاء الأخيرة من هذا السفر المبارك

- ١- سماحة الإمام شيخ الأزهر.
- ٢- سماحة العلامة الشيخ أ.د. مفتي جمهورية مصر العربية.
- ٣- الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي.
- ٤- سيادة رئيس مجلس القضاء الأعلى / العراق
- ٥- سيادة رئيس المحكمة الاتحادية العليا .
- ٦- سيادة القاضي رئيس الادعاء العام .
- ٧- الأمين العام لإتحاد المؤرخين العرب.
- ٨- سعادة أ.د. رئيس جامعة دمشق .
- ٩- سعادة أ.د. رئيس جامعة ديالى .
- ١٠- سعادة أ.د. مدير جامعة الملك فيصل / المملكة العربية السعودية
- ١١- سعادة أ.د. مدير جامعة كردفان / الجمهورية السودانية.
- ١٢- سعادة أ.د. مدير الجامعة الإسلامية / المدينة المنورة.
- ١٣- سعادة أ.د. رئيس الجامعة العراقية.
- ١٤- سعادة أ.د. رئيس جامعة واسط / العراق .
- ١٥- سعادة أ.د. رئيس جامعة البصرة / العراق.
- ١٦- سعادة أ.د. رئيس جامعة ذي قار / العراق.
- ١٧- سعادة أ.د. رئيس جامعة القادسية / العراق.
- ١٨- سعادة أ.د. رئيس جامعة جدارا / المملكة الأردنية الهاشمية.
- ١٩- كلية الإمام الاوزاعي للدراسات الإسلامية / بيروت.
- ٢٠- سعادة أ.د. مدير جامعة الأمير عبد القادر / الجمهورية الجزائرية

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٩ / ٥
٨ / ٤ / ٢٠٠٨

الأزهر
مكتبة الإمام الأكبر
شيخ الأزهر

السيد صاحب الفضيلة المرجع الديني الشيخ / صالح الطائي
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
وبعد،.....

فلقد تلقيت بحمد الله رسالتكم الرقيقة وبها الجزء الحادي
والخمسون في تفسير آية واحدة من سورة آل عمران من القرآن الكريم.
نتضرع إلى الله العلي القدير أن يلهمكم العلم النافع وان يجعله
في ميزان حسناتكم.
وشكر الله لكم حسن عملكم
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

شيخ الأزهر
مختار
(الدكتور) محمد سيد طنطاوي

في ١٣ من صفر ١٤٢٩ هـ

الموافق: ٢٠ من فبراير ٢٠٠٨ م

مصطفى عباس □

٦/١٩

بسم الله الرحمن الرحيم



المرجع الديني الشيخ/صالح الطائي

صاحب أحسن تفسير للقرآن وأستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...وبعد،

فإنه ليسعدني أن أقدم لسيادتكم بخالص الشكر والتقدير والإحترام على تفضلكم بإهدائنا نسخة من من الجزء الثاني والثمانين.

وأتمنى من الله أن يديم عليكم نعمة الصحة والعافية وأن يسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنه وان يوفقنا لما يحبه ويرضاه.
شاكرين لكم، ولكم تحياتي

أ.د. علي جمعة
مفتي جمهورية مصر العربية

ORGANISATION OF ISLAMIC COOPERATION
GENERAL SECRETARIAT

ORGANISATION DE COOPERATION ISLAMIQUE
SECRÉTARIAT GÉNÉRAL



OIC/CAB-01/2012 001010

جدة في: 23 FEB 2012

سماحة المرجع الديني الشيخ صالح الطائي حفظه الله ورعاه
صاحب أحسن تفسير للقرآن الكريم
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...وبعد،
فقد تسلمنا بيد الشكر والتقدير نسخة من كتاب "معالم الإيمان في تفسير
القرآن" الجزء التسعون- الآية ١٣٤ من سورة آل عمران، والذي تفضلتم
بإهدائه إلى معالي البروفسور أكمل الدين إحسان أوغلي، الأمين العام
لمنظمة التعاون الإسلامي، ويشرفنا أن نتقدم إليكم بجزيل شكرنا على
جهودكم المتواصلة لتفسير أي الذكر الحكيم، فجزاكم الله عنا خير الجزاء
وبارك فيكم وفيما تقومون به من جهد مبارك خدمة للإسلام والمسلمين.

وتفضلوا بقبول وافر الشكر والتقدير.

أحمد العبد المذنب
مستشار الأمين العام





جمهورية العراق
مجلس القضاء الأعلى

سماحة الشيخ صالح الطائي "المحترم"

تحية طيبة

إشارة إلى كتابكم المرقم (١٧/٧٢٨٥) المؤرخ في
٢٠١٧/١٢/١٧.

تلقينا ببالغ الإعتراز إهدائكم نسخة من كتابكم
الموسوم (معالم الإيمان في تفسير القرآن) الجزء التاسع
والخمسین بعد المائة، نقدم شكرنا وتقديرنا متمنين لكم دوام
الموفقية.

مع التقدير

القاضي

فائق زيدان

رئيس مجلس القضاء الأعلى

٢٠١٧/١٢/٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

كو٧ ماري عيراق

د اد كاي بالآي ئيتتيجادي

العدد ٤٠ / مكتب / ٢٠٢١

التاريخ ٤ / ٧ / ٢٠٢١



جمهورية العراق

المحكمة الاتحادية العليا

مكتب رئيس المحكمة

إلى / المرجع الديني الشيخ صالح الطائي المحترم

م/شكر للإهداء

تحية طيبة

تلقينا ببالغ الاعتزاز اهدائكم القيم (الجزء ٢٢٠
من معالم الإيمان ، وهو في عنوان بكر النزاع
المسلح بين القرآن والإرهاب).
نقدم شكرنا وتقديرنا مع وافر التقدير .

القاضي
جاسم محمد عبود

رئيس المحكمة الاتحادية العليا

٤ / ٧ / ٢٠٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

جمهورية العراق

مجلس القضاء الاعلى

رئاسة الادعاء العام

المكتب

مكتب المرجع الديني

الشيخ صالح الطائي



العدد /

التاريخ / ٢٠١٩ / ١ / ٨

م / شكر

تحية طيبة

كتابكم ذي العدد ١٩/٢٣ المؤرخ في ٢٠١٩/١/٢.

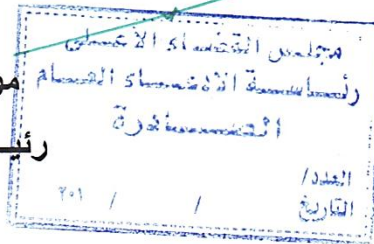
استلمنا هديتكم (الجزء الخامس والسبعين بعد المائة من تفسير القرآن الكريم) ونقدم لكم شكرنا آمليين منكم المزيد من العطاء والتوفيق.
مع التقدير.

القاضي

موفق محمود محمد صالح

رئيس الادعاء العام

٢٠١٩/١/ ٨



Council Of Arab Economic Unity
Subsidiary to Arab League
Union of The Arab Historians
General Secretary



مَجْلِسُ الْوَحْدَةِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ
الَّتَابِعُ لِنَجْمَةِ الدَّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ
اتِّحَادُ الْمُؤَرِّخِينَ الْعَرَبِ
الْأَمَانَةُ الْعَامَّةُ

العدد : ت/ ٢٨٠

التاريخ : ٢٥ ذو الحجة ١٤٤٢

الموافق : ٢٠٢١ / ٨ / ٤

إلى / سماحة المرجع الديني للمسلمين الشيخ صالح الطائي المحترم
صاحب أحسن تفسير للقرآن
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق
م/شكر وتقدير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

وأسأل الله تعالى ان يوفقكم ويحفظكم ويرعاكم انه سميع مجيب الدعاء.

عزيزي سماحة الشيخ المحترم :

تسلمت بمزيد من الفخر والاعتزاز الجزء (الواحد والعشرين بعد المائتين) من موسوعة (معالم الإيمان في تفسير القرآن) وهو الجزء الخاص بقانون (النزاع المسلح بين القرآن والإرهاب) التي تدلل على ما حباكم الله تعالى به من رعاية ربانية علمية في انجاز هذا العمل العلمي الكبير ، وهو أول عمل علمي في العالم الإسلامي بهذا الحجم وبهذا العمق وبهذا المنهج ، وأسأل الله تعالى أن يديم عليكم نعمة العافية والستر والتوفيق والسداد من أجل تقديم المزيد من العطاء الفكري والعلمي في هذا التخصص النادر ، والله يحفظكم ويرعاكم بعين حفظه ورعايته إنه سميع مجيب الدعاء.

أكرر شكري وتقديري وامتناني العظيم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

م

الأستاذ الدكتور محمد جاسم المشهداني

الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب

العميد/رئيس الهيئة العلمية لمعهد التاريخ العربي

والتراث العلمي للدراسات العليا





الجمهورية العربية السورية

جامعة دمشق

رئيس جامعة دمشق

٢٠٥٧ / ٢٢

سماحة المرجع الديني الشيخ صالح الطائي المحترم
صاحب احسن تفسير للقرآن
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

أتقدم اليكم بجزيل الشكر والتقدير لهديتكم القيمة الجزء
الحادي عشر بعد المائتين الخاص بقانون (آيات السلم محكمة
غير منسوخة).

وأتمنى من الله أن يديم عليكم نعمة الصحة والعافية والمزيد
من النجاح والتوفيق ، نبارك لكم جهودكم ونقدر لكم هذا
الإهداء...

رئيس جامعة دمشق

الأستاذ الدكتور محمد يسار عابدين

٢٥ نية ٢٠٢١ ١٢ رمضان ١٤٤٢

Republic of Iraq
Ministry of Higher Education &
Scientific of Research
University of Diyala

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ديالى

مكتب رئيس الجامعة

العدد ١٧١

No.:

Date:

التاريخ ٢٠٢٠ / ١١ / ٥

سماحة المرجع الديني الشيخ صالح الطائي المحترم

صاحب أحسن تفسير للقرآن الكريم

استاذ الفقه والاصول والتفسير والاخلاق

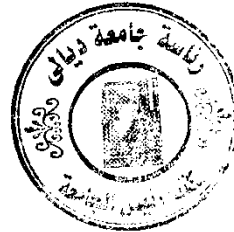
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

تلقينا بكل تقدير وامتنان إهداءكم نسخة من (معالم الإيمان في تفسير القرآن) الجزء السادس
بعد المائتين ، وتقدم بخالص الشكر والعرفان على هذا الاهداء ، لأدعو الله العلي القدير أن
يهدكم بعونه وتوفيقه ، وان يسدد خطاكم ويكمل أعمالكم بالنجاح أنه سميع مجيب
ومن الله التوفيق

أ.د. عبد المنعم عباس كريم

ع / رئيس جامعة ديالى

٢٠٢٠/١١/٤



KINGDOM OF SAUDI ARABIA
Ministry of Higher Education
KING FAISAL UNIVERSITY
(037)



الجامعة العربية
وزارة التعليم
جامعة الملك فيصل
(٠٣٧)

الموضوع:

الموكر

فضيلة الشيخ/ صالح الطائي
مكتب المرجع الديني وصاحب أحسن تفسير للقرآن
وأستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق
ص.ب - ٢١١٦٨ مملكة البحرين

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد
تلقيت بكل الثناء والتقدير خطاب فضيلتكم رقم ١٦/١٨٦١ وتاريخ
٢٠١٦/٥/٢٠م المرفق طيه نسخة من كتاب بعنوان "معالم الإيمان في
تفسير القرآن" الجزء الثاني والثلاثين بعد المائة.
يطيب لي ويسعدني أشكر فضيلتكم جزيل الشكر على إهتمامكم
المتواصل بتزويد إدارة الجامعة بهذه النسخة ، وستحال إلى مكتبة
الجامعة للإطلاع عليها، سائلاً المولى جلّت قدرته للجميع التوفيق
والسداد.

وتقبلوا خالص تحياتي وتقديري،،،

مدير الجامعة

د. عبدالعزيز بن جمال الدين السعاتي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جامعة كردفان UNIVERSITY OF KORDOFAN

Our Ref:
Date:

المرءة: ج ك/م/ ١٧/ ٣/ح/ كءب المءءر
Vice Chancellor Office
ءاءرءء: 2016/8/16

الساءة/ مكءب المراءع الءءنء
الشءء صاءل الطاءن
صاءب آءسن ءفسءر للقرآن
السلام علءكم ورحمة الله وبركاءه

ءهءءكم ءامعة كردفان أطءب ءءاءا ، وءغمرنا السعاءة بالإصءاءاءاءء
الءء ءءوالء إلءنا بأنءظام من مكءب المراءع الءءنء فء (معالم الإءمان فء ءفسءر
القرآن) والءء كان آءر هءه الإصءاءاءاءء (الءءء الساءس والءلاءن بعء
الماءة) والءء ءشرفنا بإسءلامه بموءب ءطابكم رقم ١٦/١٥٣٥ الصاءر فء
٢٠١٦/٧/١٣م، وءلك إءراءاً للمعرفة فء مءال ءفسءر آءاء القرآن، ءءمة
للباءءن والمهءمءن بأمر ءفسءر القرآنء، والءء أضءء مءاءة فء الأقسام
المءءصة بالمكءباء الأكاءءمءة فء الءامعاء ومراءز البءوء وءامعة كردفان
ءءطى بأعءاء واءرة منها فء مكءبها المراءءة.

ءءاماً لكم الشكر والعرفان على هءا الصنعء، نفءنا الله به، وأءابكم
علءه ءئر الءءاء .

وءفضلوا بقبول فاءق عباءاءءءءءر والإءءرام

أ.ء. آءمء عبءالله عءب الءور
مءئر الءامعة



الرقم: ١١٤٦٠ / ١ / ١٧٢
 التاريخ: ١٠ / ٢ / ١٤٣٦ هـ
 الملاحظات:
 الملاحظات:



الجمهورية العربية السورية
 وزارة التعليم العالي
 الجامعة الإسلامية الحديثة - دمشق
 مكتب المدير
 (٠٣٣)

سلمه الله

معالي الشيخ/ صالح الطائي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،، وبعد

فأسأل الله لمعاليتكم العون والتوفيق، ويسرني إفادتكم بأني تلقيت بكل تقدير وإمتنان إهداءكم للجامعة نسخة من الجزء التاسع بعد المائة من (معالم الإيمان في تفسير القرآن).

وإنني إذ أقدم لمعاليتكم بخالص الشكر والعرفان على هذا الإهداء، لأدعو الله العلي القدير أن يمدكم بعونه وتوفيقه، وأن يسدد خطاكم ويكمل أعمالكم بالنجاح إنه سميع مجيب يحفظكم الله ويرعاكم.

ولكم تحياتي وتقديري

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مدير الجامعة الإسلامية

أ. د/ عبدالرحمن بن عبدالله السند

MINISTRY OF HIGHER EDUCATION
& SCIENTIFIC RESEARCH
THE IRAQIA UNIVERSITY
THE PRESIDENT OFFICE OF UNIVERSITY



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
الجامعة العراقية
مكتب رئيس الجامعة

NO.:

DATE: / / 201

العدد : ٢٩٢ / ١
التاريخ : ٢٠١٦ / ٤ / ١٠ م
١٤٣٨ / ١ / ١٠ هـ

المرجع الديني الشيخ صالح الطائي المحترم
صاحب أحسن تفسير للقرآن
تحية طيبة...

نشكر مبادرتكم الطيبة بإهداءكم لنا نسخة من كتابكم الموسوم الجزء
الثلاثون بعد المائة من (معالم الإيمان في تفسير القرآن) سائلين الباري عز
وجل أن يوفقكم في مسيرتكم العلمية والعملية خدمة لبلدنا العزيز.
ومن الله التوفيق...

أ.د. علي صالح حسين

رئيس الجامعة العراقية

٢٠١٦/٤/١



إلى / المرجع الديني الشيخ صالح الطائي المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :-
قال تعالى ((نُفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)) أنه لفرح كبير وفخر أكبر ان احظى بأجزاء من تفسيركم للقرآن الكريم ، وهو تفسير واسع اضيف الى المكتبة الإسلامية ، وسيكون له اثره الطيب في فهم نصوص القرآن الكريم ولكم به أجر وثواب الآخرة ، ولا يسعنا في هذا المقام الا ان تقدم لكم شكرنا وتقديرنا على هذا الإهداء الفريد ، متمنين لكم التوفيق والمزيد من العطاء المبارك.
مع فائق الاحترام...

الاستاذ الدكتور
مازن حسن جاسم الحسني
رئيس جامعة واسط

الاستاذ الدكتور
مازن حسن جاسم الحسني
رئيس جامعة واسط
٢٠٢٠/٨/٢٤

Ministry of Higher Education &
Scientific Research
Basra University

Dept. of Media & Public
Relations



وَلَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَلَا يَكُونُ لَهُ عَدَدٌ
رَأْسِيَّةٌ جَاوِزَةُ الْبَصَرَةِ
قِسْمُ الْإِعْلَامِ وَالْعَلَاqَا أَعْلَى مَتَ

العدد: ٢٩/٣١/٢٠١٤

التاريخ: ٢٩/٣/٢٠١٤

الشيخ محمد الشيخ صالح الطائي المحترم

مدير مكتب المرجع الديني آية الله العظمى الشيخ صالح الطائي المحترم

نهديكم أطيب التحيات ...

نتقدم بأجمل عبارات الشكر والتقدير على جهودكم المبذولة في إهدانكم إيانا
نسخة من كتابكم (معالم الإيمان في تفسير القرآن/ الجزء الواحد بعد المائة)
 متمنين لكم المزيد من التقدم والنجاح.
تفضلوا بقبول وافر الاحترام ...

الأستاذ الدكتور
ثامر احمد حمدان
رئيس الجامعة



العدد: ٦٨٩٤ / ٥٤ / ٧

التاريخ: ٢٠١٦ / ٦ / ٨

إلى / مكتب المرجع الديني الشيخ صالح الطائي
صاحب أحسن تفسير للقرآن

بسم الله الرحمن الرحيم
والله اعلم بالصواب

باعتراز بالغ واعجاب شديد بالجهود الكبيرة لسماحة آية الله
العظمى الشيخ صالح الطائي (دام ظله) في تفسير كتاب الله
العظيم من خلال تلقينا اهداءكم المبارك للجزء (١٣٢، ١٣٣،
١٣٤) من معالم الإيمان في استظهار كنوز من كتاب الله المجيد،
سائلين المولى عز وجل ان يوفق الشيخ الجليل لما فيه خير الدنيا
والآخرة وخدمة الإسلام والمسلمين .

والله اعلم بالصواب
والله اعلم بالصواب

أ.د. رياض شنته جبر
رئيس جامعة ذي قار
٢٠١٦ / ٦ / ٨

Republic of Iraq
Ministry Of Higher Education
and Scientific Research
University of Al-Qadisiya
Chief of University Office



جُمْهُورِيَّةُ الْعِرَاقِ
وَزَارَةُ التَّعْلِيمِ الْعَالِيِّ وَالتَّحْقِيقِ الْعِلْمِيِّ
جَامِعَةُ الْقَادِسِيَّةِ
مَكْتَبُ رَئِيسِ الْجَامِعَةِ

Ret:

Date:

العدد: ٢٠١٥ / ٢

التاريخ: ٢٠١٥ / ٢ / ٩

إلى / مكتب المرجع الديني آية الله العظمى الشيخ صالح الطائي المحترم
صاحب أحسن تفسير للقرآن
م/شكر على اهداء

تحية طيبة ...

تسلمنا ببالغ الشكر والتقدير الجزء السابع بعد المائة من التفسير
وهو القسم الأول من تفسير (أن يمسسكم قرح فقد مس القوم
قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس) شاكرين لكم اهداءكم
متمنين لكم مزيداً من الإرتقاء والأزدهار والتطور.
...مع التقدير

٢

أ.د. أحسان كاظم شريف القرشي

رئيس الجامعة

٢٠١٥/٢/٩

بسم الله الرحمن الرحيم

Jadara University

Office of the President



جامعة جدارا

مكتب الرئيس

Ref. _____

Date _____

الرقم ٨١٦٠:٨١٦٠ / ٧٦٩

التاريخ ٢٠١٢/٥/٢٦

الموافق ٢٠١٢/٥/٢٦

سيادة الأُمّ الشّيخ صالح الطائي المحترم

صاحب أحسن تفسير للقرآن الكريم

وأستاذ الفقه والأصول والأخلاق

بكل فخر واعتزاز تلقيت رسالتكم الموقرة التي تحمل العدد (٥٣٢)
تأريخ ٢٠١٢/٥/٢٦م، ومرفقها الجزء التسعون من التفسير في
الآية (١٣٣) من سورة آل عمران.

وانني إذ أشكركم جزيل الشكر وعظيم الإمتنان على اهدائكم
هذا، سائلاً المولى عز وجل أن يديم عليكم نعمة الصحة والعافية، وأن
يجعلكم سنداً وذخراً للأمة الإسلامية متمنياً لكم كل التقدم
والإزدهار.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

رئيس الجامعة

أ. د محمد الطعانه

بسم الرحمن الرحيم

كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية

بيروت في ٩/ ربيع الأول/ ١٤٤٠هـ

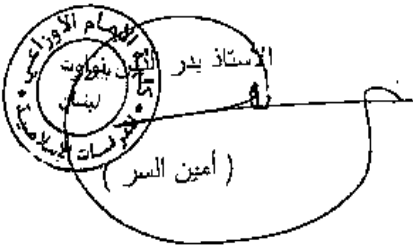
الموافق ٢٤/ ١١/ ٢٠١٨م

سماحة المرجع الديني الشيخ صالح الطائي المحترم
صاحب أحسن تفسير للقرآن
مكتب المرجع الديني الشيخ صالح الطائي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تتقدم كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية بأطيب تمنياتها،
وتشكركم على الجزء (١٧١) الذي وصلنا من جانبكم من كتاب: "معالم
الإيمان في تفسير القرآن" والذي يتضمن قراءة في آيتين من القرآن بما يدل
على أن النبي (ص) كان لا يسعى إلى الغزو ولم يقصده ولم يدع إليه.
آملين الإستمرار في إرسال الأجزاء التي ستصدر منها مستقبلاً،
شاكرين لكم حسن تعاونكم الدائم معنا وداعين الله تعالى أن يوفقنا وإياكم
لما فيه خير الإسلام والمسلمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



تحريراً في: ٢٥ من ربيع أول ١٤٢٥هـ

١٥ من مايو ٢٠٠٤م

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



رئاسة الجامعة

قمتظينة نفي: 2015/03/25

جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية

قمتظينة

رقم 498... / رج / 2014

إلى السيد المحترم / الشيخ صالح الطائي
صاحب أحسن تفسير للقرآن
مكتب المرجع الديني

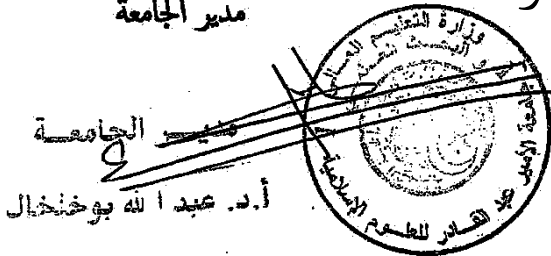
تحية طيبة وبعد :

تلقينا نحن أ.د / عبدالله بوخلخال مدير جامعة الأمير عبد القادر للعلوم
الإسلامية قسنطينة، هديتكم القيمة المتمثلة في كتاب (معالم الإيمان في
تفسير القرآن) الجزء الثالث عشر بعد المائة.

وإذ نعبر لكم عن شكرنا على هذه الإلتقاة الكريمة، نهديكم نحن بدورنا
نسخة من مجلة الجامعة العدد ٣٣ ونسخة من نشرة أخبار الجامعة.

تقبلوا فائق الاحترام والتقدير.

مدير الجامعة



طبيب الجامعة

أ.د. عبدالله بوخلخال

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة	١٤٣	قانون بيان الميثاق مقدمة للإيمان
١٣	الآية ١٨٨ القراءة والإعراب	١٥١	النسبة بين أهل الكتاب والذين أوتوا الكتاب
١٦	سياق الآيات	١٥٣	قانون إقامة الصلاة في كل دقيقة
١٦	الشعبة الأولى / صلة بين آية البحث والآية السابقة	١٥٧	أقسام ميثاق النبوة
٣٢	تقدير ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾	١٦٢	آيات معركة الأحزاب
٣٤	اسم الجلالة في الآية	١٦٥	قريش والميثاق
٤٢	قانون نبذ الإرهاب من إعجاز الآية السابقة	١٧٠	قانون الهجرة تثبيت للفرائض العبادية
٤٤	الوجه الثاني	١٧١	قانون إزاحة عوائق الهجرة
٥٤	الوجه الثالث	١٧٣	إعجاز الآية الذاتي
٩٥	الشعبة الثانية / صلة آية البحث بالآية المجاورة التالية	١٧٥	إعجاز الآية الغيري
١٠٧	من مواطن الآخرة	١٧٧	الآية سلاح
١٢٣	من آيات الحساب	١٧٨	مفهوم الآية
١٢٧	سنخية الإبتلاء	١٨٣	الآية لطف
١٣١	قانون (نَصَرْتُ بِالرَّغْبِ)	١٨٤	إفاضات الآية
١٣٧	بحث أصولي مستحدث: لام التكليف	١٨٨	الآية بشارة

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٨٩	الآية رحمة	٢٣٧	جراحات النبي (ص) في معركة أحد
١٩٠	الآية إنذار	٢٤٠	قوله تعالى ﴿فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾
١٩٢	الصلة بين أول وآخر الآية	٢٤٤	تكرار ﴿تَحْسَبْنِ﴾
١٩٤	من غايات الآية	٢٤٥	بحث بلاغي
١٩٧	أسباب النزول	٢٤٧	قانون المنافع اليومية للميثاق
٢٠٣	التفسير	٢٤٨	قوله تعالى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
٢٠٥	قوله تعالى ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾	٢٥٢	قانون إتحاد النعمة مع عمومها وتجديدها
٢١٣	قانون توثيق القرآن للهجرة	٢٥٣	أقسام الحيض
٢١٥	قانون عذاب الكافر في الدنيا	٢٥٦	لماذا الميثاق خاص
٢١٧	علم المناسبة	٢٥٩	هل يعلم الملائكة بميثاق الذر
٢١٩	من وجوه تقدير الآية	٢٦٢	الميثاق في القرآن
٢٢١	قانون من الفطرة الإعراض عن الكفار	٢٦٦	قانون الإنذار طريق للتوبة
٢٢٤	بحث كلامي (لا تحسبن)	٢٦٩	قانون عام الوفود من الميثاق
٢٢٧	علم المناسبة	٢٧٣	آيات في الثناء على أهل الكتاب

الفهرس

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
خمس المكاسب تشريع وليس حكماً ولائياً	٢٨٥	قوله تعالى ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾	٢٣٠
قانون استدامة الحمد	٢٩٨	قانون مغيات القرآن العالمية أيام النزول	٢٧٧
من النصر بيد إظهار البشارات بالنبوة	٣٠٠	خشية قريش من إعانة الروم للنبي (ص)	٢٧٩
ردود كريمة	٣٠٤	لماذا تكررة لفظ (عذاب) في الآية	٢٨٣
الفهرس	٣٢٥		

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

٣٠١ لسنة ٢٠٢١

طُبِعَ هَذَا الْجُزْءُ عَلَى نَفَقَةِ
الْأَمِيرِ الشَّيْخِ غَانِمِ الشَّيْخِ دُرِّ الْفَيَاضِ